

المساكين



تأليف
دستوفسكى

غزالي

0164988



Bibliotheca Alexandrina

المساكين

تأليف

دوستوفسكي

ترجمة

سعد الغزالي

دار الطباعة الحديثة

• شارع غيط النوري - ب ٢٩٣١٨

ف . م . دوستويفسكى

حياة دوستويفسكى مأساة روح عظيمة . تأثرت بآلام البشر .
فقد حملت عبقريته عبء المظالم الاجتماعية وما يعانيه الناس من عذاب
ثم ما لبثت أن ناءت بما حملت ، فتحطمت هى نفسها تحت هذا العبء .

ولد فيورود ميخائيلوفتش دوستويفسكى فى موسكو سنة ١٨٢١
وعاش إلى سنة ١٨٨١ ، وكان أبوه طبيباً فى مستشفى خيرى ، وفى
١٨٤٣ أنهى دوستويفسكى دراسته فى مدرسة الهندسة العسكرية بسانت
بطرسبرج ، والتحق بمكتب التصميمات بوزارة الأشغال . ولما لم ترضه
الوظيفة استقال فى سنة ١٨٤٤ وبدأ حياته الأدبية .

وكانت أولى أعماله رواية المساكين وهى التى جلبت له الشهرة .

ورواية المساكين ، مهداة — إلى « البؤساء » الذين هضمت
حقوقهم ، وداستهم الأقدام ، والذين وصفهم بعمق وحرارة وإحساس
وبطل هذه الرواية كاتب بائس يحتقره الجميع هو — ماكار اليكسييفتش —
الذى حطمت له الحياة ، حتى لم يخش الاعتراف بأنه بائس .

والرواية مكتوبة فى صورة سلسلة من الخطابات لا يعلق عليها الكاتب .
والواقع أن هذا قد أتاح له أن يكشف عن أعماق الأغوار فى عقلية بطله...
هذه العقلية التى تبدو تافهة أحياناً ، مضحكة أحياناً أخرى : أحياناً تثير
الضحك ، وأحياناً تافهة .

وقد كان دوستوفسكى تليذاً لجوجول وييلنسكى ؛ لذا فقد وعى أرقى ما وصل إلى عصره من أدب ، وإن يكن كيانه الروحى قد اهتز اهتزازاً عنيفاً عندما حوكم لاتصاله بجماعة سياسية تقدمية ، وحكم عليه بالإعدام ، ثم خفض الحكم بعد ذلك إلى النفي ، بعد أن عانى المؤلف ما عانى من الإجراءات الخاصة بتنفيذ حكم الإعدام .

وعاد من منفاه بعد سنوات عشر ، ولكنه لم يعد الرجل الذى كان قبل أن يعانى هذه المحنة : كان قد فقد إيمانه « فى طبيعة الإنسان نفسها » فلجأ إلى الدين يطلب العزاء .

وقد وصل مؤلف « المساكين » إلى ذلك الحب المسيحى السلبى الذى يقول عنه « ا . هرذن » : « إن الحب السلبى قد يكون قويا ؛ فهو يبكى ويتحدث ويمسح الدموع ، ولكن المشكلة أنه لا يفعل شيئاً » .

ولا تخلو كتابات دوستوفسكى من بعض الأفكار الرجعية حينما يعرض للظالم الاجتماعى بعد أن فقد إيمانه بالبشر ، مما يدفع بالرد إلى التأمل السلبى للشر وإلى الفساد الاجتماعى ومع ذلك فإن ما فى عمله من صدق سيعيش إلى الأبد ..

أف .. من هؤلاء القصاصين . . . ١١

ألا يستطيعون كتابة شيء نافع أو ممتع أو مبهج ؟

كلا ! فإنهم لابد أن ينبشوا كل القاذورات !

ليتني أستطيع أن أمنعهم من الكتابة على الإطلاق . .
فما فائدتها ؟ إنك لتقرأ ما يكتبون ولا تملك إلا أن تفكر ،
وتقفز إلى ذهنك كل أنواع التفاهات !

. . ليتني أستطيع أن أمنعهم من الكتابة جميعاً . .
ليتني أستطيع حقاً . . .

الأمير ف . ف . أودويسكي



٨ من أبريل :

حبيلتي فارفارا اليكيسفنا

كنت سعيدا الليلة الماضية ، سعيدا إلى درجة لا يتصورها العقل ، إذ فعلت مرة في حياتك يا حبيلتي العنيدة كما طلبت منك . كانت الساعة الثامنة مساءً عند ما استيقظت (وأنت تعلمين أنني مغرم بإغفاءة قصيرة بعد العمل) . فأحضرت شمعة ، وأعددت أوراقى ، وكنت أشذب ريشتى عند ما تصادف أن رفعت بصرى . ولشد ما خفق قلبي . . إذ أخيرا فهمت ماذا أردت ، وما يطمناه قلبي ! كان ركن ستارك مثبتا بوعاء الريحان كما اقترحت أنا تماما ، بل لقد بدا لي أن وجهك الصغير يضئ خلف النافذة ، وأنتك تحتلسين النظر .. وتفكرين في .. وأى أسى ملأني يا يمامتى الوديعه إذ كنت لا أستطيع أن أرى في وضوح وجهك الصغير الحبيب . فأنا أيضاً كنت يوما ما قوى البصر بيد أن الشيخوخة ليست نعمة على الإطلاق يا عزيزتى ، كل شيء قد طمس ، وقليل من الكتابة في المساء يثير التهاب العين ويملؤها بالدموع في الصباح حتى ليخجل المرء أن يراه الغريب ، ولكن ابتسامتك يا ملاكى ، الصغير كانت تضيء عقلى ! ابتسامتك الحلوة الجميلة ! .

وملا قلبي الشعور الذى به أحسست يوم قبلتك : أتذكرين ؟ بل

لقد بدا لى أنك تزجريذنى بإصبعك الصغيرة . والآن : هل كنت تفعلين ذلك حقا ؟ يجب أن تخبرينى عن كل شىء فى خطابك القادم .

وما رأيك فى حيلتنا الصغيرة مع الستار يا عزيزتى . ؟ رائعة ! أليس كذلك ؟ فأنا فى عىلى أو فى نوى أو فى صحوى أستطيع أن أعرف على الفور أنك هناك ، تفكرين فى ، إنك تذكرينى ، إنك سعيدة وبخير . لإنزال الستار معناه عندى « طاب مساؤك ياما كار اليكسيفتش » ، وعندما ترتفع فإنها تعنى « سعدت صباحا ياما كار اليكسيفتش » ، أتمنى أن تكون قد نمت نوما هادئا . ، أو وكيف الحال يا مكار اليكسيفتش — لأننى سعيدة وبخير والحمد لله . .

أترين يا عزيزتى كيف حققت هذه الحيلة الغاية منها ، . إنها لتجعل حتى الخطابات لاداعى لها .. إنها حيلة بارعة . أليس كذلك ؟ . إنها فكرتى ، فأنا ماهر فى مثل تلك الأمور — ألا ترين هذا معى ؟

وحينئذ قد أخبرك يا صغيرتى فارفارا اليكسينفا أنه على عكس ما كنت أتوقع نمت نوما هادئا طوال الليل . . وهذا شىء يبعث على الرضا فالإنسان لا ينام جيدا فى أماكن جديدة ، فإذا لم يكن ثمة شىء معين يجعلك لا تنام فهناك شىء آخر .

لقد صحت هذا الصباح سعيدا نشيطا كالبلبل . وباله من صباح جميل يا عزيزتى ! كانت النافذة مفتوحة على مصراعها ، والشمس ساطعة ، والطير

تفرد ، وشذا الربيع يملأ الهواء ، والطبيعة كلها مفعمة بالحياة ، وكل شيء في انسجام أيضا ، كل شيء كما ينبغي أن يكون في الربيع ، بل لقد راودت خاطري بعض التأملات الممتعة هذا الصباح ، وكلها تدور حولك يا عزيزتي .

لقد قارنتك بطير صغير في السماء ، خلق لعزاء البشر وجمال الطبيعة... وهنا قفز إلى ذهني يا فارنكا أننا نحن البشر : نعيش في ضيق وقلق ، ولذلك يجب أن نحسد الطير : البريئة المنطلقة في السماء ..

وهكذا أخذت أعقد في هذا المجال مقارنات سعيدة غامضة ، وكان معي كتاب يا فارنكا ، وفيه ستجدين أشياء كثيرة من هذا النوع ، وبتفصيل أكثر أيضا . كل أنواع الأحلام تواردت إلى عقلي يا عزيزتي ، ولا أستطيع إلا أن أكتب عنها . والآن . وقد أقبل الربيع أراها مبهجة مسلية رقيقة ، وكلها في حالة وردية . هذا هو السبب في أنني أكتب مثل هذا ، ولكن أصرحك بالحقيقة إنها : كلها من الكتاب ، إن أحلام المؤلف مثل أحلامي ، وكلها شعر إذ يقول :

ليتني كنت طيرا في السماء يقتنص ما يشاء !

... وهكذا يسترسل لي شعره . وهناك أفكار أخرى أيضا . ولكن دعينا من هذا . أفضل أن تخبريني أين ذهبت هذا الصباح يا فارفارا اليكسيفنا ، فقد كنت على وشك الذهاب إلى عملي عندما خرجت نشيطة مريحة من غرفتك ، وكان مجرد النظر إليك متعة .

آه يا فارنكا - فارنكا لا تبتئسى . . إن الدموع لا تفيد . . صدقيني يا حبيبتي فقد تعلمت ذلك عن تجربة ، ومع هذا فأنت بخير الآن ، وصحتك أفضل . وكيف حال فيدورا ؟ أية امرأة صالحة هي ! أكتبلى يا فارنكا ، وخبرينى كيف تعيشان معا ؟ هل كل شئ على ما يرام ؟ إن فيدورا تغضب أحيانا ، ولكن لا تهتعى ، إنها امرأة صالحة . . ليباركها الله

لقد كتبت من قبل عن تريزا ، إنها امرأة صالحة شريفة أيضا . . . لقد كنت قلقا جدا ، كيف نتبادل الخطابات ؟ وهنا لحسن الحظ أرسل إلينا الله تريزا ، إنها روح عطوف ، وديعة كريمة ، ولكن ربة الدار قاسية ، فهي تحملها من العمل فوق طاقتها .

. . ياله من مكان ذلك الذى انتهيت إليه يا فارفارا أليكسيفنا ! ياله من كوخ وياله من مسكن ؟ لقد تعودت أن أعيش كراهب كما تعلمين ، كان ذلك هادئاً ساكناً حتى لمستطيعى أن تسمعى طنين ذبابة . أما هنا فضجة وصراخ وشغب ، ولكنى لم أخبرك كيف حال المكان هنا ، ما عليك إلا أن تتخيلي دهليزاً طويلاً جداً مظلماً قدراً ، وجدارا عارياً على اليمين ، وصفاً من الأبواب على الشمال كأننا فى غرف يؤجرها شخص أو اثنتان أو ثلاثة ، إنها فوضى . . فلك نوح حقاً ، ومع هذا فهم يبدون كما لو كانوا أناساً طيبين ، وذوى نشأة راقية وتعليم عال .

. أحدهم كاتب [له صلة بالأدب بطريقة ما] كثير الإطلاع ، يعرف

الشيء الكثير عن هوميروس وبرامبيوس (١) لأنه أنواع المخطوطات والمؤلفات الأخرى — وعن كل شيء رجل ذكى .

ثم هناك ضابطان من الجيش يلعبان الورق دائما ، وضابط بحرى أيضا ، ومدرس لغة إنجليزية . . ولكن انتظرى خطابى التالى يا عزيزتى . سأصفهم بطريقة لاذعة كي أسليك ، سأصفهم كما هم بالتفصيل .

أما ربة الدار فأمرأة عجوز ضئيلة خرقاء ، تتجول بقفطان وشبشب وتصيح في وجه تريزا طوال النهار . لئن أعيش في المطبخ ، أو ما يشبه المطبخ وإلى جوار المطبخ مباشرة هناك غرفة [ويجب أن أقول إن مطبخنا مطبخ جيد تماما . نظيف ولا مع] ؛ والغرفة ليست كبيرة ، مجرد جحر ، أو لعلنى يجب أن أقول : إن المطبخ كبير وله ثلاث نوافذ ، وهو مقسم ليسكون غرفة أخرى : مسكنا إضافيا . إنه واسع مريح وله نافذة . وهناك أعيش أنا . وباختصار كل شيء مرض تماما . والآن لا تظنى أننى أعنى شيئا من وراء هذا كله ، ولكن مجرد ، أن أبين أن الغرفة جزء من المطبخ ، وإن كنت أعيش فى هذه الغرفة خلف الحاجز فإن هذا لا يهم ؛ فلى وحدتى . وعزلى ، وأعيش فى هدوء ووحدة .

« ١ » بارون برامبيوس — وهو الاسم المستعار لكاتب الشهير سنكوفسكى .

أما الأثاث ، فعندى سرير ومنضدة وصندوق ذو أدراج وكريسيان .
وقد نصبت أيقونة أيضا . صحيح أنه قد توجد غرف أفضل من هذه
ولربما أفضل منها بكثير . ولكن الشيء الجوهرى هو الراحة . أليس
كذلك ؟ ولهذا فقد عملت هذا كله من أجل الراحة ، ولا تظنى أننى
أعنى شيئا آخر .

ونافذتك على الطرف الآخر من الفناء مباشرة « والفناء ضيق ،
وأستطيع أن أراك تمرين ؛ كل هذا سيكون أكثر متعة لرجل وحيد
وأرخص أيضا . ؛ فأجمل غرفة فى المنزل تتكلف خمسة وثلاثين من
الروبلات ، مع المأكل . وهذا أكثر مما أطيق أما غرقتى فتكلفنى أربعة
وعشرين روبلا ونصف الروبل مع المأكل ، على حين كنت أدفع
قبل ذلك ثلاثين كاملة ، فاضطرت أن أحرم نفسى أشياء كثيرة .

وقد كنت فيما مضى لا أستطيع أن أشتري الشاى دائما ، أما الآن
فأستطيع أن أوفر الكثير كى يكون عندى الشاى والسكر ، لست أدرى كيف
أخجل من أن أعيش بدون الشاى يا عزيزتى ؛ فكل شخص محترم هنا ، وهذا
مخرج ، بل إن هذا هو السبب الذى يدفع الإنسان إلى شرب الشاى
يا عزيزتى : من أجل الآخرين — من أجل المظاهر ، من أجل الظهور
بمظهر لائق ، أمام الناس . ولولا هذا ما اهتممت ، فلست من النوع
الذى تثيره التوافه . وإذا ما احتجرت بعض المال من أجل « الطواريء » ،

من أجل حذاء أو قطعة من ملابس ، فإذا سيقى ؟ وهكذا يتلاشى مرتبتي كله .

وليس معنى هذا إطلاقاً أنني أشكو ؛ فإفقد كان مرتبتي يكفيني طوال السنين الماضية ، بل أحياناً ألقى علاوات أيضاً .

وأخيراً ، إلى اللقاء « يا ملاكى » لقد اشتريت لك بضعة أوعية من الريحان والجيرانيوم * ، لقد كانت رخيصة . واربما كنت مغرمة « بالقرحنة » .. إن عندهم « تمر حنة » أيضاً . وسأحضرها بمجرد أن تكتبي إلى ، ولكن أرجو أن تكتبي كل شئ بتفصيل أكثر .

وقبل أن أنسى يا عزيزتى ، لا تفكرى كثيراً ، لا تدعى المواجهس تساورك من ناحيتي لأننى استأجرت غرفة مثل هذه ؛ فإن رغبتى فى الراحة وحدها هى التى دفعتنى إلى ذلك ، ولا شئ غير الراحة . إننى أدخر النقود يا حبيبتى ، وأعدها كي أكسو العش بالريش ، وقد أبدوكما لو كانت ذبابة تستطيع أن تسقطنى بمخاحها ولكن فكرى جيداً ؛ إننى لست من هذا النوع . إننى أعرف من أنا ؟ إن لى خلق رجل حازم وفى روحه صفاء .. إلى اللقاء يا ملاكى ، الصغير ، لقد وجدت أننى كتبت صحيفتين كاملتين ، وكان الواجب أن أبدأ العمل منذ

وقت طويل ، لئنى أقبل أصابعك الرقيقة يا حياى وسأظل . .
خادمك المتواضع وأخلص الأصدقاء
ماكار ديفشكين

ملاحظة : شىء واحد أرجوه منك : اكتبى لى يا عزيزتى بتفصيل
بقدر الإمكان ، لئنى أرسل لىك رطلا من الحلوى يا فارنكا ، أتعشم أن
تتمتى بها ، وأستحلفك بالله ألا يساورك القلق من ناحيتى ؛ وهكذا ..
مرة أخرى .. وداعاً يا حبيبتى .



٨ من أبريل

عزيزى ماكار اليكسيفيتش

أخشى أن أرائى مضطرة قبل كل شئ أن أتشاجر معك . أوكد لك يا صديق ماكار اليكسيفيتش أنه يصعب على حقاً أن أقبّل هداياك وأنا أعلم كم كلفتك ، وأى حرمان وأى إنكار للذات تقاسيه ، وكم من مرة أخبرتك أننى لأحتاج إلى شئ على الإطلاق ، أنت تعلم أننى لأستطيع أن أجزيك على عطفك الذى تغمرنى به .

لماذا أرسلت هذه الأزهار ، فرع من الريحان ربما لايهم ، ولكن لماذا أرسلت الجيرانيوم ؟ .. ما على المرء إلا أن تفلت منه كلمة كما فعلت أنا . عن الجيرانيوم اترع أنت وتشتريها . ولا بد أنها غالية . ولكنها جميلة . صلبان حر من الأزهار . من أين ياترى جئت بها ؟ . لقد وضعتها فى أبرز مكان من النافذة . وسأضع رفاً تحتها ، وسأضع على الرف أزهاراً أخرى فقط : أنتظر حتى أصيب شيئاً من الثراء . إن فيدورا لا تمل النظر إليها . إنها كالفرديوس ، نظيفة لامة .

ولكن لماذا الحلوى ؟ إن خطابك جعلنى أشعر أن شيئاً ما على غير مايرام، ففيه الشيء الكثير من الجنة : والربيع والشذى والطيور المغردة . وقد كنت واثقة من أن خطابك سيحوى شعراً أيضاً ، كان يجب أن تكتب بعض الأشعار يا مكار اليكسيفتش ، فقد كان كل شيء موجوداً : المشاعر الرقيقة والأحلام الوردية ، وكل شيء .

أما عن الستار فإننى لم أفكر فيها أبداً . ولعلها علقـت عندما كنت أرتب الأزهار .

آه يا مكار اليكسيفتش : لا يهمنى ما تقول ، ولا كيف تحاول إقناعى بأنك أنفقت نقودك كلها فى شراء حاجاتك الشخصية ، فأنت لا تستطيع أن تخفى عنى شيئاً ، وأستطيع أن أرى أنك تحرم نفسك كل ضرورياتك من أجل . فما الذى جعلك تستأجر غرفة كهذه تشعر فيها دائماً بالعنيق والتعب وتشعر فيها أنك مقيد غير مستريح ؟ إنك مغرم بالعمالة ، وهذا هو الشيء الوحيد الذى لن تجده هناك . وأنت تستطيع أن تعيش عيشة أفضل بمرتب مثل مرتبك . ففقدوا تقول : إنك كنت تعيش أفضل من هذا بكثير . أمن المعقول أن تكون قد أنفقت حياتك كلها وحيداً ، فى عز وكآبة ، دون كلمة من صديق ، وفى أركان غريبة يؤجرها لك الغرباء ؟

أيها الصديق العطوف ، كيف يتألم قلبى من أجلك ؟ ولكن حاول على الأقل أن تحافظ على صحتك يا مكار اليكسيفتش . أنت تقول إن عينيك تتأذيان من الكتابة على ضوء شمعة ، إذن لماذا تفعل هذا ؟ من المؤكد

أن رؤساءك يعرفون أى مجتهد أنت ؟ فالحق أنك لكذلك .

مرة أخرى أرجوك ألا تنفق نفودك كذلك من أجل . لاني أعرف أنك تجبني ، ولكنك لست غنيا . في هذا الصباح استيقظت أنا أيضا منشروحة الصدر ، وشعرت بسعادة عظيمة تنغمرني . وكانت فيدورا تعمل لفترة طويلة ، وأحضرت عملا لي أيضا ، وقد جعلني هذا سعيدة جدا ، وقد ذهبت لأشتري بعض الحرير ، ثم بدأت عملي . وكنت أشعر طوال الصباح بسعادة ومرح يملآن قلبي ، لكنني حزينة الآن وقلبي مثقل بالهموم .

ماذا سيحدث لي ؟ ماذا ينتظرني في المستقبل ؟ من المؤلم حقا أن يكون المرء قلقا ، وألا يكون لديه آمال ، بل حتى ولا فكرة ضئيلة عما سيحدث . أما الماضي فقد كان مريرا جدا حتى أن مجرد تذكره يحطم قلبي سأكبي حتى نهاية أيامي من هؤلاء الأشرار الذين حطموا حياتي .

الظلام يقبل ، ويجب أن أبدأ العمل ، وكنت أحب أن أطيّل في الكتابة أكثر ، من ذلك ولكن لا وقت عندي ، والعمل عاجل ، ويجب أن أسرع به .

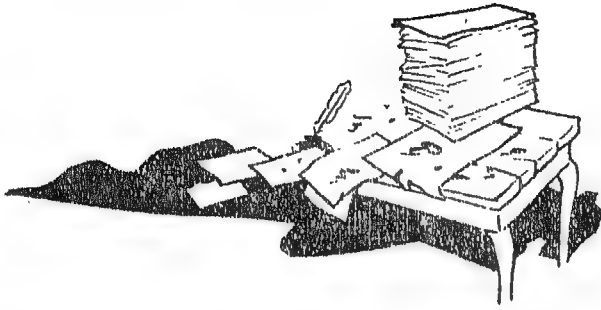
من الطبيعي أن تكون كتابة الخطابات شيئا لطيفا لاذ يشعر المرء أنه ليس وحيدا ولكن لماذا لاتأتني إلينا أبدا ، لماذا يا ماكار أليكسييفتش ؟ والمسافة ليست بعيدة الآن ، وبالتأكيد ستجد الوقت للمجيء . أرجوك تعال . . . لقد رأيت الآن فقط عزيزك تريزا . كانت تبدو

سريضة جدا ، وشعرت بالأسف من أجلها حتى أننى أعطيتها عشرين كوبكا .

أوه لقد كدت أنسى . . أرجو أن تتحدث إلى بالتفصيل عن نوع الحياة التى تحياها . وعن الناس الذين تخالطهم ، وما هى الطريقة التى تعاشرهم بها . . تأكد من أنك لم تترك كبيرة أو صغيرة إلا ذكرتها .. والليلة سوف أترك فتحة صغيرة عند ركن من أركان الستار خصيصا من أجلك . . فاذهب إلى فراشك مبكراً . . فقد شاهدت بالأمس شمعتك موقدة حتى منتصف الليل تقريبا . . حسنا . . إلى اللقاء ! أننى أشعر الآن فحسب أنى حزينه مكاثرة وجيدة . . لعل ذلك نتيجة لليوم الذى عايناه . . فإلى اللقاء .

صديقك

فافارا دوبروسيلوفا



٨ أبريل

عزيزتى فارفارا اليكسينا

أجل يا عزيزتى وحببتى .. هذا هو اليوم الذى كان من نصيبنا التعسر .
ولا شك أنك قد استوفيت نصيبك من السخرية بعجز مثل يافarfara
الكسينا ! ولكنها غلطى .. غلطى وحدى .. رجل عجوز مثل لم تلبق
فى رأسه غير شعيرات قلائل يتعرض لـكيوييد وللعواطف ! ومع ذلك
سأقول هذا يا أعز مخلوق لى — إن الإنسان مخلوق غريب فى
بعض الأحيان فإنه يتحدث عن تفاهات خيفة ، ويصل إلى أبعد الآماد .
ثم ماذا ينشأ عن هذا كله ؟ وماذا يعقب ذلك ؟ لاشئ على الإطلاق
اللهم إلا هذا الهراء الذى ادعوا الله أن يحفظنا منه ! لأنى لست حانقا
ياحببتى ، وإنما أشعر بالضيق كلما فكرت أنه ما كان ينبغى على أن
أكتب إليك بهذه الطريقة المنمقة الحقاء .

واليوم ذهبت إلى عملى سعيداً كأننى أحد الملوك . كان قلبى مفعماً بالضياء ،
وروحى عامرة بالسكينة . وعكفت على أوراق متحمساً فى بداية الأمر

ولكن عندما نظرت حولي بعد ذلك كان كل شيء جافا
كثيبا كسابق عهده : بقع الحبر والمناضد والأوراق كلها كما هي .. حتى
أنا أيضاً كنت كما أنا .. إذن لماذا جنح خيالي وإامتطيت ظهر
بيجاسوس ؟ ما الذي جعلني أرتكب مثل هذا العمل ؟ .. ألأن الشمس
أضامت من فوق ، وأحالت السماء إلى زرقة ، وأى ضياء أو شذا كان
هناك عند ما كان يحدث ما يحدث في الفناء تحت نوافذنا ؟ .. لا بد أن
هذا كله قد بعثه خيالي الأحمق ، وقد يشرد المرء أحيانا حتى لينسى
نفسه .. مجرد إفراط في حماس أخرق !!

ولكن هذا المساء .. وأنا في طريق إلى منزل كنت أجز نفسي .
وفضلا عن ذلك أخذ رأسي يؤلمني لسبب أو لآخر . إن الأشياء
تتعاقب دائما الواحد إثر الآخر : لعلمها الريح قد آلمت ظهري : فقد
كنت فرحاً بالربيع حتى إنني وأنا على ما أنا عليه من حماقة قد خرجت
في معطف خفيف .

دعيني أقل يا فارارا إنك أخطأت فهم مشاعري أخطأت فهمها
جميعا ، كانت عاطفة أبوية ، مجرد عاطفة أبوية يا فارارا . ففي يمتك
الموحش أخذت مكان والدك ، أقول هذا بكل إخلاص كما ينبغي أن
يقول قريب من أهلك : فما أنا بعد كل هذا إلا قريب بعيد ، ألسنت
كذلك ؟ ... قريب بعيد جداً طبعاً ، ولكنني مع هذا قريب منك .
والآن أصبحت أقرب الناس إليك ، وأول من يقوم على حمايتك :

لأنه حينئذ كان يجب أن تجدى المساعدة والحماية وجدت الحياة والإهانة،
أما عن الأسفار فالحق يا عزيزتى أنها لا تناسب رجلا مثل سنى أنت
ينكب على صناعة الشعر . والشعر — يافتاقى — عبث . عبث يضرب
من أجله الصغار فى المدارس هذه الأيام . هذا رأى فيه يا عزيزتى .

لماذا تكتبين عن الراحة والسلام وكل الأشياء الأخرى يا فافارفا ؟
لست بالمئاتق ، ولا أحتاج إلا إلى القليل ، ولم أكن أبدا أحسن مما
أنا عليه الآن . ولماذا أكون مدققا فى شيخوختى ؟ لبدى من الطعام
ما يكفينى ، ولدى بعض الملابس والأحذية ، لماذا اهتم بالمظاهر وأنا لم
أتحدر من سلالة الأمراء ؟ .. — كلا ، لم يكن أبى من النبلاء ، كان
يعمل أسرة بدخل أقل من دخلى . وما أنا بالمترف ، لكن مع هذا —
إذا كان لابد للحقيقة من أن تقال — فإن مسكنى القديم أفضل من
الحالى بكثير ، كان شعورى بالمسكن أعمق مما هو الآن ، إن غرفتى
الحالية مناسبة طبعاً ، بل أكثر بهجة من بعض النواحي ، بل إذا شئت
الحق فهى خفيفة الظل ؛ ولا أستطيع أن أنتقص من قدرها ، ولكنى
أحن إلى غرفتى القديمة أيضا . فنحن العجائز نتعلق بالأشياء . كانت
الغرفة صغيرة كما تعرفين ، أما — الجدران — حسنا — فكانت طبعاً
كأية جدران أخرى . إن الجدران لاقيمة لها . إنها الذكريات التى تجعلنى
حزيناً . والغريب أنها تحزننى لمجرد أنها ذكريات بهيجة فى ذاتها حتى
الأشياء التى كانت كريهة والتى كنت أضيق بها يوماً ما تبدو الآن

جميلة رائعة .. كنا نعيش هناك في هدوء ، أنا والسيدة العجوز التي ماتت .. إن ذكرها لنثير شجني أيضا ، كانت امرأة طيبة ولم تكن تغالى مطلقا في إيجار غرفها ، وكانت دائما ترقع الأغطية بأبر طويلة جداً ، وكنا نشترك في ضوء شمعة واحدة ، وهكذا كنا نعمل على المنضدة ، نفسها . ولا بد أن حفيدتها « ماشا » قد بلغت الثالثة عشرة الآن مع أنى لأستطيع أن أتذكرها الا كطفلة .. وكما كانت شقية دائما تعبت بشيء ما وكما كانت تضحكننا .

وهكذا عاش ثلاثتنا : خلال ليالى الشتاء الطويلة ، كنا نتناول الشاي حول المائدة المستديرة على حين تروى العجوز من القصص ما يسلى الطفلة ويصرفها عن عيشها . ويالها من قصص لم تكن للطفل لحسب بل الكبير والعجوز أيضاً قد ينسيان نفسيهما حين يستمعان إليها ، حتى أنا كنت أجلس أذكر غليونى وأستمع إليها ، حتى لأنسى كل شيء عن عملى .

والطفلة — هذه القطعة الصغيرة من العيش — كانت تسند وجهها الوردى الجميل إلى يديها الدقيقتين ، وقد فغرت فاهما الجميل ، أما إذا كانت القصة خفيفة فإنها كانت تلتصق بجذتها ! وكما كان يسعدنا أن نتأملها عندئذ . وهناك .. كنا نجلس فننسى كل شيء : ارتعاش الشمعة ، والريح تعصف في الفناء .. وصوت الجليد يتساقط .

كانت الحياة جميلة حقاً يا عزيزتى : عشرون عاما عشناها معاً على هذا المنوال ... ولكن قد أطلت . ولعل الموضوع لا يشوقك أبداً . وأنا أيضاً لا أجد الأمر ممتعاً حينما أفكر فيه ، وخاصة الآن .

الظلام ينتشر . وتيريزا تثرثر فى بعض الموضوعات ورأسى يشغله الصداق ، وظهرى يؤلمنى قليلاً ، وأفكارى غريبة هائمة ، حتى لكأنما هى أيضاً تتألم . لأننى حزين اليوم يا فتاتى .

ولكن ماهذا الذى كتبت يا عزيزتى . كيف أذهب لزيارتك ؟ وماذا سيقتول الناس ؟ فإذا ما اخترقت الفناء ثارت الأسئلة . ثم الأحاديث . ثم الإشاعات . وسيقولون كل ما يمكن من أخطاء !

كلا ، يا ملاكى ، الصغير ، من الأفضل أن أراك غداً فى صلاة العشاء .. هذا أفضل .. وأقل مجلبة للضرر

أرجو أن تغفرى لى كتابة مثل هذا الخطاب ، فبعد أن قرأته مرة أخرى رأيت أنه يتألف كله من تفاهات غريبة . لأننى رجل عجوز يا عزيزتى ، عجوز جاهل ، وحينما كنت صغيراً كان حظى من التعليم ضئيلاً ، والآن حتى لو حاولت أن اتعلم من جديد لم يعلق بذهنى شئ . وأصارعك بالقول يا عزيزتى أننى لست ماهراً فى وصف الأشياء . وأنا أعلم أننى حينما أحاول أن أعبر عن الأشياء بطريقة أكثر جمالا لا أفصح

إلا في كتابة مجموعة من اللغز . أعلم هذا جيدا دون حاجة إلى أن يخبرني
أحد أو يسخر منى مخلوق . لقد رأيتك اليوم وأنت تغلقين نافذتك .

وداعا ، وداعا ، وليحفظك الله يا فارفارا اليكسفتنا..

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين

ملاحظة : لا أستطيع يا عزيزى أن أكتب ساخرا عن أى مخلوق .
فأنا كهل عجوز لا يلقى بي أن أعبت وأسخر يا فارفارا . وسيضحك
الناس منى إذ يتذكرون المثل الروسى القديم . . . من حفر لأخيه
حفرة وقع فيها .



٩ من أبريل :

عزيزى ماكاراليكسيفتش

ألا تخجل من استسلامك لمثل هذه الأهواء والنوبات يا صديقي
وصاحب الفضل على ؟ . أمكن أن أكون قد آلمتك حقاً ؟ أعلم أن
تفكيرى يعطش فى أغلب الأحيان ولكنى لم اتخيل أبدا أنك قد تفهم
كلماتى على أنها سخرية منك . وأؤكد لك أننى لا أستطيع أن أجعل من
سبك أو من شخصيتك موضع سخرية لأنها مجرد جهالة منى ، أضف إلى هذا
أننى أحس اليوم بسآمة بالغة وأنت تعلم مدى ما تفعله السآمة بالمرء .
وأصرح لك بالحقيقة ، تلك هى أننى ظننت أنك كنت تتفكك فى خطابك
وقد انقبض قلبى عندما رأيتك حزينا . وأنت تظلمنى يا صديقي إذا
ظننت فى تلبذ الإحساس أو وجود المعروف .

إننى أقدر لك جيدا ما فعلته من أجل حينما قمت بحمايتى من أعدائى
ومن كراهمتهم واضطهادهم لى . سأصل من أجلك دائما ، فإذا استجاب

الله لدعواتي، فستعيش سعيدا !!.

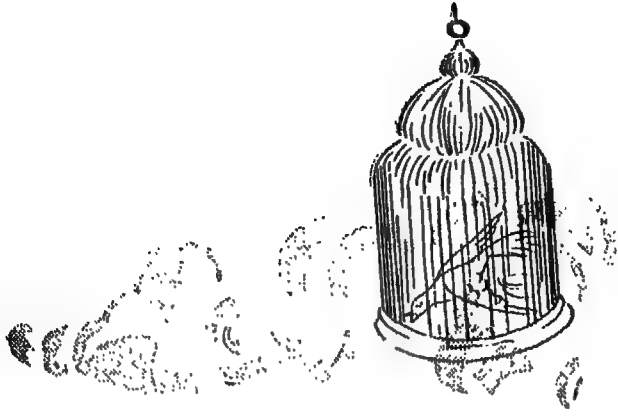
إنني مريضة اليوم ، وتفتأني نوبات من الارتعاش وارتفاع الحرارة
بما يقلق فيدورا .

وينبغي ألا تتجمل من أن تأتي لزيارتي يا ماكار ، ولا تحسب للناس
حسابا ؛ فليهتموا بشئونهم .

وداعا يا ماكار ، لقد قلت لكل ما يجب أن يقال ، ولا أستطيع أن
أزيد . مرة أخرى لا تغضب مني وثق من احترامي الدائم وحبي .

خادمتك المطيعة

فارفارا



١٢ من أبريل .

عزيزتى فارفارا ...

ماذا ألم بك يا عزيزتى ؟ أى خطأ حدث ؟ . إنك لتفزعينى دائماً ، وفى كل خطاب أتوسل وأضرع إليك أن تحرصى على صحتك ، وأن تعنى بتدفئة نفسك جيداً وأن تمكثى بالمنزل إذا ما اربد « الطقس » وأن تتحاطى لكل شيء . ولكنك تعصينى « يا ملاكى » الحبيب كأى طفل صغير . لأننى أعلم أنك رقيقة كعود من العشب ، وأقل برد يلزمك الفراش . هلا التزمت الحرص أينها العزيرة واعتنيت بنفسك حتى تهجنى كل شيء خطير وتوفرى عن أصدقاتك مئونة الأسى والقلق .

تريدى أن تعرفى كل شيء عن حياتى اليومية وعن جيرانى ؟ - بكل سرور يا حبيبتى ولكن دعينى أبدأ من البداية : فدرج المنزل الأمامى

أنيق حقاً ، وخاصة الدرج الرئيسي : إنه لامع وزنليف ورحب ،
« والدرازين » من خشب الماهوجانى المتلى بالمعدن . أما الدرج الخلفى
فكلها قل ما يقال عنها كان ذلك أفضل . إنها لتلتوى كالحية ، رطبة عفنة
والدرجات محطمة ، والحوائط قدرة لزجة حتى لتلتصق أصابعك بها
إذا ما لمستها ، وأمام كل « شقة » أكوام عالية من الصناديق والكراسى
القديمة وأحبال للغسيل . ومعظم النوافذ مكسورة ، وفي كل مكان صفائح
ملوثة بالقاذورات والشحم وقشر البيض وأشواك السمك . والرائحة
عفنة كريهة لا تطاق .

أما عن الغرف فقد أخبرتك كيف نظمت - مريحة حقاً ولكنها
ذات رائحة أيضاً . لست أعنى القول بأنها كريهة الرائحة فعلاً ، ولكن
رائحتها ليست بما يستساغ ، وهى مزيجية فى البداية ، ولكن لا يلبث
المرء أن يألفها فى دقائق معدودات ؛ ذلك أن كل شيء هنا له رائحته
الخاصة حتى الملابس والأيدى . غير أن عصفير الكانارى سرعان
ما تموت هنا . وقد اشترى الضابط البحرى الذى يعيش هنا عصفوره
الخامس اليوم فحسب ، ولكن الكانارى لا تستطيع تحمل الهواء هنا .
والجوكريه فى الصباح عندما يطبخ السمك واللحم ، ويمتلئ المطبخ
بالقاذورات ، ولكنه جميل فى المساء : إذ يصبح المطبخ لامعاً رطباً مليئاً
بالغسيل القديم الذى علق ليجف . وقد تثير الرائحة شيئاً من الضيق ،
لأن حجرى مجاورة للمطبخ . . ولكن لا يروعك هذا كله ، إذ يستطيع
المرء أن يألفه إذا ما عاش هنا مدة كافية .

والمنزل يـمـوج بالحركة منذ الصباح الباكر الكل يستيقظون ويـتـجـولون في الدار سواء من كان لديه عمل أو من لم يكن لديه ، ونحن نتناول الشاي معاً جميعاً ، ومعظم مواقد الشاي « ساموفار » تمتلئها ربة الدار ولا يوجد ما يـكـفـي منها . فعلى كل أن ينتظر دوره ، وإذا ما حاول شخص منا أن يتعدى دوره انقضت عليه المجموعة كلها نائرة . وقد حدث لى هذا في المرة الأولى وإن كان هذا لا يستحق الذكر ، وفي هذه المناسبة تعرفت على الجميع ، وكان أولهم الضابط البحرى . وهو روح ودود فقد أخبرنى بكل شئ عن أبيه وأمه وأخته [وهى متزوجة ضابطاً فى تولا] وأخبرنى كذلك عن مدينة كرونستاد ، وقد عرض على حمايته ثم دعانى إلى الشاي من وقت لآخر . ووجدته فى غرفة لا ينتهى فيها لعب الورق أبداً . وبعد أن تناولنا الشاي ألحوا على فى الانضمام إليهم ، ولست أدرى أكانوا جادين فى هذا أم عابثين ، كانوا يلعبون طيلة ليلهم واستمروا يلعبون عند ما دخلت عليهم . وقد وجدت الأوراق توزع والطباشير يكتب ورائحة الطبايق تملأ جوف الغرفة . وعند ما رفضت المقامرة طلبوا منى أن أكف عن الفلسفة ، ثم لم يجاذبنى الحديث شخص قط — والحق أننى لم أكرث لهذا ، ولن أذهب إليهم بعد ذلك أبداً ، ففهم الا مقامرون . . ألحق أنهم كذلك . مقامرون . أما « الأديب » فهو ينظم الحفلات فى غرفته أيضاً ، ولكننا حفلات بريئة محترمة شائقة وعلى مستوى رفيع .

وأضيف إلى هذا يافارنكا أن ربة الدار امرأة عجوز شريرة ، ولقد رأيت أنت تريزا وتعلين كم هى نخيلة حتى لكانها دجاجة عجفاء . وهنا خادمان فحسب : تريزا وفالدوني ، ولربما كان لفالدوني اسم آخر ، ولكنه يجيب من يناديه بفالدوني ، وهكذا يناديه الكل بفالدوني ، وهو أحر الشعر بطيء الفهم معقوف الأنف وفى شجار دائم مع تريزا حتى ليكادا أن يتبادلا اللكمات أحيانا .

وبوجه عام فالحق أقول إن الحياة هنا ليست ممتعة أبداً . وهم لا ينامون جميعا فى وقت واحد ، فبعضهم يلعب الورق دائما ؛ بل يتحدث أحيانا أشياء أخجل من ذكرها . لقد ألفتها ولكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التعجب : كيف تستطيع عائلة أن تعيش وسط هذه الفضائح ؟ فهنا عائلة فقيرة تسكن الغرفة التى تقع على الجانب الآخر من القاعة ، حجرة فى ركن منزو حتى توشك أن تكون منفصلة عن غيرها ، وأفرادها قوم هادئون يكاد لا يلاحظهم أحد ، يعيشون فى صمت عجيب . والأب — واسمه جورشكوف كاتب عاطل فصل لسبب ما من وظيفته منذ سنوات سبع . وهو رجل صئيل أشيب الشعر ، رث الثياب حتى ليتألم المرء من مجرد النظر إليه . ومعطفه أسوأ حتى من معطفي .

ونحن نتقابل فى الدهليز أحيانا ونحتاج ركبته حين يمشى وترتعش يده ورأسه أيضا من مرض يعانيه أو لسبب آخر لا يعلمه إلا الله . وهو ينطوى على نفسه خجلا من الجميع غارقا فى عزله . ولعلنى أبدو

خجلا أنا أيضا ولكنه أكثر خجلا منى . وله زوج وأطفال ثلاثة أكبرهم ضئيل نحيل مثل أبيه ، أما الزوج فلا بد أنها كانت جميلة ذات يوم ، فإن المرء ليستطيع أن يرى آثار جمالها حتى اليوم . ولكن المسكينه لا تردى إلا الحزن أيضا ، واقد بلغنى أنهم متأخرون عن دفع الإيجار ، ومهما يكن من أمر فصاحبة الدار لا تعطف عليهم أبدا .

وبلغنى أيضا أن جورشكوف قد فقد وظيفته بسبب شيء ما يتعلق بتحقيق أو قضية لأدرى بالضبط ، ولكنهم فقراء . يا إلهى ، كم هم فقراء !! إن صوتا واحدا لا يصدر عن غرفتهم أبداً وكأنما لا يعيش فيها أحد . حتى الأطفال لا يصدر عنهم صوت ! ولم أرهم قط يعشون أو يلعبون وهذا نذير سوء ..

وذات مساء . . والمنزل ساكن على غير العادة ، تصادف أن مررت ببابهم فسمعت شهقة بكاء ثم همسات ثم شهقات أخرى وكان يبدو أن شخصا ما يبكي بحرقه ومزارة حتى لقد حطم بكأؤه قلبى . وظللت أفكر فيهم طوال الليل حتى جفائى النوم .

أخيرا ، وداعا يا فارنكا يا فتاتى الصغيرة التى لا تقدر بشئ . لقد وصفت كل شيء على قدر ما استطعت . لقد ظللت أفكر فيك وفيك وحدك طيلة يومى والقلق يملأنى عليك يا حبيبتى ، لأننى أعرف أنك بحاجة إلى معطف يدفئك فى الربيع فى بطرسبرج برياحه وأمطاره

وثلوجه — إننى أخشاهما يا فارنكا ، ولينقذنا الله من هذا الفصل المتقلب .
ولانغضبك يا عزيزتى الطريقة التى أكتب بها . فلست أتمتع بأسلوب —
لست أتمتع بأسلوب على الإطلاق ، وليتنى كنت ذا أسلوب ، إننى
أكتب ما يرد إلى خاطرى ورجائى أن أبهجك قليلا . ولو كنت قد نلت
قسما وافيا من التعليم لاختلف الأمر ، ولكن أى نوع من التعليم نلناه ؟
ما يساوى كوبك لا أكثر !

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين



٢٥ من أبريل

عزيزى ماكا . .

قابلت اليوم بنت عمى

د ساشا ، كان منظرها مروعا ؛ لأنها فى طريقها إلى القناء .

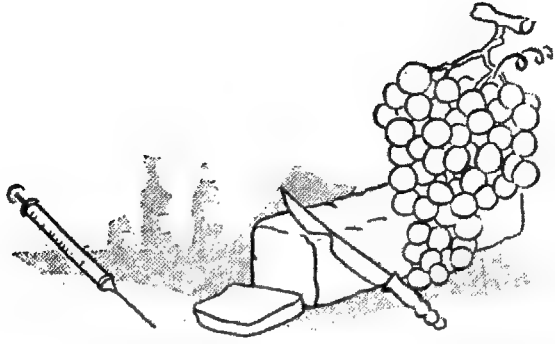
وقد بلغتني شائعات أيضاً أن أنا فيدور فنا تقوم بتحرياتها عنى . ألا
تتركني هذه المرأة فى حالى أبداً . . ؟ إنها تريد أن تصفح عنى . وأن
تغض الطرف عما سلف وفى نيتها أن تزورنى قريباً . وهى تزعم أنك لست
قريباً لى وأنها أقرب لى ، وأنه ليس لك الحق أن تتدخل فى شئون
عائلتنا ، وأنه يجب أن يتنابنى الحزى لأننى أعيش على عطفك وإحسانك .
وهى تزعم أننى قد نسيت كرم ضيافتها ، ونسيت أنها هى التى انقذت
أبى وأناذتنى من الهلاك جوعاً ، وظللت سنتين ونصف السنة تنفق
على رعايتنا وإطعامنا . وأنها على الرغم من هذا كله تريد أن تتنازل

عن ديوننا . . ولم ترحم حتى والدتي المسكينة . . آه لو تستطيع أى أن تعرف ما فعلوه بي . ولكن الله يرى كل شيء . وأنا فيدورفنا تزعم أنني الملوثة وحدي إذ أضعت سعادتي التي أرشدتني هي إلى الطريق إليها . وليس عليها هي من خطأ مادمت لا أستطيع أو ربما لا أريد أن أنقذ سمعتي إذن بربك خطأ من هذا ؟ ثم هي تقول : إن مستري يكون على حق . وإنه ما من رجل ينتظر منه أن يتزوج امرأة ولكن ما فائدة كتابة هذا كله . من العسير يا ماكار أن يتحمل المرء افتراءات مثل هذه إنني لا أكاد أعلم ما يحدث لي . إنني أجلس هنا . أرتعش ، وانهد . . . وأبكي . أتعرف أن كتابة هذا الخطاب قد استغرقت من وقتي ساعتين . لقد كنت واثقة أنها يوماً ما ستدرك على الأقل وتعرف بمدى الإساءة التي ألحقها بي . ولكن هذا أنت !

لا تقلقك صحتي يا صديق الوحيد ففقدت دائماً ، فليست مريضة إنه مجرد برد خفيف ألم بي أمس عندما ذهبت إلى القديس في فولكونو . لماذا لم تأت معي ؟ . . لقد رجوتك أن تفعل .

آه . . يا أمي العزيزة المسكينة . . لو استطعت أن تنهض من قبرك ، . . لو استطعت أن تعرفي وأن ترى ماذا فعلوا بي ؟ .

ف . و



٢٠ مايو

فارفكا — يا عماىتى ...

أرسل إليك شيئاً من العنب يا حياىى ، فالعنب مفيد للناقمين ،
والأطباء يوصون به لاطفاء الظمأ ، ولهذا السبب أرسلته ، لمجرد إرواء
العطش . وإليك أيضاً شيئاً من الخبز الأبيض الذى طلبتيه منى بالأمس
المهم كيف حال ميلك للأكل يا عزيزتى . . هذا ما يعنينى قبل كل شىء
وشكر الله ، إن كل شىء قد انتهى وإن متاعبنا تقترب من نهايتها .
لنشكر الله على هذا . أما عن الكتب فلم أستطع أن أحصل عليها بعد .
إنهم يتحدثون عن كتاب قيم أبدع المؤلف فى كتابته ، إننى لم أقرأه
ولكننى سمعت الجميع يمتدحونه ، ووعدوا أن يعيرونى إياه أيضاً ،
ولكن هل ستمقرئينه ؟ فأنت من هذا النوع الذى يصعب إرضاءه ومن
العسير إشباع ذوقك . إننى أعلم هذا جيداً يا عزيزتى ، ومن المؤكد أنك
ترغبين فى قراءة شىء شاعرى ، شىء مليء بالتهنيدات والحب . ولكننى مع

هذا سأتى بك بهذا الكتاب وعندهم أيضاً كراسة فيها شعر منسوخ .

أما أنا فبخير . وأرجوك ألا تقلقى أبداً يا حبيبتي ، ولا تلقى بالالما
تحدثك به فيدورا . وقول لها : إنها ثرثرة عجوز . أخبريها بهذا الخسب .
لأنني لم أبع كسوة عملي الجديدة ؛ فلماذا أبيعها ؟ وماذا يدفعني إلى
بيعها ؟ وقد ترامي إلى سمعي أنني سأمنح بضعة روبلات كأجر إضافي ،
إذن فلا تحملي هما يا عزيزتي وأنت تعرفين أن فيدورا ثرثرة . ثرثرة
وعصية . إن أياها سعيدة سوف تقبل علينا . . . ولكن يجب أن تهتمى
أولا بصحتك أستحلفك بالله أن تهتمى بها ولا تخيبي أمل رجل عجوز .

ويا ترى من أخبرك أنني قد أصبحت هزلاً نحيلًا ؟ إنها ثرثرة
لا أكثر . . مجرد افتراء . لأنني على خير ما يكون . بل لقد أصابني سمعة
حتى لأخجل من نفسي . وباختصار : إنني أعيش في بحروحة .

وداعاً يا ملاكي ، المحبوب ، وإنني لألثم أصابعك الصغيرة لإصبعها
إصبعها وسأظل دائماً

صديقك المخلص

ماكارد . .

ملاحظة :

ولكن ما هذا الذي تسكتين يا حبيبتي ؟ . كوني عاقلة كيف
أستطيع ان آتي لزيارتك كثيراً : كيف أستطيع أن أفعل شيئاً كهذا ،

لا تتوقعى منى ذلك ، اللهم إلا تحت جناح الظلام .. وأى ظلام يبقى من
الليالى فى هذا الفصل . وعندما كنت مريضة تهذين لم أكد أفارق فراش
مرضك . أما كيف استطعت أن أفعل هذا فذلك ما لا أستطيع فهمه .
ولكن كان على أن أترك خشية السنة السوء . وحتى مع هذا فقد أخذت
الأسنة تتحدث . إننى أثق كلية فى تريزا . فهى ليست من النوع الثرثار .
ولكن تخيلي ماذا سيحدث لو عرفوا أكثر من هذا عنا ، وأى أفسكار
شريرة وأى أحاديث ستقولوها . ألا صبرت يا عزيزتى وانتظرت .
— حتى تتحسن صحتك — وعندئذ سيكون لنا موعد للقاء ..



الأول من يونيو .

عزيزى المحترم ما كار

طالما تمنيت من أعماق أن أفعل شيئاً تحبه، أن أريضك بطريقة أرد بها ما أظهرته من إخلاصى فأخذت أفتش فى صندوق أدراجى حتى وجدت هذه المذكرات التى أرسلها إليك . لقد بدأتها فى أيام غامرة بالسعادة ، ثم أكملتها فى فترات متباعدة . ولطالما سألتنى أنت عما سلف من أيامى : عن أمى ، عن بوكروفسكى ، عن حياق مع آنا فيدورفنا ، ثم عن المتاعب التى عانيت فيها أخيراً ، وكنت متلهفاً على قراءة هذه المذكرات التى سجلت فيها — ولست أدرى لماذا — مناظر متعددة من الماضى كلما سنع لى الوقت . وأنا واثقة أن قراءتها ستبعث السرور إلى نفسك ، أما بالنسبة لى فإن الحزن يعتربنى كلما قرأتها ، وأبدو أمام نفسى وكأننى ضعف عمرى عند ما كتبت السطور الأخيرة من هذه

المذكرات وداعا ياما كار . لأننى منهكة وجيدة أقاسى من الأرق ،
فيالها من فترة نقاهة متعبة !

ف . د

كنت فى الرابعة عشرة من عمرى عندما مات أبى . وكانت طفولتى
أسعد أيام حياتى ؛ إذ كان والدى ناظراً للضياع الواسعة التى يملِكها
الأمير « ب » ، فى جبرينا . وهناك فى إحدى قرى الأمير البعيدة . . .
عشنا عيشة سعيدة هادئة لا يلاحظنا فيها أحد . وكنت طفلة دافقة الحيوية
أجرى دائماً هنا وهناك . فى الحدائق والمراعى والغابات .

أما والدى فكان فى شغل دائم بشئون الضيعة على حين كانت أمى
مشغولة بشئون المنزل ، لذا فقد كنت حرة أفعل ما أشاء ، ولم يكن
هناك من يعنى بتعليمى ، وكان هذا يسعدنى . فإذا ما أقبل الصباح
الباكر هرعت إلى غدير أو أجمة من شجر أو راقبت قاطع التبن
أو جامعى الحصاد ، غير مكترثة لو هج الشمس أو عابئة بابتعادى كثيراً
عن المنزل ، أو عما إذا كانت الشجيرات قد خدشت يدى ووجهى
ومزقت ردائى . وما كان يهمنى قط لو عنفونى على هذا فى المنزل
بعد ذلك .

ولو أنني قضيت بقية حياتي في هذه القرية لكنت أسعد الناس ،
ولكن القدر أراد غير هذا ، إذ كنت لأزال طفلة في الثانية عشرة من
عمرى عندما انتقلنا إلى سانت بطرسبرج . . . وكم يؤلمنى أن أتذكر
كيف بدأنا نستعد للرحلة ، وكيف بكيت عندما ودعت كل شيء عزيز
على ، ثم كيف تعلقت برقبة أبي أتضرع إليه أن يبقى قليلا ، فتضايق أبي
منى ونهرنى على حين بكيت أُمِّي قائلة : إنه لا مفر من الرحيل ، فهذا
ما تتطلبه أعمال أبي .

وكان الأمير «ب» العجوز قد مات واستغنى ورثته عن خدمات أبي
الذى كان قد استثمر قليلا من المال مع بعض من يثق فيهم في بطرسبرج
وقد رأى له الآن إن وجوده في العاصمة قد يصلح من أحوالنا . وقد
أخبرتني أمي بهذا كله فيما بعد . ولما وصلنا إلى العاصمة نزلنا في بطرسبرج
ستورونا واستمر بنا المقام هناك حتى وفاة والدى .

وكم كان عسيرا على أن اعتاد على هذه الحياة الجديدة . لقد وصلنا
إلى المدينة في الخريف ، ويوم تركنا القرية كانت الشمس مشرقة والدفء
يبدت المرح والحياة ، والعمل في الحقول قد انتهى أو كاد . والأرض قد
هيئت وبذر فيها الحب ، والطير ترفرف جائعة فوق الرءوس . كان كل
شيء مشرقا مليئا بالحياة ، ولكن يوم وصلنا إلى المدينة لم نجد سوى
المطر والبرد القارس ، وأحوال الخريف تظللها سماء قاتمة ، وفي الشوارع

جماهير من الغرباء فيهم انطواء وعداء وكآبة وانتهى الأمر بأن استقر بنا المقام بعد كثير من الجهد وكثير من هذه المضايقات التي تصحب عادة تنظيم المنزل . وكنا لانكاد نرى أبي أبداً على حين كانت أمي مشغولة دائماً وهكذا أهملني الجميع . وباله صباح حزين كان صباحي الأول بعد وصولنا كانت نوافذنا تطل على سور أصغر ، ثم شارع لا تجف فيه الأوحال أبداً ، والمارة قليون كلهم يختبئون في معاطفهم خشية الريح .

وكان منزلنا أيضاً كنيحاً مقبضاً طيلة اليوم ، إذا لم يكن لدينا صديق أو قريب تقريباً ، وكان بين أبي وبين آنا فيدور فئنا جفوة [إذ كان مدينا لها ببعض المال] ، ولم يكن يزورنا عادة سوى من يتصل بهم بصلة العمل ، وكانوا يتشاجرون عادة فيتناقشون ويصرخون ، وبعد انصراف مثل هؤلاء الزوار كان أبي دائماً منقبض القلب ، نائر الأعصاب ، وقد يظل يذرع الغرفة لساعات لا تنتهي ، فلا تجرؤ أمي على خطابه حينئذ ، أما أنا فأنتحي ركناً أجلس فيه وكتابي في يدي ، في هدوء .

وما انقضت على وصولنا إلى بطرسبورج أشهر ثلاثة حتى أرسلوني إلى مدرسة داخلية ، فياله من وقت حزين قضيته بين الغرباء ، كانوا كلهم نفورين : المدرسون يصيحون دائماً ، والفتيات يهزأن بي على حين كان السأم يتمسكني . كل شيء كان يمضي صارماً وفق مواعيد دقيقة : : هناك ساعات محدودة لكل شيء . لتناول الوجبات العامة ، ولاستدكار دروسنا التي كانت تمضي في كآبة تعذبني وتملا قلبي انقباضاً .

وشمت الحياة بادیء الأمر لم استطع يوماً ، بل كنت أستلقي
بناكية طيلة ليلي ، ويألها من ليال كئيبة تمضي وكأنها بلا نهاية .

وحينما كنت أجلس أستذكر دروسي في المساء منكبة مع أفعالي
وجملي . جزعة من أن تصدر عني حركة ، كان خيالي ينطلق بعيداً إلى
المنزل : إلى أبي وأمي ، إلى مرضعتي العجوز وما كانت ترويه لي من
قصص وأساطير . واشتد بي الشقاء حتى لم أطق له احتمالاً وأى متعة
كنت أجدها لمجرد التفكير حتى في أفقه الأشياء في المنزل ، وأن أتمنى
وأتمنى لو أنني كنت هناك ، وأستطيع أن أجلس في غرفتنا الصغيرة ،
وموقد الشاي ينفث بخاره ، والوجوه الحبيبة التي ألفتها حولي ، وكل
شيء مريح دافئ جميل : وكل تمنيت ساعتها أن أحتضن والدتي ، أحتضنها
حتى لأعتصرها . وكنت أبكي خلصة وأنا جالسة أفكر حتى نتلاشي
الدروس من ذهني وأظل طيلة ليلي أحلم بالمدرسين والناظرة والفتيات ،
وأتحيل أنني قد استذكرت دروسي جيداً حتى إذا ما أقبل الصباح كنت
أجهل الجميع ، فيسكون عقابي أن أركع على ركبتني ، ولا أتناول سوى
وجبة واحدة هي وجبة الغذاء . وقد كنت دائماً حزينة . وتعودت
الفتيات بادیء الأمر أن يستخرن مني ، ويفظنتني ويتعمدن لإخراجي عند
طوري أثناء إجابتي على أسئلة المدرسة ، وقد يقرصنني حينما كنا نمشي
أزواجاً إلى الغذاء أو الشاي ثم يشكونني إلى الناظرة عند أقل هفوة
ولكن أي متعة كنت استشعرها حينما تأتي مريرتي إلى في أمسيات السبت

وأى جنون كنت أحتضنها وأقبلها به ؟ كانت تدثرنى جيداً ثم نغضى معا ولكنها كانت لا تكاد تتابع خطاى ونحن فى طريقنا إلى المنزل وأنا أثرثر عن شىء ما متى نصل إلى المنزل أخيراً فأفتحه مرحلة مشقة الأسارر ، وأحتضن الجميع وأقبلهم كما لو كنت قد ابتعدت عنهم سنوات عشر . وأى اضطراب كنت أثيره بعد هذا . وأى أحاديث وأى قصص كنت أرويها . كنت أبادر كل شخص بالتحية ، وأضحك ، وأقفز هنا وهناك . ثم يتبع هذا حديث جدى مع أبى عند الدروس والمدرسين ، واللغة الفرنسية وأجرومية (لومند) على حين تغمر الجميع السعادة والرضا وهم يسعدنى أن أسترجع هذه الذكريات حتى هذه اللحظة .

وقد بذلت جهدى كى أتعلم دروسى جيداً لأرضى والدى . كنت أعرف أنه كان ينفق آخر كوبك معه من أجلى وأنه يدبر أموره بطريقة لا يعلمها إلا الله . ولكنه ازداد حزناً يوماً بعد يوم ، وازدادت ثورته وتبرمه حتى بات من العسير التفاهم معه . وتدهورت أحواله من سىء إلى أسوأ . وأثقلته الديون . وكانت والدتى تخشى مجرد البكاء أو الحديث فى حضرته ، إذ كان يشور بسرعة ، وبدأت تضمحل ، ويصيبها الهزال ، وتملكها سعال مخيف .

وعندما كنت أعود من مدرستى كنت أجد الجميع فى هم وحزن : أبى ثائر ، ووالدتى قد احمرت عيناها اثر بكائها الحفى ، ثم هناك مشاحنات

ثور ، وألفاظ جارحة تقال ، ويشكو أبى أننى لا أمنحه أية سعادة أو عزاء ، وأنه أنفق آخر مامعه على تعليمى ، وأننى لم أتعلم حتى الحديث بالفرنسية ، وباختصار ، كان يحملنى والدتى وزر كل النكبات والمصائب التى نزلت به ... وكيف كان يعذب والدتى ؟ ... كان مجرد النظر إليها يحطم قلبى ، كانت عظام وجنتيها نائمة وعيناها غائرتين وشحوبها عنيفاً . ولكن كان أسوأ ما يحدث من نصيبى . وكان الأمر يبدأ دائماً بشيء تافه ثم ينتهى إلى شيء لا يعلم مداه إلا الله . وغالباً ما كنت أعجز عن تتبع السبب الذى أثار هذه المشاكل جميعاً فى كل أنواع الأخطاء كانت تؤخذ على : فرنسيتى الضعيفة ، وغبائى ، وأن الناظرة امرأة غبية تهمل واجباتها ولا يعنينا أبدأ أخلاقنا ، وأنه هو — أبى — لم يجد وظيفة بعد ، وأن أجرومية « لومند » كتاب تافه أسوأ بكثير من أجرومية زابولسكى ، وأنه قد أنفق الكثير على هباء دون جدوى ، وأننى قاسية متبلدة الإحساس وباختصار ومهما بذلت من جهد اناضل به أفعالى وجملى كنت اللومة على كل شيء .

ولم يكن سبب ذلك أن والدى لا يحبنى ؛ فإنه كان يعز والدتى ويعزنى كل الإعزاز ببساطة ، كان الأمر أن شخصيته هكذا .

وأصبح أبى متقلب المزاج مسترياً فى كل شيء بعد أن حطمت لهوم والنكبات : ولما كان على حافة اليأس دائماً فقد أهمل صحته ، ثم أصابه برد قسى عليه بعد مرض قصير ، حتى إن الصدمة أذهلتنا عدة

أيام ، ولم نستطع أن نصدق أنه مات . وأصاب أى ذهول خشيت منه على عقلها .

وما كاد أبى يتوفى حتى أنقض علينا دائنوه من كل جانب . واضطرونا إلى التخلي عن كل شىء كنا نملكه ، وكذلك اضطرونا إلى بيع المنزل الصغير الذى اشتراه أبى فى بطرسبرج ستوروا بعد ستة أشهر من وصولنا .

أما كيف استقرت الأمور آخر الأمر فهذا ما لا أدريه ، ولكننا أصبحنا بلا مأوى ولا موارد للعيشة وكانت والدتى تكاد تحتضر من مرض مؤلم ألم بها ولم يكن لدينا طعام ، ولم يكن عندنا ما نعيش عليه ، ولم يكن هناك رجاء ...

كنت فى الرابعة عشرة من عمرى آنذاك . وحدث عندئذ أن جاءت آنافيدورفنا لزيارتنا لأول مرة ، وظلت تلح فى زعمها أنها من ملاك الأرض وأنها تناسب إلينا بصلة القربى . وقالت والدتى أيضا إنها تناسب إلينا بصلة القربى ولكنهما قرابة بعيدة جدا ، فهى لم تزرنا قط عندما كان والدى على قيد الحياة ، والآن جاءت إلينا والدموع تملأ مآقيها ، وعبرت عن عميق ألمها لخسارتنا وظروفنا المريعة ، ولكنهما أضافت أن المألوم فى هذا كله هو والدى ، فقد كان يعيش عيشة تتجاوز طاقته ، وأنه تعدى حدوده ، وأنه اغتر بنفسه أكثر مما يجب .

وزعمت أنها تريد أن تكون على علاقة طيبة معنا، واقترحت أن ندفن الماضي، وبكت عندما أكدت لها والدتي أنها لم تكن لها قط أية عداوة، ثم مضت بالدتي إلى الكنيسة وأمرت بقداس يقام على روح الراحل العزيز [أبي] وهكذا اتصل جبل الود بيننا.

وبعد مقدمات كثيرة أكد فيها ظروفنا المريعة، ووجدتنا الآلية، وعجزنا، مع الافتقار إلى بصيص من الأمل، دعتنا إلى مشاركتها في منزلها المتواضع كما قالت. وشكرتها والدتي وإن ترددت مع هذا فترة طويلة في اتخاذ قرار، ولكن لما لم يكن هناك أمل، ولا شيء آخر نستطيع عمله، أخبرت والدتي أننا فيدورفنا أخيراً أننا نقبل عرضها شاكرين.

إنني أتذكر جيداً ذلك الصباح عندما انتقلنا من بطرسبرج ستورونا إلى فاسيليفسكي. كان صباحاً من أيام الخريف ساطع الشمس عليل الهواء. وكانت والدتي تبكي، وكنت أنا أيضاً حزينة، وكان قلبي ثقيلًا بخوف غامض من المجهول.

تلك كانت أياماً عصيبة...

.. ظلت الحياة مع أنا فيدورفنا غريبة مخيفة حتى ألقنا المنزل الذي تمسكه في «سكس لاين»، وكان المنزل مكوناً من خمس غرف : ثلاث

منها تشغلها أنا فيدورفنا وابنة عمى ساشا ، وهى فتاة يتيمة تكفلت بها
آنا ، أما الرابعة فقد نزلنا بها نحن ، على حين استأجر الخامسة طالب
فقير اسمه بوركروفسكى ، وكانت أنا فيدورفنا أكثر غنى مما طاف
بجملتنا بادية الأمر ، ولكن كان مورد دخلها غامضا مثل أفعالها ،
فهى لا تهتدأ أبدا ، وهى دائما مشغولة ومنهمكة فى شىء ما ، وهى
تترك المنزل عدة مرات فى يوم واحد ، أما ماذا كان يشغلها بالضبط
فقد كان أبعد مما أستطيع أن أخمن .

وكان معارفها العديدون يأتون ويذهبون طيلة النهار . أما من
كانوا ؟ فهذا ما لا يعلمه إلا الله ، كانوا دائما يأتون لعمل ما ،
ولا يمشون إلا دقيقة أو أكثر ، وكانت والدتى دائما تنادىنى إلى
غرفتنا حينما يلقى جرس الباب ، وكان هذا يشير غضب أنا فيدورفنا
دائما ، إذ كانت تثور ثائرتها على أمى وتقول : إننا متكبرون جدا ،
وأننا أكثر تكبرا مما يجب . وأى عمل لدينا حتى نكون متكبرين ؟
وتستمر على هذا المنوال لساعات لا تنتهى .

ولم أستطع أنا أن أفهم مغزى تعنيفها لنا حينذاك . ولقد أدرك
الآن لحسب لماذا كانت أمى تأبى الانتقال إلى منزل أنا فيدورفنا ، كانت
امرأة عصبية المزاج دأبت على تعذيبنا . أما لماذا دعيتا للإقامة عندها
فهذا ما لا يزال مستغلقا على حتى الآن . والحق أنها أظهرت عطفاً ، بادية

الامر ولم تظهر طبيعتها الحقيقية إلا بعد ذلك ، بوقت طويل عندما وثقت من عجزنا التام ، وأنه ليس أمامنا فعلا أى مكان نذهب اليه . ثم عادت فأظهرت عطفها على مرة أخرى إلى حد الآفة والمجاملة ، ولكن كان على بادى الامر أن أقاسى أكثر مما قاست والدق ، إذ دأبت على أن تذكرنا مرة بعد أخرى بنعمها علينا . بل لقد يبدو أنها كانت لا تتحدث فى شيء آخر إلا هذا . .

وكانت تقدمنا إلى الغرباء على أننا أفارب فقراء تشكل أوتهم بدافع من الروح المسيحية فحسب . ولما اجلسنا إلى الطعام جعلت تخصي* اللقيات التى نأكلها فى حسد فإذا لم يطاوعنا ميلنا وأكلنا أقل مما يجب ثارت ثائرتها أيضا : فنجح مترفعون ، ومائدتها ليست جديرة بمقامنا ، وهل عرفنا نحن شيئا أفضل منها . ؟ وهكذا .

ولم تكف أبدا عن تحقير أبى زاعمة أنه حاول أن يكون أحسن من الآخرين ولكنه وصل إلى نهاية لا ترضى ، فنزل بعائلته إلى مستوى الاستجداء ، وأنه لولا قربة خيرة ذات روح مسيحية عطوف ، فإن هؤلاء — وهم يعرفون أنفسهم — ربما هلكوا جوعاً فى الشوارع . وأى شيء لم تتحدث به . . ؟ مجرد الاستماع اليها كان يثير أكثر مما كان يؤلم .

وغالبا ما كانت والدق تنهار فتبكي ، وظلت صحتها تتدهور يوما

بعد يوم ، وكان واضحا أنها في طريقها إلى النهاية . ولكننا دأبنا على العمل الشاق من الصباح حتى الليل ، نحوك الملابس في غالب الأمر ، وكان هذا أيضا يغضب آنا فيدورفنا التي ظلت تقول إن منزلها ليس محلا لعرض الأزياء .

ولكن مع هذا كان علينا أن نعمل كي نشترى ملابسنا وكي نواجه النفقات التي قد يقتضيها المستقبل .

وكان من الضروري أن نمتلك بعض النقود الخاصة بنا ، هذا إلى أننا كنا نحاول الادخار على أمل أن ننتقل إلى مكان آخر ، ولكن العمل استنفد ما بقي من صحة والدتي ، واشتد هزالها يوما بعد يوم . كان المرض يمتص حياتها . ولقد شعرت أنا بهذا كله ورأيت على حين تمضي الأسابيع متشابهة . وكنا نعيش عيشة هادئة كما لو كنا في الريف ، حتى أن آنا فيدورفنا هدأت ثأرتها أيضا عندما أدركت أننا نخضع لسيطرتها وإن لم يكن أحد يعلم بمعارضتها على أية حال . وكان يفصلنا عن غرفها دهلين على حين كان يقطن الغرفة المجاورة بوكروفسكي كما سبق أن قلت وكان يأكل ويقطن بالمجان مقابل أن يقوم بتعليم ساشا الفرنسية والألمانية والتاريخ والجغرافيا — وسائر العلوم — كما كانت آنا فيدورفنا تقول :

أما ساشا وكانت في الثالثة عشرة من عمرها حينئذ — فكانت فتاة

فتاة حاضرة البديهة وإن تكن لها خشونة الفتیان . وعندما اقترحت
آنا فيديروفنا مرة أنه لا ضرر هناك في أن أتلقى أنا أيضاً بعض الدروس
مادمت لم أكل تعليمي المدرسي وافقت والدتي في سرور ، وهكذا
زاملت ساشا ، وظل بوكروفسكي يعلمنا معاً مدة عام كامل .

وكان مدرستنا شاباً فقيراً — فقيراً جداً . منعه صحته من المواظبة
على الدراسة المنتظمة ، ولم يكن يوصف بالطالب إلا بحكم العادة لحسب .
وكان يعيش في هدوء حتى لا تكاد تسمع له ركزا ، في غرفته . وكان
غريب المنظر أيضاً : يمشي في ارتباك وينحني في ارتباك ، وكان يتكلم
بطريقة جدد غريبة حتى إنني لم استطع أن أمنع نفسي عن الضحك
بأدنى الأمر .

وكانت ساشا تشير بالاعيةها دائماً وخاصة في أثناء الدرس . ومن
سوء الحظ أنه كان سريع الغضب تشير غضبه أية تفاهة ، فيصرخ ويجار
بالشكوى وغالباً ما يندفع خارج الغرفة دون أن ينتهي الدرس . وبعدها
ينعزل وحيداً لأيام عدة عاكفاً على كتبه . وكان هناك الكثير منها ،
وكلها نادرة غالية .

وكان يتكسب بعض المال من وقت لآخر إذا كان يعطى بعض
الدروس الخاصة في أماكن أخرى أيضاً ، وما يكاد يقبض أجره . حتى
كان يهرع ليشتري كتباً أخرى . ولما أتيت لي أن أعرفه على حقيقة
(م - ٤ مسا كن)

اكتشفت أنه رجل طيب عطوف وأنه أفضل من التقيت بهم من الرجال .

وكانت أمي تحترمه كثيراً ، وقد أصبح فيما بعد أصدق أصدقائي وبالرغم من كبر سني كنت أشارك أنا أيضاً وساشا في تدبير بعض المعاكسات وكنا نفكر ساعات عدة في طرق جديدة نغيظه ونشيره بها .

وكان مضحكا جدا إذا ما غضب ، وكان هذا يسرى عن أنفسنا [انني أخجل اذ أذكر هذا الآن] وذات مرة عندما أثراه حتى كاد يبكي سمعته يتم [يا لكما من طفلتين قاسيتين !] ثم تغيرت حاله فجأة وهدأت ثأرته . وشعرت يومها بالحجل والاسى من أجله ورجوته وأنا خجلي حتى لا أكاد أبكي ، ألا يهتم بنا وألا يلقى بالا الى معاكساتنا الحمقاء ، ولكنه اغلق الكتاب وترك الغرفة دون أن يكمل الدرس .

وعذبنى تأنيب الضمير طيلة يومى ولم أستطع أن أتحمل أننا — نحن الاطفال — قد أثراه حتى بكى : أولم نكن نتوقع نحن أن يبكي ؟ . بل ألم نتمن أن يبكي ؟ . وهكذا ذكرنا — نحن الصغيرتين — رجلا بائساً فقيراً بما أصابه من نصيب مرير . ولم أستطع النوم في ليلتي تلك ، كنت ثائرة على نفسى ، حزينه . . يوبخنى ضميرى . لانهم يقولون إن عذاب الضمير يريح القلب . وهذا محض هراء ! . والحق أن حزنى كا

يشوبه شيء من الخداع بطريقة ما ، إذ لم يكن يرضيني أن يعتبرني طفلة ..
فقد كنت يومئذ في الحامسة عشرة ..

ومنذ ذلك أجهدت خيالي في تدبير آلاف الخطط التي تحمل
بوكروفسكى على تغيير رأيه في . ولكنى كنت خائفة خجلى ، لا أستطيع
أن أركز ففكرى في شيء اللهم إلا في أحلام غامضة (وأي أحلام كانت)
كل ما استطعت أن أفعله هو ألا أستمر في مشاركة ساشا في عبثها ،
وكف هو عن غضبه منا . ولكن هذا كان أقل من أن يرضى كبريائى ..

* * *

وأحب الآن أن أقول كلمات قلائل عن أكثر من عرفت من الرجال
غرابية وإثارة للاهتمام وجدارة بالهطف في وقت واحد . وأنا أتحدث
عنه فحسب : لأننى لم أعره اهتماما من قبل ، وبدأت أهتم به عندما
أصبح كل شيء يتعلق ببوكروفسكى له أهمية القصوى عندى .

فقد كان يلم بالمنزل من وقت لآخر عجوز ضئيل ، رث الثياب ،
أشيب الشعر ، يمشى متثاقلا ، وباختصار كان رجلا غريب الأطوار إلى
أبعد حد . وكان يبدو دائما وكأنه يخجل من شيء ما حتى من نفسه .
وكان ما يشعر به من خزي وخجل يجعله مضطربا مملًا ، يقفز من
موضوع لآخر .. حتى ليتساءل المرء : هل هو في كامل وعيه ؟ وكان
إذا ما وصل إلى المنزل لا يجرؤ على الدخول ، بل يقف خارج الباب

الزجاجي ، فإذا ما تصادف أن مر أحد — أنا أو ساشا أو أحد الخدم الذين يتوسم فيهم العطف ، أخذ يوميء بإشارات متعددة ، فإذا ما تيقن منا أن ليس ثمة غريب بالدار وأنه يستطيع الدخول ، فتح الباب بحذر ، وأخذ يحك يديه في ارتياح ، ثم يمضي على أطراف أصابعه إلى غرفة بوكروفسكي . كان هذا . . أباه ١١ .

ولقد علمت قصته الكاملة فيما بعد : كان يعمل يوماً كاتباً في مكان ما ، ولما لم يظهر مقدرة وضع في أحقر الوظائف ، وعندما ماتت زوجته الأولى — والدته بوكروفسكي — قرر أن يتزوج مرة أخرى . وتدهورت الأمور مع زوجه الجديدة ؛ فهي لا تدع أحداً وشأنه ، وتتحكم في كل شيء ، وكان بوكروفسكي الصغير طفلاً في العاشرة من عمره في ذلك الوقت ، وكرهته زوج أبيه كراهية مريرة ، ولكن القدر وقف إلى جانبه ، فقد كان هناك إقطاعي يدعى يايكوف يعرف بوكروفسكي الكبير ويغمره بإحسانه ، فامتدت حمايته إلى الطفل أيضاً وأرسله إلى المدرسة .

أما سراهتمامه بالطفل فذلك أنه كان يعرف أمه المتوفاة ، وهي امرأة شابة كانت صديقة لآنا فيدورفنا وتزوجت بوكروفسكي وقد دفع الكرم مستر يايكوف — وهو أصدق أصدقاء آنا فيدورفنا — إلى أن يمنح الفتاة خمسة آلاف روبل بائحة لها . أما ماذا حدث لهذا

المال فهذا مالا يدرية أحد وقد علمت أنا بهذا كله من آنا فيدورفنا إذ لم يحاول بوكروفسكى الصغير أن يتحدث عن شئونه العائلية أبدا .

ويقال أن والدته كانت باهرة الجمال فما أعجب أن تقدم على مثل هذا الزواج ! ولقد ماتت فى ريعان الشباب ، بعد أربع سنوات لحسب . من زواجها ولقد دخل بوكروفسكى الصغير الجامعة بعد انتهاء المدرسة ولم ينقطع مستر بايكوف — الذى كان يأتى إلى بطرسبرج كثيرا — عن رعايته . وعند ما اضطر الشاب إلى التوقف عن المدرسة لمرضه أوصى مستر بايكوف به آنا فيدورفنا التى منحته المأكل والمأوى مقابل تدريسه لسانها . وفى هذه الأثناء كانت زوجة بوكروفسكى الثانية تزججه إلى حد أنه ارتكب أخطأ الرذائل حتى ليسكاد يكون مخمورا دائما .

كانت زوجته تضربه ، وتجبره على البقاء فى المطبخ ، وجعلته ينحط إلى درجة تعود معها الصدمات وسوء المعاملة حتى كف عن الشكوى . وعلى الرغم من أنه لم يكن عجوزا حقا فإن ادمانه الخمر كان يهدد بهلاكه ، كانت البقية الباقية فيه من العاطفة البشرية هى حبه العميق لبوكروفسكى الصغير الذى كان صورة من أمه . ولعل ذكرى زوجه الأولى وحنانه كانا هما باعث هذه العاطفة المشبوبة فى هذا العجوز المحطم . فلم يكن يستطيع أن يفكر أو يتحدث عن شئ إلا عن ابنه ، وكان يزوره مرتين فى الأسبوع ،

لأنه كان لا يجرؤ أن يأتي إليه أكثر من ذلك . وحتى مع هذا كان بوكروفسكى الصغير ينهر من هذه الزيارات : اذ كانت أعظم نقائصه هى عدم احترامه لأبيه ، ولكن الحق أن العجوز كان أكثر خلق الله باعثا على النفور أحيانا ، اذ كان لحوحا ، كثير الأسئلة تافه الحديث ، فكان يقاطع بأفقه الأسئلة وأحمقها استذكار الشاب . وفوق هذا كله كان مغموراً فى غالب الأمر . وكان الابن يحاول أن يشفى الأب من رذائله ولجاجته وثرثرته ، فأدى هذا إلى أن يعتبره والده مثلاً أعلى معصوماً من الخطأ لا يجرؤ أن يفتح فاه أمامه دون إذن خاص . ولم يكن العجوز ليل أبداً الإعجاب بباتنكا [كما كان يسميه مدبلاً] حتى لتبدو أمارات الذلة دائماً على وجهه إذا أتى لرؤيته ، فهو لا يعرف أبداً كيف سيكون لقاءه . فيقف متردداً ، فإذا ما تصادف أن مررت ورأيتنى أخذ يسألنى لمدة عشرين دقيقة كاملة عن حبيبته باتنكا : كيف صحته ، هل هو معتدل المزاج ؟ هل هو مشغول بشئ مهم ؟ وإذا كان مشغولاً فما الشئ الذى يشغله ، أ يكتب أم يجلس مفكراً ؟ فإذا طمأننت العجوز بما فيه الكفاية جازف واتخذ قراره وفتح الباب ، ولكن بكل حذر ! — ثم أطل برأسه خلال فتحة الباب ، فإذا وجد من ابنه شيئاً من البشاشة ، بل لاحظ أنه قد أوماً برأسه ، ولج الباب دون صوت ، ثم خلع معطفه وقيمته التى كانت رثة دائماً ، مملوءة بالثقوب مكسورة الإطار ، ثم علق حاجاته وألقى بنفسه فى كرسى بالحذر نفسه وهو

لا يرفع عينيه إطلاقاً عن ابنه حتى لكانما يحاول أن يستشف مزاج حبيبه باتنكا . فإذا تصادف أن كان ابنه عتسبى المزاج لاحظ هذا على الفور ، فيقف متمتماً أنه ما كان يريد الزيارة ، إنما تصادف مروره ، فأتى ليجرد أن يستريح هنيهة قصيرة فحسب ، ثم يبحث في ذلة عن معطفه وقبعته الرثة ، ويفتح الباب بالحدذر نفسه ويمضى على أطراف أصابعه خارج الغرفة ، وعلى شفثيه ابتسامة مصطنعة ، يخفى بها ما اعتراه من خيبة أمل .

أما إذا احسن الفتى لقائه فما يكاد العجوز يملك نفسه من الفرحة ، ويضئ الرضا في كل لمحة من لمحات وجهه ، وفي كل تعبير من تعبيراته . وإذا تنزل باتنكا بالحديث إليه ، وقف العجوز ، واجاب في أسلوب كلكم خضوع وطماعة هو بالرهبة أشبه وهو يستخدم في ذلك أكثر الكلمات تهديبا وهذا معناه أشد الكلمات إضحكا ، إذ لم يكن المسكين بالمتحدث أبداً . فهو دائماً في اضطراب وخجل ، لا يكاد يعرف ماذا يفعل بيديه أو بنفسه ، ودائماً يتمتم بشيء ما حتى لكانما لا يستطيع أن يخفى قلقه وشغفه بأن يصحح إجاباته . فإذا وقع على الإجابة المناسبة ، رفع كتفيه وأصلح من صديريته وربادله وقفطانه ، واكتسى زهواً وقاراً . بل لقد تبلغ به الجرأة أحياناً أن ينهض ويختال متثداً حتى دولاب السكب ، ثم يسك أي كتاب تقع يده عليه ، وينظر إليه قليلاً .

وفي حالات نادرة مثل هذه يرى العجوز دمث الأخلاق ، هادئاً

هدوء الباحث ، كما بما قد تعود استعمال كتب ابنه وكأنما قليل من عطف
بانتكا أم له أهميته . ولكنني شهدت ذات مرة مبلغ ذعره عندما أمره
ابنه أن يترك الكتب وشأنها ، فقد اعتراه الارتباك والاضطراب فحشر
الكتاب مقلوبا ، وحينئذ أخذه القلق ليصحح خطأه . فدفعه في مكانه
وفتحته إلى الخارج وهو يبتسم طيلة هذا كله وقد احمر خجلا وهو
يحاول أن يجعل كل شيء يبدو بريئا ، لا أهمية له .

ولما كان بوكروفسكى يتمنى أن يقوم من أحوال أبيه ، فإنه كان
يعطيه خمسة وعشرين أو خمسين كوبكا أو أكثر إذا ما زاره العجوز
ثلاثة مرات متتالية دون أن يكون مخمورا ، أو يهدي إليه زوجا من
الأحذية أو ربطة عنق أو صدارا بما كان يجعل العجوز سعيداً متبخترا
مخمورا كطاووس .

وأحيانا كان العجوز يزورنا ويحضر السكمك أو التفاح لى ولساشا
ويتحدث عن بانتكا ، ثم يظل بنا يحشنا على أن ننتبه إلى دروسنا أو
يؤكد مرة بعد أخرى أن بانتكا ابن صالح ، ابن مثالى ، وأكثر من هذا
هو ابن متعلم . وإذا كان يقول هذا كان يغدر بعينه بطريقة هزلية ،
ويظهر من التعبيرات ما يجعلنا ننفجر ضاحكتين . وكانت والدتي تعجب
بالعجوز أيضا ، ولكن الرجل كان يكره آنا فيدورفنا وإن كان يجلس في
حضرتها هادئا كالفار ، ذليلا كالنراب . . .

وكانت دروسى مع « بوكروفسكى » تقرب من نهايتها ، وهو

لا يزال يعاملني كطفلة : مجرد طالبة مبتدئة مثل ساشا . وآلمني هذا إذ كنت أحاول أن أصلح من زلاتي السابقة ، ولكنه لم يعر هذا التفاتا فضايقتني هذا كثيرا . وكنت لا أكاد أحادثه خارج الدرس حتى لو سنحت لي الفرصة . وكنت أحر خجلا وينعقد لساني ثم أبكي غضبا في أحد الأركان .. ومن يدري كيف كان الأمر سينتهي لولا حادثة غريبة : فذات مساء ، عندما كانت والدتي في حجرة أنا فيدورفنا ، دخلت غرفته خلصة إذ كنت أعلم أنه خارج الدار . أما ماذا جعلني أفعل هذا فلست أدري ؟ ولم أكن قد دخلت غرفته من قبل بالرغم من تجاوزنا لعام أو يزيد .. كان قلبي يدق في جنون . ونظرت حولي خائفة مستطلعة باديء الأمر .

كانت الغرفة متواضعة الأثاث لا تحظى بشيء من العناية . وعلى الحائط خمسة صفوف من الكتب ، وعلى الكراسي والمنضدة أكوام من الورق : كتب وأوراق في كل مكان . وطرأت إلى ذهني حينذاك فكرة غريبة ، فكرة سيطرت على وأقلقني . لماذا يعابأ هو بصداقتي وعاطفتي ؟ هو رجل مثقف وأنا .. مجرد فتاة حمقاء .. لا أعرف شيئا ، ولم أقرأ شيئا حتى كتابا واحدا . ووقفت أرقب في حسد هذه الأرفف المثقلة بالكتب .

.. كنت متألمة ، مضطربة نائرة ، فقررت أن أقرأها جميعا ، وفي الحال ، من أولها إلى آخرها وبأسرع ما يمكن . ومن المحتمل أن فكرتي

كانت هذه : ما دمت سأعرف ما يعرفه هو فسأكون جديرة بصداقته .
واختلطت أول مجلد رأيت في متناول يدي ، وأنا أرتعش خوفاً وانفعالا
وكنت أشعر أن وجهي يشحب ويحمر على التوالي ، وكان المجلد متربا
قديماً . وكان في نيّ أن أقرأه على ضوء المصباح الليلي إذا ما قامت أمي ،
ولكن كم غاب أملى عندما فتحت الكتاب في غرفتي فلم أجده سوى مقال
ممزق أكلته الديدان كتب باللاتينية . ولم أضع وقتاً بل عدت إلى غرفته .
وكنت على وشك أن أضعه مكانه في الرف عندما سمعت ضجة ، ثم وقع
أقدام في الدهليز . وعبثاً حاولت أن أضع هذه المصيبة مكانها إذ كان
الكتاب محشوراً في مكانه حتى إنني عندما أخذته احتلت السكتب
الأخرى هذا المكان . ولم أستطع ابداً حشره في مكانه . كنت أضغط
عليه بأقصى قوتي . ولا بد أن المسيار الصدى الذي تتعلق به الأرفف
كان ينتظر هذا منى بالذات ؛ إذ انهارت الأرفف كلها بما فيها من كتب
وأوراق . وعندئذ فتح الباب ودخل بوكروفسكى الغرفة .

وهنا يجب أن أذكر أنه لم يكن يحتمل أبداً أن يعبت مخلوق بكتمه ،
وليرحم الله من يجرؤ على لمسها . تخيل إذن مقدار فزعى عندما تساقطت
كل هذه السكتب ، سميكتها ورفيعها ، من كل حجم وكل شكل على الأرض .
وأخذت تتراقص تحت المنضدة والكراسي وفي كل الغرفة . لسمك تمليت
ساعتها لو أطلقت ساقى للريح ، ولكن كان قد فات الأوان . وبناف
بذهنى أن هذه هي النهاية ، نهاية كل شيء . لقد وضعت ، انتهيت اضطبت

أعبت كآية طفلة في العائرة ، كآية طفلة حقا ما فونة .

أما بوكروفسكى فقد انفجر غاضبا وصرخ في وجهى قائلا :

— وماذا بعد : « ألا تخجلين من مثل هذه الحماقات ؟ متى سينضج

عقلك ؟ »

وركم كى يلتقط كتبه ، وانحنيت كى أساعده فى جمعها ، فزجرنى نائرا :

— « لا تتبعى نفسك ، ولعلك تتسعين صنعا لو ابتعدت عندما

لا يدعوك أحد . »

ولكنه كان قد لاحظ ذاتى ، فالتف من حديثه إلى لهجة المدرس

المؤنب ، اللهجة التى كان يستخدمها فى دروسنا الأخيرة إذ قال :

.. « أما آن أن تتعقلى ؟ - إنك لست طفلة - لست فتاة صغيرة -

لقد بلغت الخامسة عشرة الآن . »

ولسكأنا أراد أن يستوثق هذا ، إذ نظر إلى ، ولكن وجهه احر

لجأة . ولم أستطع أنا أن أفهم شيئا ، ووقفت أحدى فيه . ووقف هو ،

واقترب منى مضطربا ، وبدأ يتكلم بكلمات مختلطة لا انسجام فيها ، لعله

كان يعتذر عن شيء ما ، وربما كان ذلك لأنه لم يلاحظ من قبل أننى

قد كبرت ..

وأخيراً فهمت ، أما ماذا فعلت حينئذ فهذا مالا أدره اللهم إلا أن وجهي قد احمر خجلاً حتى تجاوز خجله ، وأن الأمور قد اختلطت علي ، فغطيت وجهي بيدي وانطلقت أعدو خارج الغرفة .

ولم أعرف كيف أدارى نفسى خجلاً . يا إلهي . . كلما تذكرت أنه وجدني في غرفته ١١ ومضت أيام ثلاثة لم اجرؤ فيها على النظر إليه ، وكان نخجلى يبلغ حدّاً يثير الدموع في عيني . وكانت أغرب الأفكار أكثرها مدعاة للاضطراب تتوارد الى ذهني ، وكان أغربها جميعاً أن أمضي اليه وأصرح له بكل شيء ، أن أشرح له كل شيء وأقنعه أنني لست مجرد فتاة صغيرة حمقاء ، وأنني لم أقصد شراً ، بل لقد قررت هذا فعلاً ولكنني افتقدت الشجاعة والحمد لله ، إنني أستطيع أن أتخيل جيداً إلى أي حد كنت سأبدو حمقاء في نظره . وحتى الآن ما زلت أشعر بالتحجل من مجرد التفكير في ذلك .

وسقطت والدتي فريسة مرض خطير ألم بها بعد ذلك بأيام قليلة حتى أصابتها الحمى واخذت تهذي ، ولم أفارقها لحظة واحدة ، أعنى بها وأعطيتها الدواء . وما أقبلت الليلة الثانية حتى كنت منهكة لأقوى على السهر وبدأت أرى بقعا خضراء تتراقص أمام ناظري ، وبدأ لي كل شيء كأنما يطفو من حولى . ولولا أنات أمي الضعيفة لاستسلمت للنوم في أية لحظة . وإذا ما غلبني النعاس كنت أصحو فزعة ، ولكن النوم كان يعود فيغلبني .

.. كان هذا هو العذاب بعينه ، وفي لحظة ما لا أدريها ولا أستطيع أن أتذكرها ، وعندما كان النوم يتصارع هو واليقظة ، غزا عقلي المكدود حلم مزعج ، فاستيقظت مذعورة . كانت الغرفة مظلمة ، اللهم إلا من شمعة تحرق فتلقى بصيصا من الضوء على الحائط . وتماكنت ذعر غريب ، وسيطر على خيالي حلم مزعج انقبض له قلبي . فقفزت من المقعد . وأنا أصرخ جزعة من فرط ذعري . وفتح الباب ، ودخل منه بوكر وفسكى .. وأذكر أنني وجدت نفسي بين ذراعيه عندما ثبت إلى رشدي ، وأنه وضعني على مقعد بلطف وحنان ، ثم قدم لي كوباً من الماء وإنهال على بالسؤال إثر السؤال .. وقلت أنا أى شيء : لست أدري ماذا .. أما هو فقال وهو يمسك بيدي :

إنك مريضة جداً .. إنك محمومة أراك تهدمين صحتك ألا استرحت قليلاً ونمت ؟ وسأوقظك بعد ساعتين - ناشدتك أن تستلقي وتستريحى ، وظل لي يغرنى على الراحة دون أن يتيح لي فرصة للاعتراض ، وكنت فعلاً في حاجة إلى الراحة بعد طول عناء ، وكانت عيناى يثقلهما النوم ، فانسكشت في المقعد كي أستريح نصف ساعة ، ولكنى نمت حتى الصباح حتى أيقظنى بوكر وفسكى فقد حان موعد تعاطى أوى للدواء .

وفي الليلة التالية جلست إلى فراش أوى وقد عقدت عزمى على ألا أنام ، وما أقبلت الساعة الحادية عشرة حتى طرق بوكر وفسكى باب

غرفتي . وقال لي وأنا أفتح له الباب :

— « ألا تشعرين بالوحدة وأنت تجلسين هنا مع نفسك ؛ إليك كتابه يساعدك على تضيئة الوقت ،

وقبلت كتابه شاكرة ، ولا أستطيع أن أتذكر أى كتاب كان .
أو هل فتحته أو لا ؟ هذا على الرغم من أنني لم أغض عيني تلك الليلة فقد منعتني نشوة غريبة عن النوم . كنت حائرة ، لا أستطيع أن اجلس ساكنة في مكاني ، فأقف مرة بعد أخرى أذرع الغرفة ، وغمرني شعور من الارتياح النفسي والدفع اللذيذ . كنت سعيدة برعايته فورية باهتمامه بي . وجلست أفكر وأحلم طيلة ليلي ، ولم يعد هو إلى ، وكنت أعلم أنه لن يأتي ، وهكذا ساءلت نفسي : ترى هل يقبل الليلة التالية ؟ .

وفي الليلة التالية ، بينما الجميع نيام ، فتح بوكروفسكي غرفته ووقف يحدثني على عتبة الباب ، ولست أستطيع أن أتذكر كلمة واحدة مما تبادلناه من حديث . كل ما أتذكره أنني كنت خجلة مضطربة .. أضيق بنفسي . وأتني تمنيت أن ينتهي حديثه وإن كنت طالما أشتهيته ، وحملت به ، وأعددت له كل الأسئلة وكل الأجوبة .

وفي تلك الليلة بدأت صداقتنا ، وهكذا بتنا نقضي معا عدة ساعات من كل ليلة خلال مرض أي . ويوماً بعد يوم تغلبت على خجلي وإن

كنت أشعر بعد نهاية كل حديث أنني مبتدئه بنفسي ، ولكنني كنت سعيدة في أعماقي ، حينما أرى أنه نسي كتبه البغيطة .

و ذات مرة مضى بنا الحديث إلى التفكه بقصة انهيار أرفف الكتب واجتاحته سائتها حالة غريبة ، فإذا بي جريئة واثقة بنفسي ، وتمسكتني نشوة غريبة وأنا أعترف له بأنني إنما أردت أن أعلم — أن أعرف شيئاً ، وأنه قد حز في نفسي أن اعتبرني مجرد طفلة . . لاشك أنني كنت في حالة غريبة ، إذ أفعمت نفسي حناناً وامتلاّت عيناى بالدموع وصرحت له بكل شيء : صداقتي له ، وكما أتمنى لو عانيت به ، وأن أصبح على وئام معه وأن أملاً حياهته عزاء وحناناً ، وهو يصنئ إلى دهشاً مستغرباً مضطرباً صامتاً وألمني بحمته وشعرت بخيبة أمل : لعله لم يفهم ، بل لعله كان يستنصر مني في أعاقه . ولم أستطع أن أقاوم نوبة من البكاء فانفجرت باككية كطفلة ، وتأث هو فأمسك بكلتا يدي يقبلهما ، ويضعهما على صدره وهو يتمتم مواسياً . أما ما قاله بعد ذلك فلست أذكره ، كل ما أذكره أنني بكيت ثم ضحكت ، ثم غلبني البكاء ، وأن وجنتي كادتا تحترقان ، وأني لم أستطع أن أنفوه بكلمة لفرط سعادتي . وعلى الرغم من اضطرابي لاحظت أنه كان شارداً فلما لعله لم يستطع أن يفيق من دهشته امام حماسي ونشوق المفاجئة ، أو لعله كان غير مصدق أول الأمر ثم تقبل عاطفتي وكلماتي المخلصة واهتمى بإخلاص يعادل إخلاصي ، وبالاهتمام والحنان نفسيهما ، كصديق . . بل كأخ . وكان هذا

جسيدا ممتعا يملأ القلب عزاء ، لم يكن ثمة داع لأن أخفى أى شىء فقد كان يشعر بهذا كله جيدا ، وأخذ يقترب منى يوماً بعد يوم .

أكان هناك شىء ما لم تحدث فيه فى تلك الايام الحلوة على ضوء مصباح يخفق إلى جانب فراش اى ؟ كنا نتحدث عن كل ما يخطر على العقل ، وما يعبر عنه القلب . . وكنا سعداء . أيام ممتعة كانت تلك ، وإن تسكن حزينه . وإن ذكرناه لنتع وتحنن فى الوقت نفسه .

إن الذكريات سواء الممتع منها او الحزين ، مؤلمة دائماً — أو هى على الأقل كذلك بالنسبة لى ، ولكنه نوع لذيذ من الألم . وعندما تنقل قلبى المغموم فان الذكرى تسره وتنعشه ، كما تفعل أنداء المساء فى زهرة مسكنية أضنتها حرارة الظهيرة .

وكانت والدتى تتماثل للشفاء وإن كنت لأزال أجلس إلى فراشها وكان بوكروفسكى يحضر إلى كثيرا الكتب فى غالب الأمر ، وكنت أقرؤها فى البداية كى أذود النوم عن أجفانى ، ثم بت أقرؤها فى كثير من الانتباه ، وانتهى بي الأمر إلى قراءتها فى شغف شديد لقد اكتشفت فيها آفاقا جديدة كنت أجهلها وأشياء لم أكن أتوقعها ، وامتلا قلبي بالانطباعات الجديدة . وكلما كانت هذه الإحساسات بما يستعصى على فهمى بادية الأمر اعتززت بها وكانت أكثر عذوبة لروحي . ولما

ازدحمت في قلبي بلا نهاية تركنتي في تيه من العجب والدهشة . ولحسن
الحظ لم يؤثر هذا الغزو الروحي على توازني ، كنت حاملة إلى حد لم يكن
من الممكن معه أن لا يحدث لي ذلك .

وعندما شفيت والدتي انتهت سهراتنا الليلية ، وكان من النادر
بعد ذلك أن تتبادل كلمات قلائل ، وربما كانت كلمات تافهة
ولسكنها تحفي وراءها الكثير . وكنت سعيدة جداً ، وامتدت سعادتني
أسابيع عدة .

و ذات يوم أقبل بوكروفسكي العجوز لزيارتنا ، وجلس يثرثر
كعادته ، ولكنه كان مبتهجا منشرح الصدر على غير عادته . وأخذ
يضحك ويمزح ثم أنهى إلينا سر ابتهاجه بأن أخبرنا أن عيد ميلاد
عزیزه باتنكا بعد أسبوع واحد لحسب ، وأنه سيزور ابنه في هذه
المناسبة ، مرتدياً صداره الجديد ومنتعلاً زوجاً من الأحذية وعدته
زوجته أن تشتريه له . وباختصار كان العجوز سعيداً جداً وأخذ يثرثر
بلا انقطاع .

عيد ميلاده لقد فسرت فيه ليل نهار ، أنا أيضاً سأقدم إليه هدية
في عيد ميلاده لتذكره بصداقتنا ، ولكن ماذا يجب أن تكون ؟ —
أخيراً قررت أن أهدي إليه بعض الكتب ، وكنت أعرف أنه يسمي
لو اقتصى مؤلفات بوشكين في آخر طبعاتها . فلتكن مؤلفات بوشكين
إذن هديتي إليه .

وكانت حيا كن للشباب قد مكنتني من توفير حوالى ثلاثين روبلا
كى أشتري بها لنفسى فستانا ، وهكذا أرسلت طاهيتنا العجوز « ماتربونا »
كى تستفسر عن ثمن المجموعة الكاملة . ويا إلهى . . . كان ثمن الواحد
عشر كتابا مجلدة ستين روبلا على الأقل !

من أين إذن أدبر المال ؟ . واعتصرت فكرى ولكن بدون
جدوى . لاني لا أستطيع أن أطلب من أى بعضا من المال ، من الطبعي
أنها ستساعدنى ، ولكن فى هذه الحال سيعلم كل من فى المنزل ، ولن
تصبح الهدية سوى مجرد التعبير عن الشكر لبوكر وفسكى على تدريسه
لى . ولكنى كنت أريد أن تكون الهدية منى أنا لحسب . أما عن
الجهد الذى بذله معى فقد رجوت أن أظل مدينة له به إلى الأبد ، وأن
أجازيه عليه بصداقتى وحدها .

وأخيرا وجدت الطريقة التى أحقق بها أملى . . كنت أعرف أن
باعة الكتب فى « جوسيتنى دفور » يبيعون أحيانا كتباً مستعملة ، ولكنهم
تسكاد تكون جيدة ونصف ثمنها الأصل إذا ما سارم المرء معهم .
لذا عولت على زيارة جوسيتنى دفور بأسرع ما يمكن ، وسنحت لى
الفرصة فى اليوم التالى : كان ثمة شىء ما احتجنا الى شرائه ، ولما كانت
والدتى متوقعة ، وأنا فيدورفنا مصابة بنوبة من الكسل ، لذا كانت هذه
المهمة من نصيبى .

ومضيت أنا وماتريونا ، ومن حسن حظنا عثرنا على مجموعة جميلة من مؤلفات بوشكين وبدأنا المساومة . وطلب البائع ثمننا أكثر من ثمنها الأصلي باديء الأمر ، ولكنه أنزل الثمن إلى عشرة روبلات من الفضة بعد كثير من الجهد ، وبعد أن تظاهرت بعزمى على الرحيل عدة مرات . ويا لها من متعة أن يساوم المرء ! ولم تفهم « ماتريونا » المسكينة أبداً لماذا كنت مضطربة إلى هذا الحد أو لماذا أحتاج إلى هذا العدد كله من الكتب ؟ ولكن المشكلة كانت أنني لا أملك إلا ثلاثين روبلا من الورق والبائع لا يرضى بأن يبيعها بأقل من المبلغ الذى حددده ولو بكوبك واحد . ولكنى توسلت وتوسلت ، وأخيراً ، وبعد أن تركته ثم عدت عدة مرات ترفق ونقص الثمن روبلين وهو يشهد الله والسما ، أنه لم يفعل هذا إلا لأننى شابة جميلة فحسب ، وأنه ما كان يرضى بتخفيض الثمن من أجل أى مخلوق آخر فى هذا العالم !

وكم كان ألى وأنا ارى ان كل ما ينقصنى هما روبلان فحسب . وكنت على وشك البكاء كدا لولا ان ساعدتنى ظروف لم أكن أتوقعها بعد أن أسلمت نفسى لليأس .

فغير بعيد وقف بوكروفسكى العجوز عند بائع كتب على حين أحاط به أربعة أو خمسة من الباعة يزعمونه حتى كاد يجن ، كل يجد شأن كتبه . . وأى كتب كانت ! ومع هذا كان العجوز متلهفاً عليها .

جميعاً ، ولكن ارتبا كه يمنعه عن تحديد ما يختاره منها . واقتربت منه
وسألته ماذا هو فاعل ؟ فطغت عليه الفرحه ، إذ كان العجوز معجباً بي
لا يقل عن إعجاب عزيزة باتسكا وقال الرجل :

— اننى أشتري الكتب يا فارفارا اليكسيفنا ، بعض الكتب من
اجل حبيبى باتسكا ، فعيد ميلاده قد اقترب ، وهو يحب الكتب لذا
فسأهدى اليه كتباً .

وكان العجوز يعبر عن شعوره دائماً بطريقة هزلية ، اما الآن فقد
أضاف الى طريقته المضحكة فى الحديث ارتبا كه واضطرابه .

وكان كل ما يختاره لا يقل ثمنه عن روبل أو روبلين أو ثلاثة .

ولم يحاول قط أن يسأل عن ثمن الكتب الكبيرة ، بل كان يكتفى
بأن ينظر إليها متأملاً ، ثم يتحسس أوراقها ، ثم يضعها مكانها برفق
وهو ينتم :

— كلا .. كلا هذه غالية جداً . لنر غيرها . ثم يعود ليفتش فى كتب
الأغانى والتقاويم الرخيصة .

وسألت الرجل :

— لماذا تشتري هذه الكتب ؟ — إنها تفاهات !

وأجابنى :

— كلا — إنها كتب لطيفة .. لطيفة جدا ..

ونطق الكلمة الأخيرة حزيناً متمملاً حتى بدا لي أنه أوشك على البكاء؛ لأن الكتب الأخرى غالية جداً، بل لقد رأيت دمعة كبيرة تنكاد تنساب من عينيه على أنفه الأحمر، وسألته عما معه من نقود، وتمتم قائلاً : (نقود .. نعم) ثم أخرج المسكين كنزه الكامل ملفوفاً في قطعة من ورق الصحف . فإذا بها نصف روبل ، وقطعة من فئة عشرين كوبكاً وعشرون أخرى من النحاس . وجذبه إلى بائع الكتب الذي ساومته — هنا أحد عشر كتاباً تكلفنا اثنين وثلاثين روبلاً ونصف الروبل ومعى ثلاثون منها . دعني أضيف إليها ما تملك ونشتري الكتب ونجعلها هدية مشتركة منا .

وكاد الرجل يحن فرحاً ، ودفع بفضته ونحاسه في يد البائع الذي حملة فوراً بمكتبتنا التي اشتريناها .

ووعدني العجوز مخلصاً بعد أن حشد الكتب في جيوبه ، وتحت إبطه ، وعدني بأن يأتي بها إلى في اليوم التالي دون أن يلاحظه أحد ، ومضى إلى منزله . . . يحمل كنزه . . .

فلما كان الغد أقبل الشيخ لزيارة ابنه ، وبعد أن قضى عنده حوالى الساعة كماداته أقبل علينا لزيارتنا ، وجلس في أغرب طريقة هزلية غامضة يمكن تخيلها ، وأخذ يبتسم متلطفاً وهو يفرك كفيه فرحاً كما ينكمش سرّاً ، وهمس في أذني أنه قد أحضر الكتب سرا إلى المنزل

وأخفاها في المطبخ تحت رعاية « ماتريونا » ، ثم تطورت المناقشة إلى الحادثة السعيدة التي ينتظرها ، فأفاض في الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها . ولكن كلما تبادى في حديثه زاد يقينى أن عنده ما يخفيه — شئ ما لا يجرو — بل يخشى — أن يذكره ، ولم أقل شيئاً ، ولكنى رأيت هذه اللمحة من الضياء والرضا المكبوت وغمرات عينه اليسرى تسكاد تذهب عنه كلها وأنه قد أضحي متلهفاً قلقاً . وأخيراً بدأ يتحدث وبصوت خفيض مضطرب .

— فارفارا اليكسيفنا : أتعرفين فيم .. أفكر ؟ . وازداد اضطرابه ، ولكنه واصل حديثه قائلاً :

— ان الأمر هكذا . ماذا لو قدمت إليه عشرة كتب باعتبارها هديتك أنت الخاصة ، و قدمت إليه الكتاب الحادى عشر كهديتى أنا الخاصة . وهذه الطريقة ستقدمين له هدية ، وسأقدم اليه هدية — كل منا يقدم هديته .

وكان مضطرباً بحيث لم يستطع أن يكمل حديثه ، جلس يترقب قرارى .. وسألته :

— لماذا لا تريدنا أن نقدم هديتنا معاً يا زاخار بتروفش ؟ قال :

— حسناً يا فارفارا اليكسيفنا ، الحق أن الموضوع هو ..

ثم تلجج متعثر... واحمر وجهه حتى قال أخيراً — الحق أننى
أزل أحياناً يافارقاً اليك سيفنا ، بل أخشى اننى أزل دائماً . وباختصار
اننى لأسالك كما ينبغي أحياناً لأن المرء يشعر بالبرد وأحياناً لأنه فى
ضيق ، أو ليجرد أن المرء متوَعك المزاج أو أن شيئاً ما قد مضى على
غير ما نشئ ، ولا يستطيع المرء ان يقاوم قليلاً من الخمر يشربها وقد
تزيد أحياناً عما يستطيع أن يتحمّله . وتعرفين أن باتنكا لا يجب هذا ،
انه يغضب منى ثم يعفنى ويعطى . وهكذا ستشعره هديتى أننى كنت
أصلح من امرى وإذا ما أردنا الصراحة فسيبرى أننى كنت أدخر منذ
أمد طويل ، فما من مخلوق يعطى القليل من المال سواء . وهذا سيسعده
إننى أنفقت المال فى أمر مثل هذا ، وأننى ادخرته جميعاً من أجله
هو لحسب .

وشعرت بالأسى من اجل العجوز الذى جلس ينظر الى قلقل
يترقب حكى ، واتخذت قرارى بسرعة وقلت ..

— قدم اليه الكتب كلها أنت نفسك يا زاخار بتروفتش .

— كلها ، أتقصدى كل الكتب ؟

.. طبعاً ..

— كأنها هدية منى أنا ؟

— نعم

— هدية من عندى أنا ؟

— نعم هدية من عندك انت !

وبدا كأنه يستطيع ان يستوعب هذه الحقيقة لمدة طويلة . وأخيراً
تم حالماً :

— طبعى ان هذا سيكون رائعا — نعم سيكون هذا رائعا ، ولكن
ماذا عنك انت . . ماذا ستفعلين انت يا فارارا اليك سيفنا ؟
وقلت :

— لا شيء .

وصرخ هلعاً

— لا شيء منك !! لا شيء على الإطلاق . . .

ولمذراعه هذا أبدى استعداداه لأن يتخلى عن هذه الفكرة حتى
أستطيع أنا أيضا ان أهدي شيئا لابنه . كم كان روحه عطوفاً واكدت
له انه ليسعدنى ان أهدي إلى ابنه شيئا ولكنى لا أريد أن أفسد متعته .
ثم اضفت :

— اذا ما ساعد ابنك سعدت أنت ، وسأساعد انا ايضا بدورى —
وسيكون هذا كما لو كنت قد اهديت اليه شيئا بنفسى .

وطمأنه هذا ، ومكث معنا ساعة أو يزيد ، ولكنه لم يستطع أن

يجلس هادئاً لحظة ما . . اذ ظل يثب هنا وهناك ، يتحدث ويضحك ويعايب ساشا ، ويقبلى ، ويقرص ذراعي ، كلما استطاع ، ويقول أنا فيدورفنا . . اخيراً اذا ما أولته ظهرها حتى اضطرت آخر الأمر الى طرده . . لأننى مارأيتة قط فى حياتى فى مثل هذا الاضطراب والمرح .

وعندما أقبل اليوم الموعد ظهر على عتبة الباب فى الحادية عشرة بالضبط عقب انتهاء القداس مباشرة ، وهو يرتدى معطفا باهتاً أنقن إصلاحه . . ثم صداراً وحذاءً جديداً بحق ، وكان يحمل ربطة من الكتب فى كلتا يديه ، وكنا فى هذه اللحظة قد بدأنا نتناول القهوة فى غرفة أنا فيدورفنا (إذ كان اليوم يوم الأحد) . وكانت أولى ملاحظات الشيخ أن بوشكين شاعر ممتاز ، ولكنه سرعان ما ارتج عليه القول فعدل إلى القول بأن على المرء أن يصلح من سلوكه بنفسه ، وبأنه لو لم يفعل المرء هذا لزل ، وبأن هذه الزلات الشريرة هى سبب خراب البشر ، وأكد هذا ضارباً أمثلة لا تدع للشك مجالا . ثم أخذ يؤكد أنه أخذ يصلح من أحواله منذ وقت طويل مضى . وبدأ يسلك سلوكاً مثالياً ، وأنه قد رعى دائماً ما فى كلمات ابنه من صدق ، وأنها مست قلبه دائماً ، ولكنه الآن حسب قد تغير إلى حال أفضل . والشاهد على ذلك أنه يرجو ابنه أن يتقبل هذه الكتب التى اشتراها بنقود ظل يدخرها طويلاً .

ولم أستطع أن أمنع نفسي عن الضحك والبكاء فى آن واحد وأنا أستمع إلى الشيخ ، فقد عرف كيف يخترع قصة مناسبة عندما اقتضى

الحال ذلك ، ثم نقلت الكتب إلى غرفة ابنه ، ووضعت على الرف ،
ولكن كان من الطبيعي أن يخزن بوكروفسكى الحقيقة فوراً

ثم دعى العجوز بعد هذا إلى الغداء وقضينا يوماً سعيداً حقاً ! وبعد
الغداء لعبنا الورق على مبالغ ضئيلة . وكانت ساشا مبهتجة ، ولم أكن
أقل منها ابتهاجاً ، وأظهر بوكروفسكى اهتمامه بى ، وحاول أن يحادثنى
عندما خلا إلى ولكننى لم أهد له الفرصة .

كان هذا أسعد أيام حياتى خلال سنوات أربع ، والآن تأتى أسود
أيام حياتى وأكثر الذكريات إثارة للألم ، وربما كان هو السبب الذى
من أجله تمضى ريشتى بطيئة حتى لتكأنها تتأبى على الكتابة لعل هذا هو
أيضاً ما دفعنى إلى أن أصف كل هذه التفاصيل الصغيرة فى أيامى السعيدة
ذلك الوصف الأخاذ فلقد كانت أيامى السعيدة أياماً قلائل . تبعتهما
الأحزان والمشكلات التى لا يعلم غير الله مداها .

بدأت نكباتى بمرض بوكروفسكى ثم وفاته : كان قد لازم الفراش
بعد مضى شهرين من هذه الحوادث التى ذكرتها آنفاً ، فقد أنهك نفسه
خلالهما ، فكان يعمل بجهد كى يتكسب قوت يومه إذ لم يكن له مورد
رزق ثابت يتعيش منه ، وقد ظل حتى اللحظة الأخيرة يتعلق بأمل واهن
كغيره من المصابين بداء الصدر وهو أنه سيعيش طويلاً ، وقد كان فى
استطاعته أن يعمل مدرساً ، ولكنه كان لا يميل إلى هذه الوظيفة :

من حيث التوظف في الحكومة فلم يكن محل تفكير نظراً لاعتدال صحته وإلى جانب هذا كان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يحصل على مرتبه الأول وباختصار لم يكن يستطيع أن يرى غير الجانب الأسود من الأمور ، وبالتدرج انطوى على نفسه وتدهورت صحته أيضاً وإن لم يلاحظ هذا وعندما أقبل الخريف كان يخرج في معطف هزيل في أغلب الأحيان وليبحث عن وظيفة ، وكان هذا يشعره بئزلة مريرة ، ولما تكررت غدواته تحت المطر ، تكرر ابتلال قدميه ، لازم الفراش ولم ينهض منه أبداً . ومات في منتصف الخريف في نهاية أكتوبر .

وقد لازمته خلال مرضه لا أكاد أبرح غرفته ، أعنى به والي حاجاته جميعاً ؛ وطالما سهرت عليه ليالٍ بأكملها . وكان يهذى في أغلب الأحيان ، ويتكلم عن كل أنواع الأمور : عن كتبه ، عن الوظائف التي سعى إليها ، عني ، عن أبيه — عن الكثير مما لم أكن أعرفه من قبل وعن أشياء لم تكن تخاطر لي على بال . وبدأ لي وكأن كل من في المنزل يرمقني بنظرات غريبة في أول الأمر ، وكثيراً ما كانت آنا فيدورفنا تهز رأسها مستنكرة ؛ ولكنني كنت أرد على نظراتها في هدوء ، ويوماً بعد يوم كفوا عن الاهتمام بهذا ؛ وأعلى الأقل كفت عن هذا أياً .

وكان ثمة أوقات يتعرف فيها بوكروفسكي ، على ، ولكنه كان يهذى أغلب الأوقات ، وفي أوقات أخرى كان يبدو كأنه يجادل شخصاً

ما ليلاً بأكله وفي كلمات غامضة . . وصوته الأجش يدوى في الغرفة الصغيرة كأنه في قبو . وكنت خائفة . وفي ليلته الأخيرة أصابه مس من جنون ، وكان يتألم كثيراً ولا يكف عن الأنين . وخافه الجميع ، وصلت أنا فيدورفنا إلى الله أن يأخذه سريعاً ، وقال الطبيب : ان النهاية آتية لاريب فيها إذا حل الصباح .

وقضى « بوكروفسكى » العجوز ليلته أمام باب ابنه حيث فرشت له حصيرة لينام عليها ، وأخذ يتردد على الغرفة بين الحين والآخر ، وكان منظره مخيفاً ، كان الحزن قد أذهله وحطم قلبه ، وطفق رأسه يرتعش اضطراباً ، وظل يتمم محدثاً نفسه حتى خشيت أن يفقد عقله ، وقبيل الفجر غلبه التعب ، فاستسلم لنوم أشبه ما يكون بالموت .

وما أن تجاوزت الساعة السابعة صباحاً حتى أحسست أن الموت قريب ، فأيقظت الأب ؛ وكان المحتضر قد استرد وعيه تماماً فودعنا جميعاً ، وتحجرت الدموع في عيني على الرغم من أن قلبي كان يتحطم .

غير أن لحظاته الأخيرة كانت أسوأ اللحظات جميعاً ، فقد ظل يتضرع ملهماً من أجل شيء ما ولسان ملثو ، ولكني لم أستطع أن أتبين كلماته ، وكان الأمر أكثر مما أستطيع احتماله فقد ظل ساعة كاملة لا يستقر على حال وهو ينظر إلى مستعظفا يحاول أن يقول لى شيئاً ما بإشاراته ، ثم أخذ يتوسل إلى في صوت أجش لا أميزه ، ولكني لم أستطع هذه المرة

أيضاً أن أهم شيئاً ، فأحضرت الجميع إلى فراش مرضه ، كلا بدوره ،
ولكن دون جدوى ، وأعطيته قليلاً من الماء ، ولكنه هز رأسه أسفا .

وأخيراً فهمت ما يريد . كان يرجو أن أرفع ستار
النافذة كي يحظى بنظرة أخيرة إلى ضوء النهار .. إلى الشمس .. إلى عالم
الله كله .

ورفعت الستار غير أن الصباح الباكر كان كثيباً حزيناً كالحياة.
الآفلة .. كانت الشمس محتجبة ؛ والسما تخبئ خلف الضباب .. وكانت
سما حزينه ممتلئة بالسحب ، ورذاذ من مطر يرسم خطوطاً من ثلج على
زجاج النافذة .. وبدت السكابة أعنى بما هي حقاً . وثمة أصابع نحيلة
من الضوء تصارع لهب مصباح الأيقونة المرتعش ، ورمقى المختضر
بنظرة تقطر تلهفاً وأسى .. وهز رأسه ..

وفي لحظة .. كان قد مضى !! ..

وأشرفت أنا فيدروفنا على تشييع الجناز ، فاشتريت تابوتا بسيطاً
جداً ، وأجرت عربة متواضعة ، ولم تنس أن تعترض عن هذه النفقات
فاستولت على كتبه وممتلكاته الأخرى ، وثار العجوز وتشاجر معها
مشاجرة مريرة ، واستعاد ما استطاع من كتب ، وحشرها في جيوبه .
وفي قبعته ولم يفارقها لحظة لأيام ثلاثة وهو يحملها معه .. حتى في
الكنيسة . وكان مذهولاً . ضائعاً .. خلال هذه الأيام . يحوم دائماً

حول التابوت . . يعدل الأكفان ، ويضيء الشموع أو يطفئها ، وهو
تائه شارد الفكر .

ولم تحضر أمى أو أنا فيدورفنا صلاة الجناز كانت والدتي مريضة ،
أما أنا فيدورفنا فكانت تنوى الذهاب ولكن بوكر وفسكى عاد
فتشاجر معها ، فعدلت عن رأيها . ولم يحضر الجناز سوى والعجوز
لحسب ، وتملكنى خلال الصلاة نوع من الرعب ، نوع من التسكن
بمندر المستقبل ، وقاومت حتى استطعت بصعوبة أن أنتظر إلى انتهاء
الصلاة . وأخيراً أحكم على التابوت غطاؤه ، ووضع على عربة
مضت به .

وتبعته حتى نهاية الطريق ، ثم وخز السائق الخيل فضت مسرعة
والعجوز يجرى خلفها وهو يشق باكياً حتى تقطعت أنفاسه ، وسقطت
قبعته ، ولكنه لم يترث ليلتقطها ، وبلل المطر شعر رأسه على حين كانت
الرياح القاسية تصفع وجهه ، ولكنه بدا وكأنه لا يحس بشيء ، وظل
يقفز من جانب العربة إلى الجانب الآخر ، وذيل معطفه القديم يتأرجح
وتساقطت الكتب من كل جيوبه في حين احتضن أكبرها إلى صدره ،
وخلع المارة قبعاتهم ، ورسوموا علامة الصليب ، بل لقد وقف بعضهم يحرق
في العجوز المسكين ، وظلت الكتب تقع من جيوبه في الوحل ، فإذا
استوقفه أحد لينبذه إليها اختطفها وجرى كي يلحق بالعربة .

وعند منعطف الطريق انضمت إليه سائلة عجوز رثة الثياب ، ولما
غابت العربية عن ناظرى عدت إلى منزل ، وألقيت بنفسى على صدر
أمى وأنا أبكى فى حرقه وأخذت أقبلها وأطوقها بذراعى حتى لكأنى
أردت أن أحى آخر من بقى لى فى الحياة ، يبدو أن الموت كان واقفاً
بالمرصاد عند رأسها .



١١ من يونيه ...

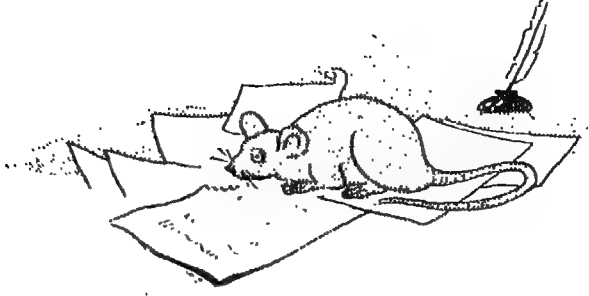
كم أنا ممتنة لك على نزهة الأمس يا ما كار أليسكسفتش ! ركم كانت هذه
الجزر خضراء جميلة منتعشة ، فأنا لم أكن قد شاهدت الشجر والعشب
منذ مدة طويلة ! وعندما كنت مريضة خيل إلى أن العمر لن يمتد بي
حتى أراها مرة أخرى ، وهكذا يمكن أن تتخيل كيف كان شعوري
بالأمس . ولكنني أرجو ألا يضايقك ما بدا من حزنني أمس . كنت في
الواقع سعيدة مبهجة القلب ، ولكنني لست أدري كيف أصبح حزينة
دائماً في أسعد لحظاتي . وإذا كنت قد بكيت فلا تهتم لبكائي ، فإني لأبكي
غالباً ولا أدري : لماذا ؟ ذلك أن الأشياء التي أشعر بها تولدني بسهولة ؛
فإحساساتي دائماً مؤلمة : السماء الشاحبة الخالية من السحب ، والشمس
الغاربة ، وصمت المساء . . . ولست أدري : ماذا أيضاً ؟ . حسن . . .
كنت في حالة أناثر معها بسهولة وقلبي مكدود يطلب الدموع . . . لماذا
أكتب كل هذا ؟ إن كل شيء غامض في قلبي ، فإذا سطرته على الورق
يدا خالياً من المعنى ، ولكن ربما فهمت أنت . . . دموعي وضحكاتي أي

إنسان طيب ! ... أى إنسان عطوف أنت يا ماكار أليكسييفتش . عندما كنت تنظر إلى بالأمس أحسست أنك تحاول أن تقرأ ما فى عيني ، وأن تستشف سعادتي . وسواء أكانت شجرة أم سياجا أم مجموعة من الشجر أم نهرا هو ما أرى وأنا مل كنت أنت هناك تراقبني حتى لكانما كان هذا كله ضيعة تملكها أنت . .

إن هذا كله يشهد على أن لك قلبا عطوفا يا ماكار أليكسييفتش ، ولقد أحبتك أنا لهذا ؛ إلى اللقاء يا عزيزي لأنني مريضة اليوم أيضا ؛ فقد بللت قدمي وأصابني برد . فيدورا مريضة أيضا ، وهكذا أصبح كلانا عاجزا . لا أنفسنا وتعال إلينا ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

المخلصة

ف . و .



١٢ من يونية

عزيزتي فارفارا

أعرفين أنني توقعت أن يكون خطابك بالأمس شعرا ولا شيء أقل من ذلك ! واسكنك كتبتي بدلا من هذا صفحة واحدة صغيرة لحسب ، ولا أعنى بهذا إلا القول أنه مع أنك كتبت القليل جدا فإنه كان جميلا جدا وعزيزا لدي ؛ ففي خطابك الطبيعة والخضرة والمشاعر ، وباختصار لقد وصفت كل شيء وصفا أخاذاً ، أما عنى أنا فليست ذا موهبة ، ولا شيء يتأتى من كتابتي مهما كتبت عشرات الصفحات . وإننى لأعرف هذا جيدا .

أنت تقولين يا عزيزتي إننى عطوف خير أستجيب للخير الإلهى الذى يتحقق فى الطبيعة البكر ، وتغدقين على الثناء بطرق شتى أيضا ، كل هذا صحيح يا عزيزتي ، صحيح صحة الإنجيل ! إننى بالضبط كما وصفت . إننى أعرف هذا ، أنا نفسى . ولكن قراءة ما كتبت يذيب قلب المرء ، وسرعان ما يسترجع افكارا ومشاعر حزينة .

والآن سأروى لك طرفاً عن نفسى يا صغيرتى .

عندما التحقت بعمل لأول مرة كنت فى السابعة عشرة من عمرى ،
وكان هذا منذ ثلاثين عاماً خلت ، وأجرؤ على القول بأننى مزقت كثيراً
من معاطف العمل منذ ذلك الوقت ، ولكننى قد نضجت وعقلت .

ورأيت شيئاً من أخلاق البشر أيضاً ، لقد عشتها عيشة كاملة وتيقنى
هذا ، بل لقد أتى وقت أوصوا فيه بمنجى وساماً . ربما لاتصدقين هذا ،
ولكن يشهد الله على صدقى .

ولسوء الحظ يافتاى يعيث الاشرار فسادا فى كل مكان ، ولعلنى
جهول وبجرد غبى ، ولكنى انسان ذو قلب ككل مخلوق آخر فى هذا
الوجود اتعرفين يا فارينكا ماذا فعل بي هذا الرجل الشرير ؟ — لأننى
لأخجل أن أروى لك ، ولعلك تفضلين أن تسألى : لماذا فعل ما فعل ؟
لمجرد أننى أنطوى على نفسى — لأننى هادىء — لأننى طيب القلب .
ولهذا كله لم أكن أرضى ذوقه . هذا هو السبب .

وبدأ الأمر بأشياء صغيرة « ما كار أليكسييفتش هو هذا .. ما كار
أليكسييفتش هو ذاك ، .. ثم تطورت إلى ... ماذا تنظرين ما كار
أليكسييفتش ! ! ! » ، وأخيراً .. من المألوف ؟ « إنه . ما كار
أليكسييفتش طبعاً .. » .

وهكذا ترين يا عزيزتى أنها كانت غلطة ما كار أليكس

هذا هو كل ما فعلوه : جعلوا من ماكار اليكسييفتش كلمة حاضرة على شفاههم في الوزارة كلها ، ولم يفهم هذا ، فسرعان ما تناثرت الملاحظات والتعليمات عن الأحذية التي أرتديها ، عن معطف العمل ، عن شعري ، بل عن منظري أيضاً .. كلها خطأ ويجب أن تغير . واستمر هذا سنوات متعاقبة وكل يوم تقريباً على ما أذكر !

لقد ألفت هذا الآن ، فأنا أستطيع أن ألفت أى شيء ، لأننى إنسان ضئيل ، لا وزن له ولا خطر . ولكن ومع هذا .. لماذا يجب أن أعاق هذا كله ؟ أى خطأ ارتكبت ؟ هل اغتصبت ترقية رجل آخر ورقيت أنا في غير دوري ؟ أى مخلوق ذكرته بسوء عند الرؤساء ! هل تشاحنت من أجل علاوة .. ؟ هل تأمرت على أى شخص ؟ إن الشخص ليخجل لمجرد أن يتصور مثل هذه الأمور . وما حاجتى أنا إلى كل ذلك ؟ بل تخيل يا عزيزتى .. هل رزقت من المواهب ما يكفي للطموح والخذاع ؟

ليغفر لى الله أخطائى ، ولكن ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ . أنا فى نظرك رجل محترم ، ألسنت أنا كذلك ؟ وأنت يا حبيبتي أفضل كثيرأ من الآخرين جميعاً . ثم بعد هذا كله ما أعظم الفضائل المدنية ؟ لقد قال « يفستافى إيفانوفتش » فى حديث خاص له بالأمس : إن أعظم الفضائل المدنية هى أن يكون فى متناول يد المرء مال ، ولكن من الطبيعى أن حديثه كان مزاحاً (لأننى متيقن أن يفستافى إيفانوفتش

كان يزح) ، ولكن المغزى الأخلاقى لهذا القول هو ألا يكون المرء
كلا على أحد ، ولست أنا عبثا على أحد . فعندى كسرة من خبز ، وقد
تكون عفنة ، ولكنى اكتسبتها بعرق جبينى . اكتسبتها حلالا
وأكملها حلالا .

بربك أخبرينى . ماذا على الرجل أن يفعل ؟ حقيقة ليس نسخ
الأوراق بالعمل الخطير . ولكنى مع هذا فخور به لأننى أعمل بعرق
جبينى ؟ وبعد هذا ، فأى عيب فى نسخ الأوراق أخطيئة هو ؟

« إنه يجلس هناك ينسخ ! .. » « فأر المكتب ينسخ ! » . ماذا فى
نسخ الأوراق ؟ أى عار فيه ؟ إن كتابتى جميلة أنيقة إذا نظرت إليها .
« وسعادته ، يرضى عنها دائما ، فأنا الذى ينسخ أكثر الأوراق أهمية
« لسعادته » ، أما عن الأسلوب فلا قيل لى به ! ! لست ذا أسلوب قط :
لأننى أعرف هذا جيدا . وهذا هو سبب تخلفى عن الترقية فى الخدمة ..
وحقنى عندما أكتب إليك يا عزيزتى فارنيكا فإننى أكتب كما أكتب
الآن .. دون زخرف أو شاعرية ، ولكن كما تتوارد الأفكار إلى ذهنى .
لأننى أعرف هذا جيدا . ولكن بربك أخبرينى . ماذا يحدث لو بدأ
الكل ينشئون ، من سيقوم بالنسخ ساعتها ؟ أجيلينى على هذا يا عزيزتى
هل تستطيعين ؟ إذن فأنا ضرورى ، وليكفوا عن سخريتهم بى .
وليسمونى فأر مكتب إذا ما كنت أبدو مثل الفأر ، ولكن ألا يرون
أن هذا الفأر ضرورى ؟ . وأن هذا الفأر له نفعه ؟ . فأر يجب أن يقدر -

فأريجب أن يكافأ . هذا هو أى نوع من الفئران أنا . ولكن كفانى
حديثا عن الفيران يا عزيزتى ، فما كنت أنوى ذكرها ، ولكننى فقدت
أعصابى فنسيت ، ولعله من الممتع بين وقت وآخر أن نعطي الشيطان
حقه .

إلى اللقاء يا عزيزتى ، يا عزائى الوحيد . يافتائى الوديعة .. إننى واثق
أننى سأأتى لرؤيتك قريبا يا ملاكى الصغير ، وإلى أن آتى لا تشعري
بالوحدة ، وسأحضر كتابا معى أيضا . إلى اللقاء يا فارنيكا .

المخلص الذى يتمنى لك كل خير
ما كار دوفشكين



٢٠ من يونية

عزيزى ماكار اليك سيفتش

أكتب هذا فى عجلة من أمرى كى أستطيع أن أنهى عملى فى موعده ،
ودعيني أوضح لك أن هناك فرصة لعقد صفقة طيبة ، ففيدوا تقول :
إن شخصاً ما يريد أن يبيع كسوة كاملة ببنطلونها وصدارها وغطاء
الرأس ، جديدة تماماً ورخيصة أيضاً أفلا استطعت شراءها ، وقد
اعترفت لى أنك فى حال أحسن الآن ولا تدعى أنك لا يمكنك
شراؤها . إن هذه الأشياء مهمة ومفيدة جداً . ما عليك إلا أن تنظر
إلى نفسك يا ماكار ، انظر إلى الثياب التى ترتديها . إنها رثة جداً حتى
تثير الحنجل . وليس عندك شىء جديد أبداً على أى حال وأنا واثقة من
هذا رغم ما تزعمه أن عندك ثياباً جديدة . ويعلم الله ماذا فعلت ببذلتك
الجديدة . إننى أتوسل إليك أن تتخذ قرارك . اشترها من أجل خاطرى ،
كى تثبت لى أنك تحبنى .

لقد أرسلت لى هدية بعض الكتان ، ولكنك تكاد تشرف على الإفلاس . إن الطريقة التي تنفق بها نقودك طريقة مروعة ، أى متلاف أنت ؟ الحق أن هذه الأشياء ليست ضرورية أبداً إننى أعرف بل إننى متأكدة تماماً أنك تحببى ، إذن فليس ثمة داع إلى أن تذكرنى بهداياك وخاصة عندما يكون من العسير على أن أقبّلها وأنا أعلم كم تكلفك . للمرة الأخيرة لا نفعل هذا مرة أخرى .. لأننى أرجوك . إنك لن تفعل .. أليس كذلك ؟

لقد طلبت منى ياما كار اليكسيفتش أن أرسل إليك بقية مذكراتى ، وأردتنى أن أكملها . وأصارحك الحق إننى لا أكاد أعرف كيف استطعت أن أكتب ما كتبت . فأنا لا أستطيع أن أتحدث عن الماضى أرحتى أن انكر فيه . لأننى أخشى أن أكر بىصرى إلى الوراء . وأشق من هذا على نفسى ان أتحدث عن والدتى المسكينة التى مضت وتركت ابنتها بين مخالب الوحوش الضواري . إن مجرد تذكر هذا ينسكأ جراح قلبى . وكلها جراح قريبة العهد حتى لأننى لم أسترد نفسى رغم مرور عام وأحاول جهدى أن أختلئ بها كي أستعيد هدوئى .. ولكنك تعرف كل شىء عن هذا كله .

لقد أخبرتك بما تراه أنا فيدورفنا الآن ، فهى تهمنى بالجنود ، وتنكر صراحة أن لها علاقة بتصرفات مستر بايكوف وهى

تطلب منى العودة قائلة لئننى أعيش على التبرعات وأنه ما من خير سينتج
عن هذا كله ثم تقول لئننى إذا عدت فستحمل مستر بايكوف على
تعويضى وإعطائى صدافا طيباً . فليغفر لهما الله . لئننى أسعد حالا هنا
معك ومع فيدورا الحنون التى تذكرنى بحمان مرضعتى . وأنت — رغم
بعد صلة القرابة بيننا ، فإن مجرد اسمك يحمينى . أما هم فلا أريد ان
أعرفهم . بل أرجو لو استطعت نسيانهم . ماذا يريدون منى أكثر من
هذا ؟ . تقول إن هذا كله مجردثرة ، وأنهم سيتركوننى وشائى .
الا فليستمع الله إليها .



٢١ من يونيه .

حبيلتي .. يماقنى الوديعه

لست أدري كيف أبدأ خطابي إليك فياله من أمر غريب أن
نعيش نحن هنا بهذه الطريقة . وما تمتعت في -حياتي بأيام سعيدة مثل
هذه كأن الله أنعم على بأسرة ومسكن .

حبيلتي ، يا أجمل فتاة في الوجود ، لماذا تبهرين أنفاسك العزيزة
من أجل هذه القمصان الأربعة المتواضعة التي أرسلتها إليك . لقد
أخبرتني فليدورا أنك بحاجة إليها وكان من دواعي سعادتي أن أهدى
إليك شيئاً . الأمر كله لا يعدو متعتي أنا ، منعة لي أنا وحدي : إذن
فدعيني أحظى بهذه السعادة يا حبيلتي : لماذا تؤلميني وتبج حين شعوري ؟

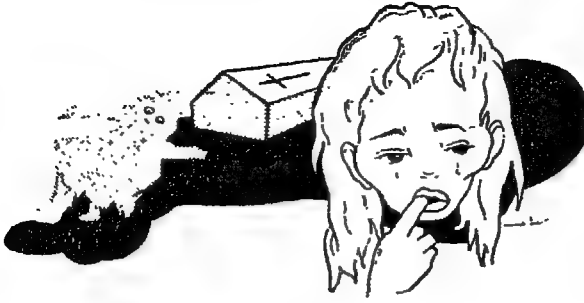
لقد أصبحت حياتي ذات قيمة يا فارنيسكا . فأنا أعيش من أجل
اثنين : من أجلك ، ومن أجل نفسي ، والشئ المهم الآخر أني سأخطو

أولى خطواتي في المجتمع : فقد دعاني جاري « راتازيف » ، هذا الموظف الذي يقيم تلك الندوات الأدبية ودعاني إلى الشاي هذا المساء حيث نعتقد اجتماعاً لقراءة الأدب .

إلى اللقاء يا عزيزتي ، لقد سطرت إليك هذا دون غرض خاص اللهم إلا أن تعرفني أنني على مايرام ، ولقد أخبرتني تريزا بحاجتك إلى بعض التحرير للتطريز . سأشتريه يا حبيبتي ، سأشتريه لك بالتأكيد غداً على الأكثر . سأحظى بمتعة تلبية رغبتك يا عزيزتي الصغيرة ، بل إنني لأعرف بالضبط أين يمكن شراؤه . . وسأظل .

صديقك المخلص

ماكاز



٢٢ من يونية

عزيزتى فارفارا...

يؤلمنى أن أخبرك بشئ يثير الشجن — حادث مفعج وقع فى منزلنا .
لقد توفى ابن جورشكوف الصغير بعد الرابعة بقليل من هذا الصباح ،
ولست أعرف ماذا سبب وفاته ، لعلها الحمى القرمزية ، أو شئ آخر
من هذا القبيل ، وكان من الطبيعى أن أذهب لمواساتهم . وبالله ! الحق
أنهم يعيشون عيشة بائسة ، وأى اضطراب يشيع فى غرفتهم ! ولا عجب .
فكلهم يعيشون فى غرفة واحدة تقسمها عدة ستائر حتى لا يחדش الحياء .
وقد أعد الكفن ، كفن بسيط ابتاعوه جاهزاً ، وكان الطفل فى التاسعة
من عمره — طفل يبشر بالخير كما يقولون .

لأنه لمن المؤلم حقاً أن ينظر المرء لإليم يافارديكا .. كانت الأم تبكى ،
ولكنها كانت حائرة ذابلة ، ولعل ما خفف من فجيعتهم فى الواقع أن
تقل عدد الأفواه التى يطعمونها طفلاً ؛ فعندهم طفلان آخران : طفل
وبنت نحيلة فى حوالى السادسة من عمرها ، لأنه من المؤلم حقاً أن يرى

المرء كيف يتعذب الأطفال وخاصة إذا كانوا أبناءه — وهو لا يستطيع أن يبذل لهم شيئا .

وكان الأب يجلس على كرسي محطم في جلباب يلمع والدموع تنساب غزيرة على وجنتيه ، ولعلها لم تكن تنساب حزنا ، ولكن بحكم العادة فحسب . ويبدو أن بعينه علة ما . غريب أمر هذا الرجل يافارنكا ، إنه في خجل دائم ، إذا خاطبه المرء . ولسانه يتعثر ويرتبك دائما . ووقفت ابنته غير بعيد عن التابوت .

كانت المسكينة شاحبة تستغرق في تفكير عميق . وإننى لأكره أن أرى طفلا يستغرقه الفسقر قبل أوانه إلى هذا الحد يافارنكا ، إنه لمؤلم حقا . . ولست أدري كيف ؟ . وكانت دميتها ترقد ممزقة على الأرض بينما وقفت هي ساكنة بلا حراك لا يحس بها أحد وإصبعها بين شفتيها ، وقد مدت إليها صاحبة دارنا قطعة من حلوى فأخذتها ، واسكنها لم تأكلها .

ان هذا هو الآسى بعينه يافارنكا . . أليس كذلك ؟ ؟

ماكار دوفشكين



٢٥ من يونية

عزيزى ماكار اليكسيفتش ..

أعيد إليك كتابك وياله من كتاب قدر يشير الإشتزاز . من أى
حفرة ياترى جئت بهذه « الجوهرة » .. ولكن دعنا من الهزل : أتحب
حقا مثل هذه الكتب ياماكار اليكسيفتش ؟ لقد وعدتني بالأمس
أن ترسل لى شيئا آخر أقرؤه . وسنشارك معا فى قراءته . والآن إلى
اللقاء ، فأمامى عمل ، وليس عندى من الوقت ما أستطيع معه أن أطيل
فى الكتابة .

ف د .



٢٦ من يونية

عزيزتى فارنيكا

أصرح لك بالحق ، لأننى لم أقرأ ذلك الكتاب يا عزيزتى إنما قرأت صفحات قلائل منه فحسب . ورأيت كما سخرافات قد كتبت لمجرد إضحاك الناس ، وثابنت أن هذا سيسايلك . وقات لنفسى : من يدري ؟ لعل و فارنيكا ، ستعجب به أيضاً . وهذا هو سر إرساله إليك .

والقد وعدنى ، راتازيف ، أن يعيرنى شيئاً يستحق القراءة حقاً . وسيكون لديك الكثير لتقرئيه يا عزيزتى . إن راتازيف ، هذا شخص عميق ، إنسان مثقف فعلاً ، بل إنه ليسكتب أيضاً . . ويا إلهى . أى جمال فى كتابته . إن له قلباً طليعاً ، ويعرف كيف يتخذ أسلوباً فى كتابته ، بل فى كل كلمة من كلماته . بل والكلمات العامة التافهة التى أستعملها أنا فى حديثى إلى فالدونى أو تريزا مثلاً ، يملؤها هو جمالاً إذا ما استعملها .

لأننى أحضر ندواته دائماً ، وبينما نجلس نحن هناك ندخن يقرأ علينا كتاباته ويمضى بنا الأمر أحياناً حتى الخامسة صباحاً .. إنها حفلة أدب .. وبالروعتها من حفلة ! . إنها زهور تنثر ، حتى ليكون فى استطاعتك أن تصنعى باقة من كل عبارة !

وهو أيضاً عطوف متزن فاضل . لأننى لا شيء إذا قورنت به ، فله شهرته — وأنا ؟ .. ليس لى يا عزيزتى شيء منها .. لأننى لا أعيش .. ومع هذا فهو يمنحنى عطفه ، بل إنه ليدعنى أنسخ له بعض الأشياء ، ولا تظنى يا عزيزتى أنها مجرد حيلة منه ، وأنه يعطف على كى يجعلنى أنسخ له بعض الأشياء ! إنها ثروة قدرة يا عزيزتى مجرد افتراء .. لأننى أفعل هذا لأننى فعلاً أريد أن أفعل هذا — أفعله من أجل لذتى أنا فحسب ، وهذا بالضبط هو سبب عطفه على — كى يمنحنى هذه اللذة . وأحسبني قادراً تماماً يا عزيزتى على أن أقدر العطف والرفقة فى المعاملة . عندما أحس بهما . إنه رجل طيب عطوف بل وكاتب مبدع أيضاً .

إن الأدب شيء عظيم يا فارنكا . شيء عظيم حقاً . هذا ما علمته منهم أول أمس . وهو شيء عميق أيضاً . وفى الكتب شيء ما يبنى ويقوى وأشياء أخرى كثيرة أيضاً ، وكله مكتوب بجمال أخاذ . إن الأدب يفتاقى صورة . أعنى صورة من نوع ما . والأدب مرآة : هو يعبر عن الانفعالات ويوجه إلينا نقداً جميلاً ويرشدنا إلى الصواب . وهو أيضاً سبيل للحياة . لقد تعلمت هذا كله منهم . وأصرح لك يا عزيزتى ، أننى

أستطيع أن أجلس هناك أصغى إليهم ، (مدخنا غليون مثل الآخرين) .
ولكن . . ما أن يبدوا المناقشة في شئ الأمور حتى أتخلف أنا عنهم
يا فارنيكا ، وهذا أكثر مما يعيه عقلى ، وطبيعى أنى أحاول أن أبدو
حكما متزنا ، ولكن الحق أننى أخجل من نفسى ، إذ أجلس هناك طيلة
المساء ككتلة من خشب ، محطما عقلى بحثا عن كلمة مناسبة ؛ ولكنى
لا أجد حتى هذه الكلمة ، بل نعف كلمة مناسبة . ويشعر المرء بالأسى
يا فارنيكا إذ يحس أنه يقل عن مستواهم ، وكما يقول المثل : « ما من
أحق مثل الأحمق العجوز » .

وماذا أفعل أنا بوقت فراغى ، لأننى أنام كلوح من خشب . . وماذا
يجب ان أفعل ؟ . يجب ان أفعل شيئا راقيا . . يجب ان أجلس لأكتب
شيئا ما : سيكون هذا مفيدا لى وللآخرين . طبيعى أن يفيد هذا
يا عزيزتى . . أتعرفين كم يكتسبون من الأدب . . ؟ خذى رانا زيف
مثلا ، وكتابة صفحة لا شئ بالنسبة له : فهو يستطيع أن يكتب أكثر
من خمس صفحات كل يوم . أتعرفين كم يكتسب ؟ . . ثلثائة روبل كما
يقول .

وإذا كان ما يكتب قصة مسلية أو شيئا ما أعجب به الناس حصل على
ما يقرب من خمسمائة . فإذا رفضوا إعطاءه هذا المبلغ طلب ألفا فى المرة
القادمة . ولا يروعه هذا يا عزيزتى فقطوعة صغيرة من الشعر - وعنده
كراسة مليئة بالقصائد - تتيح له كسبا لا يقل عن سبعة آلاف كوبك تحيل

هـذا - إنه ثمن ضيعة أو قصر . . . لأنه يقول لأنهم عرضوا عليه خمسة آلاف ثمنًا لكتابته ولكنه رفض . وكـم توسلت إليه أحاول إقناعه « أستحلفك الله يارانا زيفا أن تقبل هذه الآلاف الخمسة ، وليذهبوا هم إلى الشيطان . . إنها خمسة آلاف روبل نقداً ، ولكنه كان عنيداً ، فقال « سيعطونني سبعة آلاف . . »

أليس حاذقاً يا عزيزتى ؟ ؟

لماذا أسهب فى الحديث ؟ أليس من الأفضل أن أقتبس شيئاً من « الغراميات الإيطالية » ، وهذا هو اسم كتابه ؟ . . وعليك أن تحكى أنت بنفسك . .

« وثار فلاديمير ، فقد ارتفعت فى عروقه حدة العاطفة حتى وصلت إلى «درجة الغليان» وصرخ قائلاً :

— سيدتى الكونتيسة ، أتعرفين : أى جنون بلغته عبادتى ؟ وإلى أى مدى بلغ هذا الجنون ؟ كلا إن أحلامى لم تخدعنى - إنى أحبك بشغف وشيطنة . أحبك كرجل مجنون . إن كل الدماء التى فى جسد زوجك لم تستطع أن تطفىء لهيب قلبى المدمر الذى يحرق صدرى المكشود . . آه يازنايدا . حبيبتى زنايدا .

— فلاديمير ،

هكذا همست همسة مكتومة وهي ترتجى على صدره . وهنا هتف
«سملسكى، المدله مرة أخرى

— حبيليتى زنايدا !

«وكانت أنفاسه تنطلق فى لمشات حارة منقطعة .. وكان مصباح
الحب يحترق مضيئاً على مذبح الغرام ، فتكتوى بناره قلوب العاشقين
البائسين ..

وهمست مرة أخرى فى نشوتها.. على حين أخذ صدرها يعلو وينخفض
زوجنتها تحترقان ، وعيناها تشعان ناراً ..

— فلاديمير .

.. وهكذا ولد اتحاد جديد عجيب !

وبعد ذلك بنصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته .
وقال العجوز :

— حسنا يا حبيليتى ألا يجب أن نعد موقد الشاى ترحيباً
بضيوفنا .

وربت على وجهتها .

والآن . مارأيك في هذا يا فارنكا ؟ . لعل به شيئاً من النزق والخفقة
ولكنه جميل ، و تمتع أيضاً في الوقت نفسه . ولنحكم على الرجل بما هو
جدير به ، وإليك قطعة أخرى من قصة يرماك وزليخا . تخيلي يا عزيزتي .
أن الفاتح السيبيري المتوحش الخفيف يحب زليخا : ابنة القيصر السيبيري .
كوتشوم . وزليخا الآن أسيرته . وكما ترين هذا شيء جديد من أيام
إيفان الخفيف .

— أنت تحبيني يا زليخا . قولي مرة أخرى لأنك تحبيني .

. . أنت تحبيني يا زليخا

. وهمست زليخا

— لأنني أحبك حقاً يا يرماك

— 'لأذن بحق الأرض والسماء : لأنني أشكرك ، فلقد أسعدتني بحق
السماء والأرض ، ومنحتني كل شيء : كل شيء كانت تبحث عنه روحى .
المعذبة منذ ولدت . من أجل هذا سميت إلى هذا المكان يا نجمى المرشد
ولهذا سميت إلى ما وراء سلاسل جبال الأورال . وسيرى العالم كله
الآن حبيبتي زليخا . ولن يقف في طريق إنسان أو شيطان أو وحش
من الجحيم ، آه لو استطاع البشر أن يفهموا الغرام الخفى الذى يعمل في
قلوب الرقيق ، وأن يروا أى شعر يكمن في دماغها الصغيرة ، ألا فلتعذبني

أيها السكان الذى ليس من هذه الأرض حتى أشرب من هذه القطرات
السموية . .

وقالت زليخا

— يرماك ، إن العالم قاس ، والبشر ظالمون . سيتردوننا من بينهم ،
سيضطهدوننا يا حبيبي يرماك . وفتاه مسكينة مثلى تعيش وسط الثلوج فى
خيام أجدادها ستدبل حتما فى مجتمعك القامى ، ذلك المجتمع المشحون
بالزيف والخضوع للعرف ، والصلف والكبرياء ، لأنهم ان يفهمونى قط ،
يا منية قلبى .

وصرح يرماك وعيناه تشعان نارا : هل هذا صحيح ؟ إذ فليخى سيف
القوازيق ويصفر جذلا فوق رموسهم . .

تخيل لذن يا د فارنيكا ، شعوره عندما علم أن « زليخا » قد قتلت
بطعنة خنجر ، لقد تسلل كوتشوم الأعمى العجوز تحت جناح الظلام
إلى خيمة يرماك وطعن ابتته ، كان يعلم أنه إنما كان يسدد طعنة قاتلة إلى
الرجل الذى سلبه عرشه وصولجانه.

وصرخ يرماك فى ثورة حقهده ، وهو يشحذ سيفه على الصخر الصلب :

— لئننى لأعشق سيني وأنا أشحذه فى الصخر ، سأرتوى من دم قلبه ،
ثم أهشم الشقى ، وأمزقه لأربا لأربا .

وحينئذ لم يستطع «يرماك» أن يتحمل مصيبة فقدته زليخا .. «ألقى بنفسه في نهر إرتش ... وانتهت القصة» .

وليك قطعة أخرى كتبها بطريقة «هزلية» لمجرد إضحاك الناس :

هل تعرف إيفان بروكوفيتش زلتوموز؟ . إنه الرجل الذي عض بروكوفى إيفانوفيتش فى ساقه . إن إيفان بروكوفيتش شخصية متزنة ولكن له مزاياه النادرة على حين أنه على العكس من هذا يغرم بروكوفى إيفانوفيتش باللفت والعسل ، وعندما كانت بيلاجيا أنتونوفنا صديقه ... هل تعرف بيلاجيا أنتونوفنا ؟ إنها المرأة التى ترتدى ملابسها الداخلية فوق ملابسها الخارجية دائماً ..

أى سخرية يا فارتكا ؟ وأى فكاهة فذة ؟ .. لقد ضحكنا حتى كدنا نقضى من الضحك عندما قرأها علينا بصوت عال . فأى نوع من الرجال هو ، ليسامحه الله . لعلها خيالية إلى حد ما ، وبها كثير من النزق ، ولكنها بريئة كلها ، وليس بها شيء من الفكر الحر أو المثل الراديكالية . وأشعر أنه من واجبى يافارنيكا أن أقول إن رمانزيف رجل متين الخلق ، ومع هذا فهو كاتب ممتاز — وهذا أكثر مما يمكن أن يقال عن معظم الكتاب .

ولكن أى أفكار تافهة تطرأ للمرء أحياناً ، ماذا لو كتبت أنا أى شيء ؟ تخيل أنك رأيت فجأة كتاباً عنوانه « أشعار ، بقلم ماكار دوفشكين » .

« ماذا ستقولين ساعتها يا ملاكي الصغير ؟ .. » ، ماذا يكون شعورك ؟ .
أما عنى يا حبيبتي فلن أجزؤ على أنظها نفسى فى ضاحية « نفسكى » أبدا .
كيف يكون إحساسى عندما أشعر أن كل شخص ينظر إلى قائلا : إليكم
دوفشكين . . الشاعر والأديب . . دوفشكين بلحمه ودمه ؟ . . وماذا
أفعل بأحدثى ساعتها ؟

وبهذه المناسبة أحب أن أذكر أنها دائماً مرقعة . وأن نعالها تصفق
أحياناً بطريقة تثير الخجل . وأنى فظاعة لو رأى الجميع أن دوفشكين
الشاعر والأديب يمشى فى أحذية بالية مرقعة ؟ . وماذا ستقول السكونتيسة
الدوقة لو رأتى ؟ لا أظن أنها ستلاحظ هذا : فالحق أن السكونتيسة
لا تعنى أبداً بالنعال وخاصة نعال كاتب حكومى . [فالدنيا ممتلئة بالنعال]
ولكن أصدقائى سيتخللون عنى ، وسيكون أولهم راتازيف ، وهو كثير
ما يزور السكونتيسة « ب » . — كل يوم تقريباً كما يقول . وهم يستقبلونه
كصديق قديم ويرفعون الكلفة معه . إنه يقول : إنها امرأة رائعة . .
أديبة لحماً ودماً . أى مخلوق رائع راتازيف هذا .

ولكن دعينا من هذا كله ، لقد كنت أكتب لمجرد لذة الكتابة ،
ولكى أسليك . إلى اللقاء يا عزيزتى لقد كتبت قدراً كبيراً من الغو
الفارغ ، وهذا يرجع إلى انشراح صدرى اليوم فقد تناولت الغذاء مع
راتازيف ، وشربو الخمر جميعاً ويالهم من شياطين ، وما كان يجب أن

أذكر ذلك ولكن لاتتخيلي أى شر من ناحيتي فالأمر كله لا يعدو الحديث . سأرسل إليك الكتب ، سأرسلها إليك بالتأكيد ، هناك كتاب بقلم « بول دى كوك » يتخاطفه الجميع فى المنزل الآن ، ولكن ليس هذا بالكتاب الذى يناسبك قراءته يا عزيزتى ، لا يناسبك بأية حال ، مثل هذه الصفحات لاتناسبك . ويقال إن هذا الكتاب قد أثار سخط كل نقاد بطرسبرج .

أبعث إليك برطل من الحلوى اشتريته خصيصاً لك . تمتع بها يا حبيبتي ، واذكرينى كلما تناولت إحداها ، يجب أن تمتصى الفاكهة ولا تقضميها يا عزيزتى والا أفسدت أسنانك . هل تحبين الفواكه المجففة . لاكتبى إلى إذا كنت تحبينها . وداعاً يا فارنيكا . وليكن المسيح معك . يا عزيزتى الصغيرة.. وسأظل .

أخلص الأصدقاء
ماكار



٢٧ من يونيه

عزيزى ماكار ..

.. تؤكد لي فيديورا أن هناك من يبغى مساعدتي ، بأن يهيء لي وظيفة لا بأس بها كمرتبة أطفال . هل أوافق أو لا ؟ بماذا تنصح ؟ . لو وافقت فلن أكون عبثا عليك بعد ؛ والوظيفة مجزية أيضا . ومن ناحية أخرى فإن فكرة دخول منزل غريب ترعبني . لأنهم ملاك أرض وسيسألون عن ماضى . فبماذا أخبرهم ؟ أضف إلى هذا ما تعرفه عنى من نفور ، فأنا أخشى الناس . ولقد ألفت الأماكن التي عشت فيها طويلا وأحس بالسعادة فيها حتى لو كانت الحياة فيها قاسية ، وهذه الوظيفة في مكان قصي ، ولا يدري أحد ماذا ستكون مهمتى .

لعلنى ساعنى بالأطفال ، ويبدو أنه من العسير معاملتهم ، فلقد تبدلت

عليهم مريبتان في عامين . أرجو أن تبعث إلى بنصحك يا مكار
أليكسفس . هل أذهب أو لا . . . ؟ . ولماذا لا تزورنا ؛ إنا لا نراك
كثيرا في هذه الأيام . . اللهم إلا في أيام الآحاد وفي الكنيسة فحسب .
أنت أيضا تنفر من الناس مثلي تماما ، ولكن تذكر أنني من ذوى قرابتك .
أو هل لا يبدو الأمر كله إلا أنك تحبني ، وأنا وحيدة حزينة ،
وعندما يأتي المساء أجلس وحيدة مع نفسي إذا ما خرجت فيدورا
لقضاء أية حاجة — وأجلس أنا أفكر وأفكر وأتذكر الأيام الخوالي
كل ما كان حزينا وكل ما كان ممتعا كلها تمضي أمام عيني ثم أسترجع كل
الوجوه التي أحببت وألفت مرة أخرى (حتى لا كاد أراها رأى العين ،
ويراودني خيال أي أكثر من الآخرين ، ثم أي رؤى وأحلام تراودني ؟
أحسن أن صحتي تتدهور ، فأنا ضعيفة جدا ، وعندما استيقظت هذا
الصباح أصابني الإغماء . ولقد تملكني سعال خبيث لفترة ما ، إنني
لأعتقد أن أجلى قريب ، ولكن من يعنيه هذا ؟ من سيدرف دمعة من
أجلى ؟ ومن سيشتيع جثمانى إلى مقره الأخير ؟ بل لعله كتب على أن
أموت في منزل غريب . وفي مكان غريب ! . يا إلهي . . كم هي حزينة
هذه الحياة !

بربك لماذا تغذي بالحلوى طوال الوقت يا مكار ؟ ألحق أنني
لا أستطيع أن أتخيل مصدر هذه النقود أفلا تقتصد نقودك يا صديق
العزب ؟ .

فيدورا تبيع قطعة من قماش طرزتها أنا، وهم يعرضون خمسين روبلا
ثمنا لها وهو ثمن معقول ، لم أكن لأتوقعه . سأعطي فيدورا ثلاثة
روبلات ، ثم أخيط فستاناً لنفسى : فستاناً بسيطاً ، ولكنه سيدفئنى ،
وسأعمل صدارا لك سأفصله لك بنفسى ومن قماش جيد أيضا .

واقداً حضرت فيدورا كتاباً حكايات إيفان بلكين^(١) ، وهأنذا
أبعث به إليك لتقرأه إذا أردت ، ولكن أرجوك ألا تهمله فيتسخ ،
ولا تحتفظ به طويلاً فهو ليس كتابى . . وقد قرأت هذه القصص
أنا وأبى معاً منذ سنتين ، وأحزننى الآن أن أقرأها وحدى : إذا كان
عندك أى كتب فأرجو أن ترسلها إلى — اللهم إلا إذا كانت من عند
رائزيف . ومن المؤكد أنه سيهدى إليك مؤلفاته عندما تطبع ، ولكن
هذا لن يحدث . ربك كيف تعجب بها يا ماكار أليكسييفتش ؟ . إنها
لا تعدو مجرد تغافات .

والآن وداعاً ، لقد أفضت كثيراً ، ولكننى أحب أن أثرأحياناً عندما
أكون حزينة . إن الثرثرة كالدوام ، لأننى أخفف من هموم عقلى بهذه
الطريقة وداعاً يا صديق . . . وداعاً

المخلصة

ف . د

(١) مجموعته قدس بقلم بوشكين كبت فى عام ١٨٣٠ .



٢٨ من يونيو

فارفارا أليكسييفنا .. يا ياماتي

ألا تخجلين من استسلامك لمثل هذا اليأس ؟ — وكيف يمكن —
يا ملاكي — أن تراودك مثل هذه الأفكار ؟ إنك لست مريضة على الإطلاق يا حبي ، لست مريضة على الإطلاق فأنت تزدهرين .. تزدهرين .
فحسب ، هذا كل مافي الأمر . ولعلك شاحبة قليلا ، ولكنك تزدهرين .
رغم ذلك . وأى أحلام ورؤى تلك التي تحلمين ؟ يجب أن تخجلي .
يا حبيبتي الصغيرة . إنك تستطيعين أن تطردوها جميعاً بإشارة من أصابعك . وكيف أنام أنا نوما عميقا ؟ — أو تظنين ذلك لأنه لايزعجني شيء ؟ لماذا إذن لا تتمثلين بي ؟ لأنني أنام كلوح من خشب ،
وفي أتم صحة وقوة حتى لسكانني شاب صغير إنني فعلا كذلك .

دعيك من هذا كله إذن بافارنكا ، متالكى أعصابك . (إننى أعرف ..

ماذا يدور في رأسك الصغير . فأى تفاهة تثير فيك الأحلام والقلق . ألا تكفين عن ذلك من أجلى ؟ أما عن وظيفة المربية هذه فلا تقبلها أبداً . . . كلا ، ثم كلا ، بربك كيف يمكنك أن تفسكرى مثل هذا التفكير ! والمكان قصى أيضا . كلا يا عزيزتى . إن أوافق على هذا . وأعارض الفكرة بكل قوتي .

إننى لأفضل أن أبيع معطفي القديم أولا وأمشى فى ملابسى الداخلية ولا أدعك تقاسين أبدا من الحاجة . كلا يا فانيكا . ليس هذا ما يناسبك : إنها حماقة لا أكثر . وأنا واثق أن فيدورا هى الملوحة فى هذا كله ، فهذه المرأة الحماقة هى التى أدخلت هذه الفكرة فى رأسك ، فلا تستمعى إليها يا عزيزتى ، ولعلها ترمى إلى أغراض لا تعرفينها ، وهى حماقة تغيظنى ثرثرتها ، ولقد ظلت تعسكر حياة المرحوم زوجها حتى أدت به إلى الموت لعلها أغضبتك ، ولكن حتى لو حدث هذا فكلّا ثم كلا يا عزيزتى ، فلا تقبل هذه الوظيفة من أجل أى شىء فى العالم .

وماذا سأفعل أنا ؟ وأى شىء سيقبلى ؟ كلا يا عزيزتى فانيكا . اطردى هذا الموضوع كله من عقلك . وبعد هذا كله ماذا ينقصك هنا ؟ وأى متعة تمنحنيها — أنا وفيدورا وأنت مغرمة بنا أيضا . لماذا إذن لا نعيش معهن مريحة كما نعيش نحن ؟ تستطيعين أن تقرئى أو تحوى . الملابس أو مجرد أن تقرئى ولا تحوى — فقط لا تتبعدى عنا أبدا ، فذهابك

بعيداً لن يأتي بخير . سأتى بالكتب التى تطلبين . . . وسقوم بنزهاتنا مرة أخرى ، ولكن تعقلى ولا تفكرى أبداً فى مثل هذه الخماقات وسأتى لزيارتك سريعاً .

اغفرى لى إذ أصرح لك بالقول — ولكنى لا أملك إلا أن أصرح لك : إن ما قلته عارياً عزيزتى — عار مشين . طبيعى أنى لست بالرجل المثقف ، والتعليم الذى حظيت به لا يساوى كوبكاً كما يقول المثل ، ولكنى لا أريد أن أتحدث عن نفسى بل عن « راتازيف » . — اغفرى لى يا عزيزتى ، ولكن يجب أن أتشفع من أجله ، فهو صديق ومن واجبى أن أفعل هذا . إنه يحسن الكتابة حقاً بل الواقع أن كتاباته ليست رديئة على الإطلاق ، ولا أستطيع أن أوافقك على الرأى فى هذا — لأننى بصراحة لا أستطيع ، فهو يكتب بطريقة مبدعة كلها قوة ، وبأسلوب حديث لطيف ، وفى كتابته كل أنواع الأفكار أيضاً . ولعلك قرأتها وأنت فى غير استعداد لتقبل ما يكتب يا فارتكا . ولعلك كنت منحرفة المزاج — لعلك كنت غضبى مع فيدورا أو ضايقتك شىء ما . أقرئها مرة أخرى يا فارتكا وأنت فى حالة هادئة وبندلى لها عناية أكثر — أقرئها عند ما تكونى مريحة راضية معتدلة المزاج ، وفى فلك مثلاً قطعة من الحلوى .

وينبغى أن أعترف طبعاً أن هناك كتاباً أفضل من راتازيف : ولعلمهم أفضل منه بكثير ، كتاباً لا بأس بهم ، ولكن راتازيف كاتب لا بأس

ه أيضاً . إن كتاباتهم جيدة ولكن كتاباته ليست رديئة كذلك ، وهو يكتب بطريقة الخاصة ، يكتب ما يريد وما يرضيه .

وداعاً يا حبيبتي — فلا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا فأنا مشغول اليوم . ولكن تذكرى يا ظأثرى الصغير ألا تضايقي نفسك مرة أخرى بأفكار كثيرة ، وليكن الله معك وسأظل أنا . .

صديقك المخلص

ماكار

ملاحظة : أشكرك كثيراً على الكتاب الذى أرسلته يا عزيزتى — سأقرأ مؤلفات بوشكين أنا أيضاً سأتى لزيارتك حينما يقبل المساء . .



١ من يولية

صديق العزيز ما كار اليكسييفتش

.. الحق اننى أعتقد أنه لا حياة لى هنا بينكم .! وقد وجدت بعد روية أنه من الخطأ أن أرفض مثل هذا العرض السخى الذى أتىح لى ، فعلى الأقل سأتكسب قوت يومى ، وسأبذل جهدى حتى أصبح جديرة بعطف أسرة غريبة ، بل لئننى سأحاول أن أغير من شخصيتى لو اقتضى الأمر . وطبيعى أنه من العسير طبعها على نفسى أن أعيش وسط غرباء ، وأن أحاول لإرضاءهم وألا تكون لى حياتى الخاصة ، ولكن ربما أعاننى الله على ذلك .

ولست أَرْضى أن أظل مخلوقا نافرا خجولا طيلة حياتى ، ولقد حدثت لى مثل هذه الأشياء من قبل ، وما نسيت بعد أيامى فى المدرسة الداخلية ولا زلت أذكر أيام الآحاد عند ما كنت أتمادى فى شقاروقى فى المنزل ، وإذا ما غنفتى اى لم يتألم قلبي قط ، ولكن إذا ما أقبل المساء ،

أقبل معه الأسى إذ أذكر أن على أن أذهب إلى المدرسة في التاسعة — المدرسة حيث كل شيء غريب بارد صارم ، والمدرسات عابسات الوجوه أيام الاثنين ثم يغلبني البكاء ، فأنتجى ركنا أبكى فيه خلصة لثلاثا يقل عني إلى فتاة كسول ، وما كانت الدروس هي التي تشير بكائي . . . ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ مع الزمن ألفت المدرسة أيضا حتى بت أبكى إذا كان على أن أترك أصدقائي وأفارقهم .

وأحسب أنه ليس من العدل كذلك أن أكون عبثاً عليك وعلى فيديورا ، إن البكاء كبير في هذا يعذبني . وأنا أكتب إليك بصراحة ، لأنني تعودت على هذه الصراحة معك ألا أرى كيف تستيقظ فيدور مع ظلام الفجر كي تبدأ غسيلها طيلة النهار على حين تحتاج عظامها العجوز الراحة كما علم ؟ ألا أرى أنك تنفق ماتملاك على ، حتى آخر كوكبك معك مع ضالة مرتبك أيها الصديق ؟

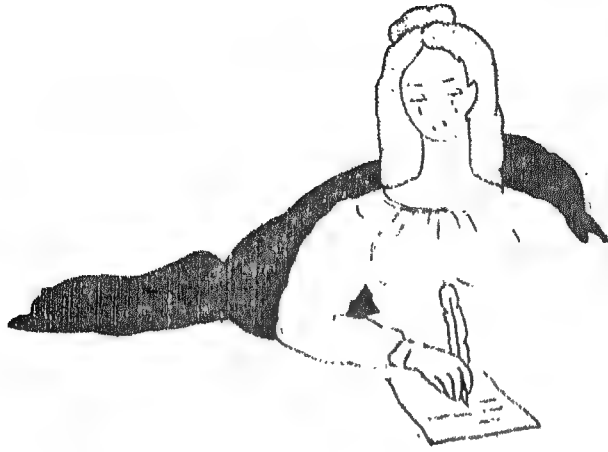
لقد كتبت إلى تقول : إنك مستعد أن تخلع معطعك وتبيعه كي تقين شر الحاجة ، وإن لأصدقك يا عزيزي . إنني لأصدق قلبك العطوف ، وهذا هو ما تقوله الآن إذ يذاعبك أمل هذه العسلاوة التي تنتظرها ، ولكن ماذا فيما بعد ، وأنت تعلم أنني مريضة على الدوام لانفرغ لي حاجة إلى دواء أو كساء ، وليست بي طاقة على العمل المستمر كما تفعل أنت ، وإن كان ذلك يسعدني ؟ وحتى لو استطعت فليس هناك عمل كاف دائما إذن ماذا بقي لي ؟ . أن أحضر هباء وأنا (٨٢ — الساكن)

أرقيكم أيها المساكين ؟ وكيف يتأتى أن أكون أقل فائدة لآي منكما ؟
إننى أتعاق بكم من كل قلبى . وأنتم أعزاء جدا لى نفسى ، ولكن هذا
ما كتب على ، أستطيع أن أحب ، ولكنى لأستطيع أن أحول حبي
إلى خير ، فأكافئكم على عطفكم ، فلا تسبقونى أكثر من هذا — أفلا
تفكر فى هذا كله وتخبرنى برأيك النهائى .

وفى انتظار ردك سأظل .

المحاصة

ف . د



١ من يولية

أى أو هام وأى خرافات يافار تكا هذه التي تكتبين ! أنت لا تكادين
تفردين بنفسك - حتى تقبل كل أمر اختراعات إلى رأسك الصغير ، فإذا
بك لا تحبين هذا ولا تحبين ذاك : ويبدو لك كل شيء مقلوبا رأسا على
عقب ولديني أسعد فأقول لك : إن هذه كلها أو هام وخيالات . هلا
أخبرتني ماذا تحتاجين بالذات ؟ ما ينقصك بالضبط ؟ إن
كلينا متعلق بالآخر . ونلينا فافع وسعيد ، ماذا يمكن أن نشد أكثر
من هذا ؟ وماذا يمكن أن نجد بين الغريباء ، - أنت تجهلين الغريباء
يا عزيزتي ! وكان أحري بك أن تسأليني كيف يكونون . إنني أعرف من
هم أعرف هذا جيدا ، فلقد ذفنت خبزهم . لهم أشرار يافار تكا هو خبزهم
أكثر مما تشده له طميدناك ، وسيد فقصون حياتك بمسارات التائب
وبالنظرات الحبيشة غدا حين أنك نعيشين معنا هنا في دفء وحنان ناعمة

البال كطائر صغير في عشه ، فإذا طرت بعيدا فإذا استفعل نحن المساكين .
وقد سلبنا قلوبنا ؟ — ماذا أستطيع أنا العجوز أن أفعل وأنت تقولين .
لأنه لا نفع فيك لنا ؟ فكيف يمكن أن يكون هذا ؟ . لست عديمة النفع
على الإطلاق . . فكرى جيدا ترى هذا فأول شيء أن لك تأميرا خيرا
علينا . . خذى مثلالذلك أننى أفكر فيك الآن وهذا يسعدنى جدا . وأحيانا
أضع كل مشاعرى فى الخطابات التى أكتبها إليك ثم أنتظر ردا مفصلا
أستطيع أيضا أن أشتري لك أشياء لطيفة تريدونها ، بل لقد اشتريت لك
قبة . . أو هل هناك أشياء تريد منى أن أفعلها ؟ وماذا يجب أن أفعل .
— أنا العجوز الوحيد ؟ . ماذا أصلح له ؟ لعلك لم تفكرى فى هذا
وكان من الواجب أن تفكرى فيه .

أنظرى إلى الموضوع من هذه الزاوية : كيف تكون حال العجوز
بدونك ؟ لقد تعودت أن تكونى قريبة منى . وإذا ماضيت أثبت فليس .
أمامى سوى شيء واحد أفعله أمضى إلى نهر النيفا وأضع حدا لكل شيء .
وإلا فأى شيء أمامى سوى ذلك .

آه يا فارنكا . . يا حبيبتي فارنكا : يبدو كأنك تحبين أن أوضع على عربة
وأمضى وحيدا إلى مقابر نولكوفو حيث لا يكون لى من خليل سوى
شحاذ عجوز ، يرقبهم وهم يهيلون التراب على قبرى . ثم يمضون بعد أن
يتركونى هناك نسيا منسيا . إنها لخطيئة يا عزيزتى — خطيئة كبيرة أن
يتمنى المرء مثل هذه الأشياء .

إننى أعيد إليك كتابك يافارتكا ، وإن شئت أن تعرفى رأى يا صديقتى .
الصغيرة فأليك هو : إننى لم أقرأ فى حياى قط كتابا أفضل منه . وإننى
أظل أسأل نفسى يا عزيزتى : كيف استطعت أن أظل جلفا فظا خشنا
هكذا .. ؟ ليغفر لى الله .. ماذا كنت أفعل بنفسى ؟ من أى غابات
أقبلت ؟ الحق أننى لست أعرف شيئا يا عزيزتى ، لست أعرف شيئا على
الإطلاق ، إننى رجل جاهل يافارتكا ؛ فما قرأت إلا القليل . القليل جدا .
يكاد يكون لاشئ سوى كتب ثلاثة هى كل ما قرأت ، وقد قرأت الآن
ناظر المحطة ^(١) فى كتابك الذى أرسلته لى . وهكذا ترين يا حبيبتى فارتكا
أن الأمر قد يصل لى أن يعيش المرء فترة طويلة من عمره وهو لا يدرى
أبدا أن فى تناول يده كتابا يروى قصة حياته كاملة وببساطة كأنها أغنية .
وما كان غامضا من قبل يصبح واضحا كلما مضى الإنسان فى القراءة ، ثم
يتذكر المرء أشياء ، ويفهم أشياء .. ويدرك أشياء .

شيء آخر أحببته فى الكتاب . ذلك أن الكتب الأخرى كثيرا
ما تكون عالية المستوى حتى إننى أقرأ وأقرأ ولا أستطيع أن أفهم شيئا
فيها يتصل بحياتى أنا ، وأنا بطيء الفهم بطبعى لا تناسبنى الكتب الممتازة .
جدا ، ولكن عندما تقرأين هذا الكتاب تحسبن كأنما قد كتبه بنفسك .

(١) إحدى قصص بوشكين فى كتابه (حكايات إيفان بلكين)

ولو شئنا الإيضاح لقلنا كما لو كان قطعة من قلبي أنا — مهما كانت هذه القطعة — وهى أمام الجميع ليقروها فأى كتاب هو ؟

الحق أنه واضح وبسيط ، حتى لا يستطيع أن يكتبه أنا بنفسى . ولم لا ؟ إننى لأحس بالأمور كما هو مكتوبة فى الكتاب بالضبط . ألم أمر بنفسى بالتجربة التى مر بها سامسون فيرين ^(١) المسكين ؟ وأى عدد كبير من المساكين من أمثال فيرين يعيشون بيننا ؟ ألم يصف هو كل شيء بإبداع ؟ لقد كدت أبكى يا عزيزتى وأنا أقرأ كيف أدمن الخمر ، وكيف كان يشربها حتى يفقد وعيه ثم يرقد نائما طيلة اليوم على جلد ما عز ، أو يجلس يسمح الدموع بطرف كم معتطفه القدر وهو يفكر فى انبته الضالة المسكينة هذه هى الحياة !

أقرئ هذا الكتاب مرة أخرى يا فارنيكا ، فهو شيء حى لقد رأيت هذا بنفسى وكل ما فيه ألمسه حولى خذى مثلاً فيرينا أو كاتلينا المسكين ، أليس هو سامسون فيرين آخر وإن يكن اسمه جور شكوف ؟ كلنا نعيش هكذا ، وقد يحدث هذا الشيء نفسه لأنى شخص منا قد يحدث هذا حتى لهذا الكونت الذى يعيش على « النفسكى » ، وإن بدا هذا غريباً نظراً لعلو مراكزهم ، ولكن علو المركز هذا لن يغير من الأمر شيئاً . نعم أى شيء قد يحدث بل لعله قد يحدث لى أنا . أترين كيف تمضى الحياة

(١) إحدى شخصيات قصة ناظر الحيلة ..

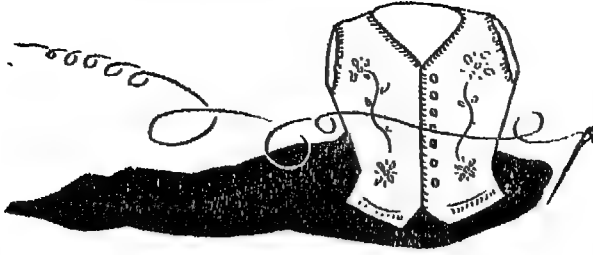
يا عزيزتى . . إذن كيف تفكرين في هجرنا ؟ . لعل رذيلة فيرين تتملكنى
أنا أيضا ثم يتحطم كل منا ، إذن أستحطك بالله يا عزيزتى أن تطردى
هذه الأفكار الشريرة من عقلك ولا تعذبينى أكثر من هذا !

كيف يمكنك عندئذ أن توفرى لنفسك الغذاء أو أن تحمى نفسك من
أذى الأشرار يا فرخى الصغير المسكين ؟ بربك يا فارنكا لا تلقى بالأسل
نصيحة فى غير موضعها . وستفعلين خيرا لو قرأت كتابك مرة أخرى
وبمزيد من العناية وسيفيدك هذا كثيرا .

لقد أخبرت « راتا زيف » عن « ناظر المحطة » ، وهو يصبر على
أنها قصة من طراز قديم ، وأن كل الكتب الجيدة فى هذه الأيام بها
صور وإيضاحات متعددة ، ولم أستطع أن أفهمه جيدا . لقد سلم معى
بان بوشكين كاتب ممتاز ، وأنه أضاف شيئا ما إلى مجد روسيا ، وقال
شيئا كثيرا فى هذا المجال ، لكن الحق يا فارنكا أنه كتاب جيد . كتاب
جيد جدا ويجب أن تعيدى قراءته وبمزيد من العناية اعلمى بنصيحتى
وأسعدى رجلا عجوزا بما تبدين له من طاعة ، وسيجزيك الله خيرا
يا حبيبتى . إنه سيجزيك بكل تأكيد

صديقك المخلص

منكار .



٦ من يولية

عزيزى ماكار

« اليوم أحضرت لى فيدورا خمسة عشر روبلا من الفضة ، وفرحت المسكينة عندما أعطيتها ثلاثة روبلات . لأننى أكتب هذا فى عجلة من أمرى : فأنا أقص نموذجاً (بترونا) لصدار لك من نسيج فاخر : أصفر مزين بالزهور . أرسل إليك كتاباً آخر عبارة عن مجموعة من القصص ولقد قرأت بعضها . فاقرأ القصة التى عنوانها المعطف ^(١) »

وأنت ترغمنى على قبول دعوتك إلى المسرح ، أليس هذا بدخاً ؛ إذا كان لابد من ذهابنا فلتشتري التذاكر فى أعلى التياترو ، وأنا لم أذهب إلى المسرح منذ فترة طويلة حتى لأننى لا أستطيع أن أتذكر متى ذهبت آخر مرة . ولكنى أعود فأكرر : ألا يكلفك هذا كثيراً ، إن فيدور دائمة على مز رأسها وهى تقول ، إنك تنفق أكثر من دخلك ، وإنى

(١) قصة بقلم جوجول كتبها فى عام ١٨٤٢ .

لأشاركها في الرأي فما أكثر ما أنفقت على أنا وحدى ، وأخشى أن يصيبك شيء ما إذا ما مضيت على هذا المنوال ، ولقد نقلت فيدورا إلى ما تناهى إلى سمعها عن مشاحناتك مع صاحبة الدار حول إيجار غرفتك ، فأقلقنى هذا يا ما كار اليكسييتش .

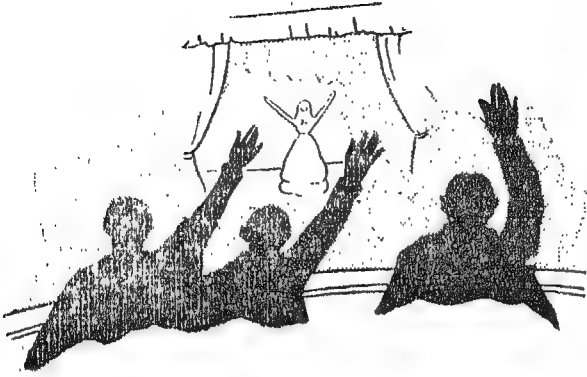
وداعاً . إننى متعجلة الآن ، فأماى أمر صغير يجب أن أعنى به :
يجب أن أغير شريط قبعتى . . .

ف . د

ملاحظة :

إذا ما ذهبنا إلى المسرح فسأضع قبعتى الجديدة وشالى التل.
الأسود .

سيكون هذا لطيفاً أليس كذلك ؟



٧ من يولية

أعز أعرأى فافار ألى كسبفنا

لكى أصل ما انقطع من حديثنا بالأمس دعنى أضيف يا حبيبتى ،
أننى كنت أنا أيضا ذات يوم شاباً طائشاً هائماً بممثلة ، ولم يكن هذا :
بأغرب شىء فالغريب هو أننى لم أشاهد هذه الممثلة سوى مرة واحدة ،
وعلى خشبة المسرح ، ومع هذا كنت غارقاً حتى أذنى فى هواها .

وكان جيرانى فى ذلك الوقت نصف دسته من الشباب الطائش ،
وتوطدت صداقتى بهم على كره منى ، ولأن تباعدت بلباقة عن مشاركتهم
فى مغامراتهم ، واسكنى ظلمت على ودى بهم مراعاة للجيرة فحسب ، وكىم
من أمور حدثونى بها عن هذه الممثلة ! فى كل مساء ، وكلما كان لها حفل ،
حجزت عصبتهم بقضئها وقضئها المقاعد فى أعلى الشرفة ، فلم يمكن كل
ما معهم يزيد على كوبك يواجهون به نفقات الحياة العادية . ثم يجلسون

هناك ، ويصفقون ويهتفون لها قبل أن تنزل الستار مرة بعد أخرى ،
وهم يصيحون كالجانين ، فإذا عادوا إلى المنزل لم يخطر ببالهم شيء اسمه
النوم ، بل جلسوا يتحدثون عن حبيبتهم ، جلاشا ، طيلة الليل . . . كان
كلهم متم في حبها ، كلهم كرجل واحد ، كانت العصفور الجميلة تغرد في
كل قلب .

وانتهى بهم الأمر أن شغفوني بها حبا ولم أكن سوى شاب عاجز
لا حيلة لي وقبل أن أدري وجدت نفسي في أعلى الشرفة مع الآخرين .
وحينما جلست لم أكن أرى غير جزء من المسرح فحسب ، ولكن لم
يفت أذني شاردة أو واردة .

والحق أن العصفورة كانت حلوة الصوت : تغريد يتعالى عذبا كأنه بلبل
يغنى وكنا نصرخ حتى يمت أصواتنا ، وعنفقة حتى التهمت أكفنا ، واجتذبتنا
أنظار الجميع حتى طرد أحدنا فعلا . وعدت إلى منزلي وأنا في شبه حلم
وفي جيبي روبل واحد هو كل ما أملك حتى أقبض مرتب الشهر القادم .
بعد عشرة أيام ! وماذا تظنيني فعلت بعد ذلك يا عزيزتي ؟ في اليوم
التالي مباشرة ، وقبل إنتهاء موعد المكتب ، أنفقت بقية نقودي في
شراء عطر وصابون معطر لها من عند الحلاق الفرنسي ، أما لماذا
اشتريتها فهذا ما أعجب منه حتى اليوم ؟

وأضيت يومي ذاك دون غذاء ، ولكنني استنفدت وقتي واقفا تحت

نافذتها ، وكانت تعيش في الشارع الثالث في « نفسكي » ، وما أن انتهت من عملي حتى هجعت ساعة في منزلي ثم عدت أحوم تحت نافذتها في نفسكي . وداومت على هذه الحال شهرا ونصف الشهر ، وقد أكرت عربة عند منعطف الطريق ، أمضى بها مسرعة تحت نافذتها وأنا في أوج أبيتي . وكان من الطبيعي أن تثقلني الديون ، ولكن عاطفتي خمدت آخر الأمر وسئمت الموضوع كله .

يا عزيزتي هذا هو المستوى الذي يمكن أن يهبط إليه الرجل الشريف إذا هام بمثلة

ولكني كنت شابا نرقا في تلك الأيام ..



٨ يولية

عزيزتى فارفارا

أسارع بإعادة الكتاب الذى تلقيته منك فى السادس من هذا الشهر،
وفى الوقت نفسه أنتز هذه الفرصة للتعبير عن رأي

ألم تكن قسوة منك يا عزيزتى أن تبعثى إلى بكتاب مثل هذا . لقد
وضع الله القدير كل رجل فى موضعه الذى يستحقه من الحياة ، فالبعض
قد قدر لهم أن يضعوا شارة الجنرال ، والبعض قدر لهم أن يخدموا
ككاتب أسرار . والبعض يأمر والآخر يطيع ويخاف ولا يملك الشكوى .
كل هذا قد نظم وفقا لقدرة كل إنسان البعض يصلح لشيء ما ، والبعض
الآخر لشيء آخر . وهذا ما قدره الله نفسه . ولقد عملت فى وظيفتى منذ
ثلاثين عاما خلت حتى الآن وخلصت خدمتى حتى الآن أيضا من المثالب ،
وكان سلوكى مستقيما ولم يوبخنى أحد قط لإخلالى بالنظام يوما
أما باعتبارى مواطنا فإننى أرى نفسى - وأنا أعنى جيدا ما أقول - رجلا

له نقائصه ولكن له فضائله أيضا . (ورؤسائي) يحترمونني حتى « سعادته » ، راض عني وأنا أعلم أنه راض عني حتى لو لم يظهر علامات تقدير خاصة لي حتى الآن .

ولقد عشت حتى وخط الشيب رأسي دون أن اقترف خطأ يا خطيرة تثقل ضميري . أما عن العثرات الصغيرة فن ذا الذي يبرأ منها ؟ فكل شخص يتعثر يوماً في أشياء صغيرة — حتى أنت يا حبيبتي . ولكني لم أتهم قط بجرمة أو بما يشين ، أو خرجت يوماً على القانون أو كدرت صفو السلام كلاً لم يحدث هذا قط . بل لقد أتى وقت رشحت فيه لنيل وسام ولكن لماذا أذكر هذا كله وكان الأجدر بك أن تعرفيه منذ وقت طويل ، وكان يجب عليه أيضا — ذلك المؤلف — أن يعرف هذا أيضا ؟ . فإذا ما قرر إنسان أن يصف كل شيء كان عليه أيضاً أن يعرف كل شيء . إنني لم أتوقع شيئاً ما مثل هذا منك يا عزيزتي ، منك أنت بالذات دون البشر أجمعين .

أيعني هذا أن المرء لا يستطيع أن يعيش في سلام ، في ركنه الصغير ، كما يحب أن يعيش ، وكما تعود أن يعيش في هدوء : يخشى الله ولا يغضب مخلوقاً ، ومن حقه أن ينتظر أن يدعه الآخرون وشأنه ، وأن يهتموا بشئونهم ولا يتدخلوا في شؤونه أبداً :

أي حق لهم أن يتجسسوا على شئون المرء الخاصة ؟ . ماذا يعينهم

إذا كان عند المرء صداراً جيداً أولاً ، إذا كان يملك ملابس داخلية / أو لا يملك ، إذا كان عنده زوج من الأحذية أو ليس عنده ، وهل هذه الأحذية قد أصلحت ، إتقان أولاً ، لماذا يجب أن يعرفوا ماذا يأكل المرء ؟ وماذا يشرب ؟ ، أو لماذا يتسخ المرء ؟ وماذا لومشيت حافي القدمين عند الجزء المحطم من الرصيف في أحافله على نعل ؟ . لماذا يعنى المؤلف بأن يخبر قارئه ، أ أخاه الإنسان يعاني أحياناً من ظروف قاسية حتى ليستطارد أن يستغنى عن الشاى ، كما لو كان من واجب كل شخص أن يشرب الشاى ؟ هل أراقب أنا كل كسرة يتناولها جيراني ، هل أفعل أنا هذا ؟ هل يجرؤ مخلوق على القول إننى أفعل هذا ؟ اذن لماذا يفعل الآخرون ؟ . هذا ما أعنيه يا فارفاراً أليكسيفنا .

إن الرجل منا لينسكب على عمله متحمساً -- ويحترمه حتى رئيسه (وقولى ما شئت فهذا صحيح) . ثم فجأة يعترضه كاتب ماويجعل سخريته منه أمام الناس . وطبعى أنه قد يشتري لنفسه شيئاً جديداً من حين لآخر وصحيح أنه قد يشعر بالسعادة أحياناً حتى لا يغمض له جفن طيلة ليله ، وهذا هو مثلاً الشعور الذى ملأنى عندما انتعلت أحذية جديدة . ويا لها من لذة تشبه الخطيئة أن يرى المرء قدميه فى مثل هذا الجلد اللطيف ، . والحمد لله أن الكاتب قد وصف هذا كله كما يحدث بالضبط ، ومع هذا فالحق إننى لأدهش كيف يحب رئيسنا فيودور فيودورفتش مثل هذه السكتب وكان من الواجب أن يسخط عليها ، فهو إذا يسخط عليها فأنما

يدافع عن شخصيته . ولكن من الحق أنه موظف صغير، وأنه يجب أن
بصرخ فينا أحياناً مثل ذلك الموظف الذى بصفه الكتاب : ولكن لماذا
يجب ألا يفعل ؟ لماذا يجب أن يكف عن صراخه فى وجوهنا ولماذا يجب
أن يكف عن أن يصلينا بغضبه ، إن السمك الصغير يجب أن يصطلى النار .
صحيح أنه يفعل هذا إظهاراً لسلطته ، ولماذا يجب ألا يفعل ، من
الواجب عليه أن يضع كلاً منا فى موضعه وأن يبت فىنا خوف الله ،
فبني وبينك يا فارنكا نحن السمك الصغير لاقيمة لنا دون الخوف من
الله . وكل منا لا يفكر إلا فى أن يظل اسماً فى كشف الماهيات فحسب ،
شغلنا الشاغل أن يظل اسماً فيه . . لأن نعمل . ومادامت هناك مراتب
مختلفة وكل منها يعذب الآخرين وبطريقته الخاصة فإن اللهجة المستعملة
تختلف طبقاً لاختلاف المراتب . . كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك
— هكذا الحياة يا عزيزتى . كل منا يجعل نفسه فى موضع أعلى من الآخرين
ولا بد من أن يشوى بعضنا البعض الآخر على النار ، ولولا هذا لانتهى
العالم — ولكنى أعجب بعد هذا كله من أن يوافق فيودور فيودورفتش
على مثل هذه الوقاحة .

أى خير يخرج من كتابة مثل هذه الأشياء ؟ وما فائدتها ؟ هل سيهدى
إلى القارئ معطفاً جديداً للعمل ، أو زوجاً من الأحذية ؟ لن يحدث
شيء من هذا القبيل يا فارنيكا . أنه سيقروها جميعاً ثم يطلب منها المزيد
والإنسان حريص على إخفاء نقائصه ، حريص جداً حتى لينطوى على

نفسه خشية الأفاويل . . وكل كومة من التراب تصبح جبلا ، وقبل أن يدرك المرء توضع حياته العامة والخاصة جميعا عارية في كتاب ثم تصبح موضع السخرية ، ويدور حولها النقاش : وكيف يستطيع المرء أن يظهر في الشارع بعد ذلك وقد وصف كل شيء بدقة حتى ليعرفه الناس من مجرد مشيئته !

ولعل الأمر ما كان يسوء إلى هذا الحد لو أن المؤلف قد تمالك وعيه قرب نهاية الكتاب . ثم لطاف الأمور قليلا بقوله ، وبعد أن وصف كيف استمزموا به وسخروا منه — إنه كان رجلا طيباً فاضلاً ، وإنه لم يكن ليستحق أبدا أن يعامله زملاؤه معاملة كهذه ، وإنه كان يطيع رؤسائه (ومن المستحسن أن يعطى بعض الأمثلة هنا) ، وإنه لم يحمل ضغينة لأحد ، وأمن بالله ثم مات (إذا ما أصر المؤلف على موته) وناح عليه الأهل والأصدقاء .

ومع هذا فسيكون من الأفضل ألا يدع المسكين يموت بل يدعه يسترد معطفه ، ويستدعيه وسعاده ، الذي يرقيه في الدرجة ويرفع مرتبته بعد تحريات دقيقة عن مزاياه ، وبذلك تلتصق الفضيلة وتجاوز الرذيلة في شخص زملائه .

ذلك ما كنت أكتبه أنا ! إن المؤلف لم يفعل إلا أن وصف فترة نافذة ضئيلة من وجودنا اليومي التافه فحسب . .

كيف طارعتك نفسك أن تبعثى إلى مثل هذا الكتاب يا حبيبتى ؛ إنه كتاب مفسد يا فارنكا . مجرد أنه كذب لأنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الكاتب الحكوى لأننى أرى أنه يجب أن أرفع شكوى ضد هذا الكتاب يا فارنيكا .

خادمك المطيع

ماكس دوفشكين



٢٧ من يولية :

عزيزى ماكار :

إن الأشياء التى حدثت أخيراً ، وخطاباتك الأخيرة أيضاً ، قد سببت لى قلقاً عظيماً ، وجعلتنى فى حيرة من أمرى حتى شرحت لى فيدورا كل شيء ، لماذا تستسلم لليأس وتردى فى مثل هذه الهاوية ياماكار أليكسييفتش ؟ . إن أعذارك التى تتعلل بها لم تعد تقنعنى وكما ترى الآن كان يجب أن أقبل هذه الوظيفة المجرية ، فما حدث أخيراً قد أثار فزعى حقاً

تقول إن حبك لى دفعك إلى كتمان أشياء . ولقد شعرت دائماً أننى مدينة لك ، وإن كنت إعتقدت دائماً أن مانتفقه على من نفوذ إنما هو من مدخراتك فى البنك ، فتكليف بربك يكون شعورى عندما

أعلم أنك لم تكن ذامال قط ، وأنك كنت تسحب مرتبك مقدماً لأنك كنت ترى لجالي فحسب ، وأنك بعث معطفك عندما كنت مريضة .. ماذا سأفعل يا صديقي المسكين ؟ .

كان يجب أن تكف عن هذا كله بعد مظاهر العطف الأول التي أغدقتها على بدافع من شفقتك وشعورك بالقربي ، وكان يجب ألا تبعثر أموالك على الكاليات . لست صديقاً حقيقياً ياما كار ، فلم تك صريحاً معي ، والآن وقد علمت أن آخر كوبك كان معك قد أنفقته في شراء الملابس والخلوى وتذاكر المسرح والكتب وضروب التسلية المختلفة فإنني أدفع ثمن حماقتي غالباً (ألم أقبل أنا كل شيء دون ان أفكر فيما تحتاج إليه أنت) . وكل الأشياء التي رجوت أن تجلب بها السرور إلى قلبي قد جلبت إليه الحزن والندم الذي لا طائل وراءه .

لقد لاحظت انقباضك أخيراً ، وأقلقني هذا ، ولكن ما حدث مثلاً قد تجاوز أسوأ مخاوفي . يا إلهي ! كيف استطعت أن يقلت منك زمام نفسك إلى هذا الحد ياما كار أليكسييفتش ؟ ماذا سيقوله الناس ؟ .

إنني لا أستطيع أن أنكر أنك أنت — أنت الذي يحترمه الجميع لتواضعه واتزانه وطيبته ، قد ارتكبت أسوأ الرذائل — رذيلة لم يكن لك إليها ميل من قبل . وكيف ينبغي أن أشعر عندما أخبرتني فيدورا أنهم عثروا عليك ثملاً في الشوارع فأحضرتك الشرطة إلى المنزل .

كما كنت أصدق أذن بالرغم من أنني توقعت شيئاً ما يخرج على المؤلف مادمت لم تحضر لزيارتي طيلة أيام أربعة . هل فكرت يا ما كارفيا سيقول رؤساؤك لو علموا السبب الحقيقي لغيابك ! لقد كتبت إلى تقول : إن الجميع يسخرون منك ، وإنهم قد علموا بصدقتنا وإن جيرائك يذكرون اسمي هازئين . أستحلفك بالله يا ما كار أليكسييفتش ألا تلقى إليهم بالاً واعتن بإصلاح شأنك .

وتلك الحادثة التي حدثت منك مع الضباط تقلقني أيضاً ، ولقد وصلتني بعض الشائعات عنها ، فأرجو أن تخبرني بها .

ولقد كتبت أنك كنت تخشى أن تذكر لي الحقيقة كلها فتفقد صداقتي ، وأنت كنت يائساً إذ كنت لا تعرف كيف تستمر في مساعدتي والإنفاق على علاجي حتى أظل خارج المستشفى ، وأنت قد اقترضت الكثير من النقود على قدر ما استطعت ، واضطرت إلى مشاجرات حادة . مع صاحبة الدار ، ولكنك لم تكن لتفعل شيئاً أسوأ من تكتمك عني هذا كله ومهما يكن من أمر فإنني أعرف كل شيء الآن .

إن سر ترددك هو أنك حريص على ألا تشعرني بأنني كنت سبب متاعبك ، ولكنك في الواقع قد ضاعفت حزني بمسلكك . إن هذا التصرف يحطم القلب يا ما كار . آه يا صديقي . . إن سوء الحظ يمدى كالوباء ، ويجب أن يبتعد بعض الفقراء والتعساء عن بعضهم الآخر

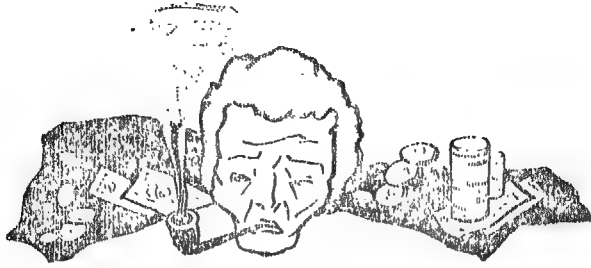
فلقد جلبت عليك متاعب لم تكن لتعانيتها من قبل في وجودك المتواضع المنعزل إنني لا أحتمل التفكير في هذا .

خيرنى بصراحة ماذا حدث لك بالضبط ، وكيف انحدرت إلى مثل هذا الدرك ، أخبرنى شيئا يبعث الطمأنينة فى قلبى لو أمكنك .

ولست الأنانية هى التى تدفعنى إلى أن أطلب منك هذا ، بل هى صداقتى لك التى لن يستطيع شيء أن ينتزعها من قلبى . وداعا يا صديق .. إننى متلهفة لأصبر حتى يأتى ردك . لقد أخطأت ياما كار إذ ظننتنى على مثل ما ظننت .

المخلصة

ف . د



٢٨ من يولية .

طفلتى الغالية فارفارا اليكسينا

. . الآن ، وقد انتهى كل شيء وعادت حياتى إلى مجراها الطبيعى ، أستطيع أن أخبرك بهذا : يقلبك ما قد يظن الناس ، ولكنى أبادر فأؤكد لك أن شرفى أعز عندى من أى شيء آخر فى الوجود ، وعلى هذا أخبرك هنا عن نكباتى وأقرر أن رؤسائى لا يعلمون عنها شيئاً ، وإن يعملوا شيئاً ، وهكذا سيستمر احترامهم القديم لى كما كانت الحال من قبل ، شيء واحد يقلبنى فحسب، وهو مروجو الشائعات ، أما صاحبة الدار فلقد استحال صراخها إلى زجاجة بفضل روبلايك العشرة التى دفعتها لأسدد متأخرانى . أما بالنسبة للآخرين فهم لا يثيرون أية مشكلات على الإطلاق ما دمت لا أحاول أن أستدين منهم المزيد .

وسأنهى إيضاحاتى بهذه الحقيقة أقررها يا حبيبتى : إن تقديرى لى أهم عندى من أى شيء آخر فى الوجود ، ولأنه يعوضنى تماماً عن كل ما نزل بى من مصائب ، وشكراً لله أن نذر العاصفة الأولى قد مضت ،

وأنت لا تعتبرينى صديقاً خادعاً وشخصاً أنانياً لأننى لم أطق أن أدعك تذهبين بعيداً وهكذا خدعتك بالرغم عما فى قلبى من حب لك يا ملاكى الصغير الحبيب .

وقد عدت إلى عملى بحماس مضاعف وقت بكل ما هو مطلوب منى بكل امتياز ، ولم يقل ييفستانى ليفانوفتش كلمة واحدة ، عندما مررت به أمس ، ومن أخفى عنك يا حبيبتى أننى مثقل بالديون ، وأن رثائى ثيابى تخزنى ، ولكن هذا لا يهم كثيراً ، وأرجو ألا تقلقى . أما هذه القطعة ذات الخمسين كوبكا التى أرسلتها فقد مسبت شغاف قلبى . إذن لقد وصل الأمر إلى هذا الحد ! لست أنا إلا الحق العجوز الذى يساعدك ، بل أنت يا طفلى اليتيمة بلا حماية ، التى تقدمين إلى يد المعونة .

وقد كان جميلاً من فيدورا أن تحصل على هذا المال ، ففى الوقت الحالى لا يوجد أدنى أمل فى الحصول عليه يا حبيبتى ، إذا ما تغيرت الحال يا عزيزتى فسأخبرك فوراً بيد أن أقاويل الناس - هى ما يزعجك أكثر من أى شىء آخر .

وداعاً يا ملاكى . لا أستطيع أن أكتب فى تفصيل أكثر فعلى أن أسرع إلى المكتب ، ويجب أن أعوض إهمالى . سأكتب إليك هذا المساء عن الأشياء الأخرى التى حدثت وعن مشكلاتى مع الضباط .

صديقك الذى يحترمك ويحبك
ماكار .



٢٨ من يوليو

آه يا فارنسا ..

إنه أنت التي يجب أن تخرجني من نفسك الآن ولست أنا . وسيظل
هذا الأمر يشغل ضميرك إلى الأبد ، فقد تركني خطابك الأخير في أشد
حالات الاضطراب ، ولكنني عندما بحثت في قلبي وجدت أنني كنت
على حق تماماً . ولست أشير طبعاً إلى مجونتي [وكفانا من هذا يا عزيزتي]

ولكنى أشير إلى حقيقة معينة ، تلك أنني مغرم بك ، وأنه ليس من الجنون قط أن أغرم بك . وأنت لا تعرفين شيئاً عن حبي يا حبيبتى . لو عرفت حقيقة لماذا لا أملك إلا أن أغرم بك ما ذكرت الأمور التي ذكرتها . وأنا على يقين أن عقلك فقط هو الذى يتحدث ، ولكنى على يقين من أن قلبك سيقول أشياء أخرى .

وإن شئت الحق يا حبيبتى فإني لا أذكر ماذا حدث بيني وبين هؤلاء الضباط بالضبط ولا بد أن أقول يا عزيزتى إننى كنت أعانى ظروفاً كئيبة فقد ظلت شهراً كاملاً وأنا كالمعلق فى الهواء بخيط واه ، وكان ذلك موقفاً مزرياً وتكلمت عنك وعن جيراني ، ولكن ربة دارى أثارته ضجة كبيرة ، ولست أعبأ طبعاً ، فلتصرخ هذه الساحرة العجوز كما تشاء حتى تسكتنى . ولكن أول كل شيء أنها أثارته فضيحة ، وأنها علمت بأمر خطاباتنا ، ويعلم الله كيف علمت ، وبدأت تقذف بالسباب والتهم حتى اضطرت أن أصم أذنى . ولسوء الحظ لم يصم الآخرون آذانهم ، بل على العكس أصاحوا سمعهم حتى لأحس بالخجل والحزى إلى الآن يا عزيزتى .

وهكذا يا فارنكا كاد هذا السيل من النكبات يقضى على ، ولكن أقسى تلك النكبات عندى كان عندما أخبرتنى فيدورا أن شخصاً منحنطاً قد أتى إلى غرفتك فأهانك بما كان يضمه لك من نوايا خسيئة . .

وإني لمقدر كم تأملت أنت ، فقد آلمني هذا كثيرا ، وعندئذ فقدت أعصابي
فاندفعت يافارنسكا في ثورة عارمة أبغى مسكن ذلك الشرير المنحط ، لم
أكن أدري ماذا أنا فاعل ، كل ما كان يعنيني أنني لا أتحمل أن يهينك
مخلوق ياملاكي الصغير .

كنت حزينا ، وزاد من نجي وثورتي أن الدنيا كانت تمطر والشوارع
ممتلئة بالوحل سبى لآلئ الافدام . . كل شيء حزين كئيب . وكنت على
وشك أن أعدل عن الذهاب ، وأعود أدراجي — ولكن عندئذ بدأ
سقوطي . . وقد تصادف أن نابلت يميليا — أغني يميليان اليتس . وقد
كان ناسبا معنا حتى فصل من وظيفته ، ولست أدري بالضبط ماذا
يفعل الآن ، وهكذا سرنا معا . . وعندئذ . . ولست أنى متمة تجدنيها
يافارنسكا في قراءة قصة تكليات ، صدقك وعثراته ؟

وفي مساء اليوم الثالث ، دفعني يميليا إلى الانتقام من ذلك الضابط
وعادت عنوان مسكنه من البواب . وعلى ذكر هذا الضابط ياعزيرتي
أقول إنني قد لاحظت منذ أمد طويل أن بأخلاق هذا الضابط سفاهة
فقد راقبه كثيرا عندما كان يسكن في منزلنا . وإني لأحس الآن بقلة
فطنتي ، فالحق أصرح به إنني كنت غمورا عندما اقتحمت غرفته ،
ولست أتذكر شيئا يافارنسكا اللهم إلا أن الغرفة كانت ممتلئة بالضباط
— أو لعل بصرى زانغ فرأيتها ممتلئة بالضباط : لست أدري ويعلم الله

ولست أستطيع أن أذكر ماذا قلت بالضبط ، ولكنى أعرف .
أننى قلت شيئاً كثيراً دفعنى إليه حتى ، فطردونى خارج الغرفة ، بل
لقد ألغوا بى على الدرج ، أعنى أنهم لم يرمونى رمياً على الدرج . ولكنهم
طردونى خارج المنزل ، ولقد بلغك كيف عدت إلى منزلى ، وهذا هو
كل ما حدث .

وطبعى أن كرامتى قد أهينت ، ولكن لا يدرى أحد بهذا .
أعنى أنه ما من غريب يدرى بها . ومادمت أنت الشخص الوحيد الذى
يعرف فكان الأمر لم يحدث قط . أليس الأمر كذلك يا فارزكا ؟
إن ما أعرفه حق المعرفة أنه فى العام الماضى أهان د اكستنى
أوزييوفتش ، كرامة د بيوتر بتروفتش ، فى المكتب ولكن حدث .
هذا سرا ، فقد استدعاه إلى حجرة البواب ، وقد رأيت كل ذلك خلال
صدع فى الباب — ثم كال له الإهانات — ولكن بطريقة مهذبة —
ودون أن يدرى أحد . أما عنى فإنى لم أذكر شيئاً عن ذلك لأى
مخلوق ، ثم استمرت علاقتهما بعد ذلك كأنما لم يحدث شيء . وكان
بيوتر بتروفتش محترماً حقاً ، ولم يتحدث لمخلوق بما حدث ، وبعد هذا
تصالحا وتبادلا التحيات .

أما أنا فلن أجادل يا عزيزى لأننى لا أجرو على ذلك ، والحق .
أننى قد أهنت . وأسوأ ما فى الأمر أننى احتقرت نفسى . ولا بد أن

هذا أمر قدرته السماء ، ومن يستطيع ان يهرب من يد القدر .
وهكذا تعلمين الآن قصة نسكباتي وعشراقي كاملة يا فارنكا . ولا أظنها
تستحق القراءة . اما أنا فلست بخير ، فقد فقدت كل احترامى لنفسى .
واسمحي لى فى النهاية ان اؤكد لك تقديرى وحبي وإخلاصى وأن أغل
يا عزيزتى فارفارا اليكسييفنا .

خادمك المطيع

ماكاردوفشكين.



٢٩ من يوليو

صديقي العزيز ماكار أليكسييفتش

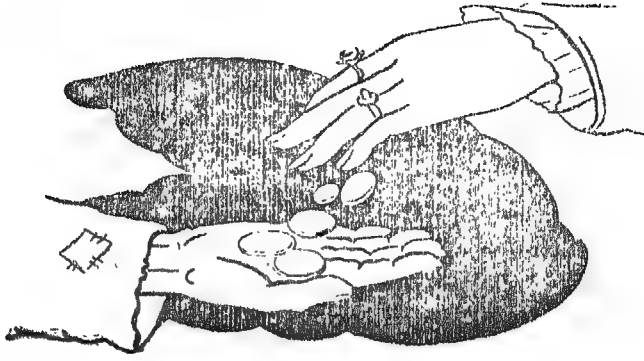
قرأت خطابيك فتملكني اضطراب شديد . يا صديقي المسكين ، إما أنك أخفيت عني جانباً من همومك .. وإما أنك ... فالحق يا ماكار أليكسييفتش أنك تعاني من مشكلة ما لم تخبرني عنها كما فهمت من خطاباتك .

أرجوك أن تأتي لزيارتنا اليوم ولا تتأخر ، وأفضل من هذا أن تأتي وتتناول غداءك معنا . وأنت لم تخبرني حتى كيف تدبر حياتك يوماً بعد يوم ، وكيف تمضي بك الأمور مع ربة الدار ، فإنه ليبدو لي أنك تعتمد أن تبتكم عن هذه الأمور .

وداعاً يا صديقي . وابذل جهدك كي تحضر إلينا ، ولعله من الأفضل أن نتناول غداءك معنا دائماً ، ففيدورا طاهية ممتازة ووداعاً .

المخلصة

فارفارا دوبروسيلوفا



الأول من أغسطس

فارفار يا حياقي

أراك سعيدة يا أعز مخلوق لدى لأن الله قد أتاح لي فرصة لرد الجليل وأنا على يقين من ذلك لأنني واثق من طيبة قلبك . ولكني أرجوك ألا توبخيني لأنني تنسكت لشيخوختي [ولا أقصد من هذا إهانتك طبعاً] . فإذا أصررت ، اعترفت بأنهم كانوا خطيئة ، ولكن أشد ما يؤلمني أن أسمع هذا منك أنت بالذات يا صديقتي الصغيرة ، ولا يغضبك مني أن أقول مثل هذه الأشياء فإن قلبي تملؤه الحسرة . والفقراء يافتاق في ريبة دائماً . . وأظنهم ولدوا هكذا ، فطالما شمريت بهذا من قبل .

إن الفقير رجل مستريب دائماً ، لأنه دائماً في حذر من كل شيء . دائماً يتساءل ماذا يقول الناس عنه ؟ لربما يقولون : «أى حطام مسكين!

ترى فيم يفكر الآن ، وعلى أية صورة تعسة يبدو من هذا الجانب أو ذاك ؟ وكما يعلم الجميع يا فارتسكا لا يستحق الرجل الفقير شروى فقير ولا يمكن أن يحترمه أحد ، ومهما قال الكتاب فسيظل كل شيء على ما هو عليه ، ولماذا ؟ .. لأنهم يتوقعون أن يمضي الرجل الفقير وقد أظهر للناس كل ما بطن من أمره .. لأنهم يريدون ألا يكون له ما يخفيه أو ما يقده.

أما عن الاعتزاز بالنفس — فهذا ما لم يخلق له قط : بالأمس فقط أخبرني يميليا أنه كان يعمل عملاً إضافياً . ولكنه كان يخضع لتفتيش رسمي عن كل عشرة كرويكات يتقاضاها .

لقد ظنوا أنهم يتصدقون بأموالهم ، ولكن الواقع أنهم كانوا يدفعون ثمناً لتمتعهم بمنظر رجل فقير ، والإحسان يوزع توزيعاً غريباً في هذه الأيام ، بل من يدرى ؟ لعله كان كذلك دائماً . فهم إما أنهم لا يعرفون كيف يتصدقون أو أنهم يعرفون هذا جيداً . على كل فهكذا هي الحال يا عزيزتي وربما لا تعرف إلا القليل عن الأشياء الأخرى ، ولكننا نعرف الكثير عن الإحسان . ولماذا ! بحكم التجربة : فإني واثق من أنني سأرى سيداً يمضي في طريقه إلى قهسوته ، وهو يقول لنفسه : إنني لأسأل ماذا سيتناول هذا الكاتب الرث من غذاء اليوم ؟ سأتناول أنا لحماً مشوياً ، وأغلب الظن أن هذا البائس سيتناول عصيدة دون زبد ! .

ماذا يعنيه من غذائي ؟ هناك سادة فعلا يفكرون بهذه الطريقة
يافارنكا إنهم كتاب متسكعون يراقبون المرء دائماً ليعرفوا : هل يمشي
وجلا أو لا : أو هل هذا البكاتب الفقير في هذه المصلحة أو تلك يمشي
في حذاء ممزق تطل منه أصابعه ؟ أو يطل مرفقه من سترته ؟ - ثم يمضي
بعدها إلى منزله ليسجل هذا كله ، ثم يلقي بتفاهاته إلى المطبعة .

بالله ياسيدى العزيز ماذا يعنيك إذا ما أطل مرفق من سترتي الممزقة
أو لم يطل ؛ لتغفري لي فظاظتي يا فارقنكا ، ولكن الحق أن الرجل الفقير
يشعر بالخجل كما تشعر به الخادومات . وأنت لا تتجردين من ثيابك أمام
الغرباء — ولتغفري لي وقاحتي — وهكذا لا يحب الرجل الفقير أن
يتجسس أى شخص على عوراتِهِ ، أو على شئونه العائلية . وهذه هي
المشكلة بالضبط . هذا هو بالضبط ما جعلني أتألم غاية الألم لأن أعدائي
لطخوا سمعتي وأهدروا احترامى لنفسى .

وفي المكتب أيضاً سلسكت كما يسلك أى عصفور حقير أجرب... إنني
أوشك أن احترق خجلاً إذ أفكر في هذا . كيف أمنع نفسى من الخجل حينما
أرى أن مرفقي يطل من أكمام سترتي وأن أضرار سترتي كانت تتراقص بخيوطها
مثل الأجراس ؟ ويشاء حظي العاثر أن يكون هذا اليوم أسوأ من أى يوم
آخر وهذا وحده يكفي لتثبيط همه أى إنسان . بل إن ستيفان كارلوفتش
نفسه لاحظ هذا أيضاً . فبينما كنا نتحدث في أمور تتعلق بالعمل فاجأني
بقوله :

(م ١٠ - الساكنين)

— عزيزى المسكين ما كار أليكسيفتش . . .

ولم يكمل .

ولكننى تكهنت بما يريد أن يقول ، وغمرنى الحجل حتى كادت صلعتى تشتعل ، طبيعى أن الأمر تافه ، ولكنه مع هذا مؤلم أيضاً .
أىكون قد تنهى إلى سمعهم شيء ؟ حاشا لله أن يحدث هذا . وأصرح لك يا عزيزى أننى أشك فى رجل معين بالذات . والكتاب لا يعينهم شيء فهو لاء الأشرار على استعداد لأن يبيعوا حياتك الشخصية مقابل كوبك واحد . فلا شيء مقدس لديهم .

إنى لعلى يقين من الشخص الذى يكن وراء هذا كله - إنه «راتازيف» ولا أحد غيره . فهو على علاقة بشخص ما فى وزارتنا ، ولعله قد روى له كل شيء بعد أن يضيف إليه ما يشاء من اختلافات منمقة . أو لعله قد تحدث فى وزارته هو ، ثم تسرب حديثه حتى وصل إلى وزرائنا . وجيرانى جميعهم يعرفون كل شيء بل لأننى رأيتهم يشيرون ذات مرة إلى نافذتك ، وعندما كنت أتناول غذائى معك أطلوا برء وسهم جميعاً من النوافذ ، وقالت ربة الدار أن الشيطان العجوز قد أغرى فتاة صغيرة ، ونعتك نعتاً بذيئاً . ولكن ما أهمية هذا كله إلى جانب ما يفتويه «راتازيف» الشرير من أن يكتب هذا كله فى كتاب ويصفنا فى سخرية لاذعة . ؟ لقد قال لى ما معناه هذا ، وحذرني كثيرون من الاختيار ..

لقد أعيتنى الحيلة يا حبيبتى فإذا يجب أن أفعل . يبدو لى ياملاكى أن الله
يبنى عقابنا .

لقد وعدتني أن ترسلنى كتابا أقتل به وقتى، ولكن لا تهتمى بالكتاب.
وما قيمة الكتاب آخر الأمر ؟ مجرد مجموعة من الحقائق . وما قيمة
العقبة ؟ تفاهات كتبت ليتسل بها المتسكعون ! أأست أعرف هذا بحكم
خبرتى الطويلة وهم إذا ما تحدثوا عن شكسبير قالوا :

— أما فى الأدب فأقرئ شكسبير . .

ولكن كونى واثمة يا بنتائى أنه لغو وتفاهة مثل الأدب كله . . وكله
حمافات وافتراء . . ولا يصلح إلا للمجاهة لحسب .

المخلص

ماكار دوفشكين



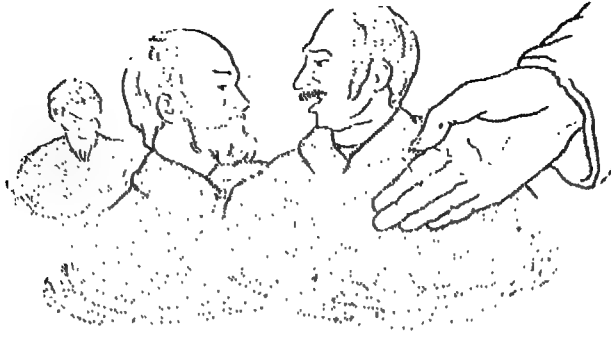
٢ من أغسطس :

عزيزى ماكار أليكسيفتش

بربك لا يقلقك شيء ، فبعون الله سلتحسن الأمور . وقد وفقت
« فيدورا » إلى عمل كثير لى ولها ، وبدأنا فيه بحماس علنا نصلح أُمورنا .
« وفيدورا » تشك أن يكون لمشكلاتى الأخيرة صلة ما بأننا فيدورفنا ،
ولسكن ماذا يهمنى من هذا ؟ لئننى اليوم مبتهجة على غير ما تعودت .
ولقد علمت أنك تنوى الاقتراض مرة أخرى . بربك لا تفعل فستواجه
مشكلات لا تنتهى إذا حان موعد السداد . بربك لا تلق بالآلا إلى ربة
الدار واذا كر أنك اقرب أصدقائنا وتعال لزيارتنا على قدر ما تستطيع .
أما عن بقية الأعداء والحساد فأنا واثقة من أن مخاوفك وهمية يا ماكار .
لقد أخبرتك أن طريقتك فى الكتابة غير منتظمة ولا زالت كذلك .
وداعا حتى نلتقى ، ولانى لنى انتظار زيارة منك قريباً .

المخالصة

ف. د.



٣ من أغسطس

ملاكي الصغير

أبادر فأزف إليك يا حياتي بأن الغمة إلى زوال ، ولكن . . كيف
تطلبين مني ألا أقترص ، . إن هذا المستحيل يا ملاكي الصغير . أنا الآن
مفلس ، ماذا إذن لو حدث لك شيء ، لا قدر الله ، إنك رقيقة
الصحة جددا يا فتاتي . ولهذا كان لا مفر من الاقتراض .

وأواصل الحديث فأقول :

دعيني أخبرك أولا يا فارفارا أنني أجاور في مكتبي زميلا يدعى
إميليان إيفانوفتش — وليس هذا هو إميليان الذي سبق أن حدثتك عنه
فإميليان هذا موظف صغير ، ولعل كلينا أقدم موظفي الديوان .
وهو رجل طيب القلب ، يحب الآخرين ، لا يفتح فاه أبداً حتى ليبدو
تكنزير برى . ومع هذا فهو رجل كفء في عمله ، وخطه جميل حقاً ،

وقصارى القول إنه رجل جدير بالاحترام . والحق أن الصداقة لم تتوطد بيننا قط ، ولم يكن الأمر يعدو مجرد تبادل التحية ، فطبيعى أننى أسأله كلما احتجت إلى مبرة أشدب بها قلبي :

— هل تتكرم بإقراضى مبرائك يا إميليان إيفانوفتش ؟

ولم يزد الأمر عن هذا قط . ولكنه اليوم باغتنى بقوله .

— بربك لا تجهد نفسك فى الفكر ياما كار . .

وشعرت أن الرجل يضر لى خيرا ، فأخبرته بكل شىء ، لا.. ليس كل شىء ، إذ لم تواتنى الشجاعة أن أخبره بجميع أحوالى ، وإنما اقتصر على أن أفضى إليه بأى أحوالى قد تأزمت .. وأنى قد مررت بظروف قاسية ، وقال لى إميليان :

— إذن لماذا لا اقترض بعض المال من بيوتر بتروفتش ، أيها الصديق العزيز ؟ إنه يقرض المال بالربا ، ولطالما اقترضت منه أنا نفسى بفائدة معقولة لا إجحاف فيها .

والحق يافارنكا إن قلبي كاد يقفز من صدرى إذ سمعت هذا ، وقلت لنفسى : لعل الله يوحى لى بيوتر بتروفتش ، فيقنعه بإقراضى هذه النقود ، فلقد كنت أحسب حساب ربة الدار ، وكيف أدفع لها الإيجار وأقدم لك شيئا من المعونة ، ثم أشتري أنا ما أحتاج ،

وأنت تعلين المنظر الذرى الذى أبدوفيه حتى لا كاد أموت من البرد.
وأنا فى مثل هذه الثياب بالإضافة إلى السخريه التى يعذبنى بها رفقاء.
السوء — فليغفر الله لهم .

وأحيانا أيضا يمر سعادته ليتفقد المسكاتب . فكيف يكون الحال.
لو أنه لاحظ رثائه ملبسى ، وليرحنى الله إذا حدث ذلك.

وسعادته يعنيه كثيرا مظهر الموظفين . طبيعى أنه قد يمر ثم لا يقول
شيئا ، ولكنى سأموت من العار ، لهذا كله وضعت عارى فى جيوبى .
الممزقة ، ومضيت إلى بيوتر بتروفتش وأنا أشبه ما يكون بالملوق وإن
كان قلبى يراوده بصيص من الأمل ، وتخيلى يا فارنكا أن ينتهى هذا
كله إلى لا شيء ، لا شيء على الإطلاق . كان بيوتر بتروفتش منهما
فى الحديث مع فيدوى ليفانوفتش عند ما تسالت إلى جانبه ، وجذبت
كم سترته كما لو كنت أقول :

— بيوتر بتروفتش — لىنى هنا .

وعند ما انفتحت إلى شرحت له أن كل أحتاج لا يعدو ثلاثين
روبلا . ويبدو أنه لم يفهم مرادى أول الأمر ، وعند ما شرحت
له ما أريد ضحك ملء شذقيه ، وكان هذا كل رده . وبدأت أشرح
له مقصدى مرة أخرى حتى قال :

— أى ضمان لديك . . ؟

ثم انهمك فى أوراقه ، وبدا كأنما قد نسى كل شيء عنى . وأثارنى هذا قليلاً فأجبت .

— كلا يا بيوتر بتروفتش — ليس عندى ضمان ، ولكنى سأعيد إليك نقودك بمجرد حصولى على مرتبى ، سأردها إليك بالتأكيـد —
ثق أننى سأردها لك .

وفى هذه اللحظة دعاه داع ، فوقفت أنتظر ، ولكنه عند ما عاد بدأ يشذب ريشته ، وكأنه لا يحس لى وجودا . ، وبدأت محاولتى مرة أخرى .

— بيوتر بتروفتش . ألا يمكن أن تدبر الأمر بطريقة ما ؟ ولكنه لم يبد عليه أنه سمعنى . وطال وقوفى حتى قررت أخيراً أن أقوم بمحاولة أخيرة ، فجذبت كم سترته مرة أخرى . وهل تظنين أنه نطق ولو بكلمة واحدة ؟ . . كلا . . لا شيء من هذا القبيل ، انتهى من تشذيب ريشته ثم انصرف إلى الكتابة ، وهكذا انصرفت انا .

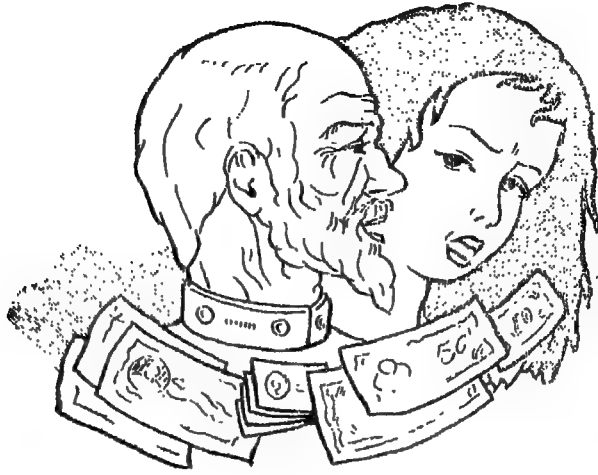
لعلمهم جميعاً محترمون — هؤلاء القوم — ولكنهم متكبرون . نعم بهم كبرياء شديدة وفى معزل عنا يافارنكا . ولكن لماذا أكتب إليك هذا كله ؟ لقد حدث أن إيليان إيفانوفتش ضحك كما فعل بيوتر بتروفتش وهز رأسه أسفا عند ما علم ، ولكن الرجل الطيب

مع هذا شجعتني ووعد أن يوصي بي صديقا موظفا صغيرا يسكن شارع
فيبروجسكايا ويقرض المال بالربا . وإميليان إيفانوفتش يؤكد أنه واثق
أنه سيقترضني وسأذهب إليه غدا فما رأيك ؟

عسى الله أن يوفقني في الحصول على النقود ، فربة الدار ستطردني
من منزلها وتمنع عني الغذاء ، ونعلي قد بليتتا واقتقرتا أيضا إلى
الآزار . . . وأي شيء إلا أفقر إليه ؛ وماذا يحدث لو أن أحدرؤسانى
حانت منه نظرة إلى منظرى المزرى .

فارنكا . . يبدو أن متاعبنا لانهاية لها . . لانهاية لها على الإطلاق .

ماكار . .



٤ من أغسطس

صديق العطوف ماكار

بربك اقترض المال بأسرع ما تستطيع. أرجوك أن تفعل هذا ...
وما كنت لأطلب معونتك في مثل هذه الظروف التي تعانيها ، ولكن
لو تعلم أى موقف نحن فيه الآن . . . إننا لانستطيع أن نستقر في هذا
المسكن أكثر من ذلك ، فلقد عانيت الكثير من المشكلات ، ولا
أستطيع أن أصف لك مدى اضطرابي .

ففي هذا الصباح اقتحم غرفتي رجل متقدم في السن ، بل رجل
عجوز تقريبا يرتدى الكثير من النياشين . وتملكتنى دهشة ، ولم أستطع
أن أنخيل ماذا يعني . وكانت فيدورا في الخارج لشراء حاجياتنا .

السوق . وسألني العجوز كيف أعيش ، ودون أن أرد على أسئلته .
صرح لي بأنه خال ذلك الشاب ، ، أنه ثار على ابن أخته ، وعلى ساوكة
معى الذى أثار حديث المنزل كله عنا ، ثم قال إن ابن أخته مجرد شاب
مدلل لا يصلح لعمل ، ، أنه مستعد . أى الحال — أن يمنحني حمايته .
ثم نصحتني أن أتجاهل الشبان ، وأنشأف أنه يعطف على كآب ، وأن
مشاعره أبوة خفية ، ، أنه مستعد أن يمنحني معونته .

وه قفت خجلى لأعرف ماذا أقول ، وإن كنت لم أسرع بشكره .

ثم اختطف يدي على الرغم مني وداعب وجنتي ، وهو يهزى
جمالى ، ويعبر عن إنجابه بغازلي (ويعلم الله لماذا) ثم حاول أخيرا أن يقبلني ،
وهو يقول إنه ليس أكثر من رجل عجوز (وأى عجوز قدر هو !) .

وفي هذه اللحظة دخلت فيدي ، را ، فاضطرب قليلا ثم أكد لي أنه
يحترمني من أجل تواضعي وتعقلي ، ثم تمنى لو لم أعامله كرجل غريب ،
ثم انتحى بفيديورا جانبا . يحاول أن يعطينا شيئا من المال متعللا
بمعاذير غريبة .

ومن الطبعي أن ترفض فيديورا ، فاضطر آخر الأمر إلى الانصراف
ولكنه أخذ يكرر وعوده ويعلن أنه سيأتى لزيارتي مرة أخرى ،
وسيحضر لي قرطين أحلي بهما أذن . (ولكنه كان يبدو فى ضيق) ،

ثم نصحنى أيضاً بأن أنتقل إلى مسكن أفضل ينتقيه هو ، وإن يكلفنى شيئاً . ثم كرر إعجابه الكبير بى لأننى فتاة عاقلة شريفة وحذرنى مرة أخرى من الشباب الفاسدين . واعترف أخيراً بأنه يعرف أنا فيدورفنا وأنها طلبت منه أن يخبرنى أنها ستأتى لزيارتى بنفسها .

وفى هذه اللحظة أدركت الحقيقة كلها ، ولا أستطيع أن أخبرك كيف كان شعورى ؛ فقد كانت هذه المرة الأولى التى أجد نفسى فيها فى مثل هذا الموقف . . وفقدت أعصابى وصرحت له برأى فيه ، وساعدتنى فيدورا حتى طردناه ! إننا واثقتان أن هذا من مكايد أنا فيدورفنا وإلا فكيف يمكن أن يعلم عنا شيئاً إلا عن طريقها .

أنوسل إليك الآن يا مكار ألا تتخلى عنى فى موقف كهذا ، وأرجوك أن تقرض بعض النقود ، لأنه من الواجب علينا أن نرحل عن هذا المكان ، وفيدورا من رأى أيضاً . إننا فى حاجة إلى خمسة وعشرين روبلا على الأقل ، وثق أننى سأرد إليك هذا المبلغ ، سأعمل حتى أتكسبها ، وستجد فيدورا مزيداً من العمل لى .

وعلى هذا فأرجوك أن تقرض النقود مهما بلغت فوائدها ، وسأعيدها كلها . . ولكن ساعدنى الآن . لشد ما يؤلمنى أن أضعف همومك على حين أن أحوالك نفسها سيئة ، ولكنك أملى الوحيد . وداعاً يا مكار .
أذكركنى وليوفقك الله كى تبدل أقصى جهدك .
ف . د



٤ من أغسطس

حبیبتی الغالیة فارفارا

کم هزتنی هذه الضربات المباغثة ! حتی لتئن روحی من هذه
النسکبات . ولماذا تمتص قواک وحياتک يا ملاکی هذه الحفنة من
المنافقين وعجائز الاشرار ؟ ؛ وبسببهم سأنحدر إلى قبری . أقسم لك
أنی سأفعل ، ولكنی أؤثر الموت على ألا أجد لك النقود التي تطلبين .
غير أني لو فعلت فسيكون في هذا قضاء أكيد على حیاتی أيضاً إذ
ستمضين عني كما يهجر الطائر عشه إذ احط عليه يوم الشؤم ، ولكن كيف
تستطيعين أن تفعلی هذا بي يافارنكا . . كيف ؟ إنك لتتألمين وتتعذبين
يا صغیرتی ، ولكن مع هذا تتعمدين ایذائی فتؤكدی لی بمرارة أنك
ستمعين النقود ، ومعنی هذا أنك ستحطمين قواک النحيلة كي تفي بفوائد

الديون في موعدها . فكرى جيداً يافارنكا قبل أن تقولى مثل هذه الأشياء . لماذا تشقين منكبة على الحياة كما تملاً الهموم رأسك . وتفسدين عينيك الجميلتين وتحطمين صحتك ؟ آه يافارنكا ! إننى اعلم أننى عجزت لأصلح لشيء ، ولكنى سأجبر نفسى على أن تصلح لشيء ، وإن يعوقنى شيء ، سأحصل على عمل إضافى - سأستخ الأوراق للكتاب ، سأذهب إليهم بنفسى وأتوسل إليهم أن يعطونى عملاً ما ولا شك أنهم فى حاجة إلى شخص يستطيع أن ينسخ جيداً . إننى واثق أنهم فى حاجة إلى مثل هذا الشخص ، ولكنى لن أسمح لك إطلاقاً أن تعملى وترهق نفسك حتى تسقطى صريعة المرض . . . لن أسمح لك أن تنفذى نواياك المملكة وثق أننى سأقترض المال بأية طريقة ياملاكى ! إننى أوشى الموت على الفشل . تقواين لأنه ينبغى ألا أخشى الفوائد الباهظة لا قلقى ياعزىزتى : فلست أخشى شيئاً الآن وسأقترض أربعين روبلاً فهذا ليس بالكثير ، أليس كذلك أترينهم يثقون فى فيقرضوننى أربعين روبلاً ؟ وترى هل سيأخذون بكلمتى لحسب ؟ أترانى قادراً على أن أوحى بالثقة لأول وهلة ؟ أعنى هل أول نظرة إلى وجهى تترك أثراً طيباً ، حاول أن تستحضرى يا حبيبتى أمام ناظريك شخصيتى ووجهى ثم أخبرينى ، هل أستطيع أن أوحى بهذا كله ؟ وما رأيك فى هذا كله ؟ إننى ثائر الأعصاب الآن فالحق أن الأمر كله مؤلم .

وإذا ما اقترضنا الأربعين روبلاً هذه فسأخصص لك منها خمسة وعشرين يافارنكا ، ثم سأعطى اثنتين لربة الدار ، والباقى أقضى به .

حاجاتي . وطبيعي أنني مدين لربة الدار بأكثر من هذا ولكن قدرى
يا فارنيكا ما أحتاج وسترين معى أنى حقاً لا أستطيع أن أعطيها أكثر من
هذا ولا داعى لأن أذكر لك ما أحتاج إليه وإن يكن روبل من الفضة
يكفى شراء زوج جديد من الأحذية فإننى لاخشى ألا يحملنى خذائى إلى
المسكتب حتى غد .

وطبيعى أنني أرحب برباط للعنق فرباطى الحالى قد عمر عاماً ولكن
لاداعى للاهتمام به مادمت قد وعدت بعمل رباط عنق من ثوب قديم
عندك ، وهكذا سيكون عندى زوج جديد من الأحذية ورباط للعنق
ولكن ماذا سنفعل بخصوص الأضرار يا صديقتى الصغيرة ؟ ولعلك
توافقين معى يا فارنيكا على أنني لا أستطيع أن أستغنى عن الأضرار وقد
ضاع كل مافى سترتى الحالية منها . وإننى أرتجف لمجرد التفكير فى
أن سعادته قد يلاحظ مثل هذه الرثاءة ثم يقول ...

أما ما سيقوله فلن أعرفه أبداً يا عزيزتى ، سأكون ميتاً قبل أن أسمع
سأسقط ميتاً فى مكانى خجلاً ، وسيبقى بعد هذا ثلاثة روبلات لنفقات
حياتى ولشراء نصف رطل من الطباق ، فليست بمستطيع يا صغيرتى أن
اعيش دونه ، وها قد انقضت أيام تسعة لم أَدْخُن فيها غليونى ، وقد كان
بوسعى أن أشتريه ولا أخبرك بشيء عنه ، ولكنى كنت خليفاً بأن
أخجل إذا أتيت عملاً مثل هذا ، وكفى أنك فى مثل هذه الحال من اليأس

على حين أنغمس أنا في ملاذى بيد أنى أكتب هذا كله يا فارنيكا حتى
أنخفف من عذاب ضميرى . ويجب أن أخبرك يا عزيزتى صراحة أنى
أقاسى الآن أسوأ ظروف مرت فى حياتى :

فصاحبة الدار لاندكاد تطيق رقيبى ولاتمكن لى أى احترام وهناك
الكثير الذى أحتاج على حين تثقلنى الديون ، أما عن كتبة الوزارة
فقد كانوا دائماً لا يطاقون أما الآن فإنهم أسوأ حالا . هذا مع حرصى
على إخفاء كل شئ عن الناس جميعاً بل إننى أحاول أن أخفى نفسى ،
وأسمى جهدى للتسلل خلسة فى الدخول والخروج دون أن يلحظنى أحد
وليس عندى من الشجاعة ما أتكلم به مع أحد اللهم إلا أنت .

ولكن .. ماذا لو أخفقت فى هذا القرض ؟ ولكن كلا .. من
الأفضل يا فارنيكا ألا تفكرى فى هذا ، فليذا نعذب أنفسنا بمثل هذه
الآفكار ؟ إننى أقول يجب ألا تجزعى ولكن لو حدث هذا لا قدر الله
فماذا تكون حالى ؟ صحيح أنك ستظلين قريبة منى ، ولن تقدرى على
الانتقال إلى مسكن آخر ولكن كيف سأجرؤ أنا على العودة
إلى المنزل فى مثل هذه الحال ؟ سأكون ضائعاً ، محطمأ .

كان من الواجب أن أخلق لحتى بدلا من الإطالة فى الحديث فلعل
حلاقتها أدعى لأن أبدو فى مظهر أكثر احتراماً ، وكما تعلمين أن الثقة
لا تمنح إلا لدوى المظهر الحسن .. ولكن ليساعدنى الله سأأكلو صلواتى
سم أمضى فى طريقى .

م . دفشكين



ه من أغسطس

عزيزى المحترم ماكار أليكسفش

لا تدع اليأس يتطرق إلى نفسك

بربك ، فإذا سيكون مصيرنا لو فعلت . .

كيفانا مانحن فيه من متاعب .

هذه ثلاثون كوبكا من الفضة أبعث بها إليك ، واعتذرنى إذا لم
أستطع أن أرسل أكثر منها ، ولكن عاها تكفى لتصلح بها من أمرك
حتى غدا ، أما أنا وفيدورا فلا نكاد نملك شيئاً ، ولست أدري ماذا
نحن صانعان غداً ؟

إنه لأمر محزن ياماكار ولكن بربك لانتحزن ، صحيح أنك فشلت

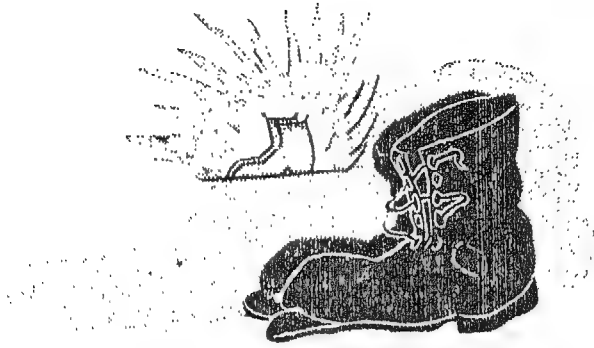
ولكنك على الأقل فعلت كل ما في وسعك . فيدور ترى أنه من الأوفق أن نستمّر في إقامتنا هنا ، وأنه حتى لو انتقلنا إلى مسكن آخر فني استطاعهم أن يستدلوا علينا إذا شاءوا . ولكني لازلت أرى أنه لا مناص من انتقالنا وقد كنت أود أن أطيل الكتابة لولا أنني منحرفة المزاج .

يا لك من شخصية غريبة حقاً يا ماكار اليكسفتش ، إنك تكثرت كثيراً لكل شيء وسيجعلك هذا دائماً أنعس الناس . وإنني لأقرأ خطاباتك بعناية كبيرة وأستطيع أن أستشف منها أنه ليعنيك أمرى أكثر مما تعني بنفسك . والناس جميعاً ترى أنك طيب القلب ، وكـ كنت أود أن أعتقد مثلهم . ولكن اسمح لي يا ماكار أن أقدم لك نصيحة ودية : إنني لك لشاكرة معترفة بجميلك على كل ما صنعت من أجلي وإنني لأحس بهذا إحساساً عميقاً ، تخيل إذن كيف يكون شعوري إذ أرى أنه بعد كل هذه النكبات .. التي كنت أنا السبب المباشر فيها .. تتبادى في مشاركتي في أفراحي وأتراحي وأنيك تعيش من أجل العناية بي فحسب . ولا غرو إذن إذا غدوت إنساناً بائساً مادمت تملأ قلبك بآلام الناس . وكـ راعني منظر ك عندما أقبلت لزيارتى بعد انتهائك من عمالك اليوم . لشد ما كنت وجللاً شاحب الوجه ، كنت شبح نفسك فحسب ، ولماذا ؟ .. لأنك كنت تخشى أن تصرح لي بإخفاقك فتصدمني ، وأى عبء انزاح عن كاهلك عندما رأيت أنني على استعداد للضحك . ألا ، فلتكف عن القلق يا ماكار ... وليفشرح صدرك . إنني اتوسل إليك أن تتعقل فستنتهى

الأمور على خير مايرام... وسترى ، وإلا فستكون حياتك قاسية مادمت
تحزن وتتألم من أجل الآخرين كما تفعل الآن .

إلى اللقاء يا صديق ... وأرجو مرة أخرى ألا تشغل بالك بهمومي ..
أرجوك ...

ف . د



١٠ من اغسطس

فارنيكا... يافتاى الوديعه

هذا شيء جميل حقاً يا ملاكى ... جميل حقاً أن تقولى 'لأنك لم تأبهى
كثيراً لفشلى فى اقتراض النقود هذا حسن جداً لأنه يطمئنى حتى ليغمرنى .
بالسعادة . بل بما يسعدنى أكثر أنك ستظلين فى مسكنك حيث انت
الآن دون أن تهجرينى .. أنا الرجل العجوز وأصارح لك أن خطابك
قد أثلج صدرى وأسعدتنى هذه الطريقة التى أظهرت بها تقديرك
لمشاعرى ، واست أقول هذا بدافع من كبريائى فحسب ، بل لآئننى رأيت
أنك تحبيننى وتقدرين كل أحاسيس قلبى ...

ولكن فى الحديث عن قلبى ؟ فاق قلبى فى نهاية الأمر غير قلبى أنا
فحسب ... ولكنك تقوين يا عزيزتى إن المرء يجب ألا يكون ضعيف
القلب هذا حق يا حياى : يجب ألا يكون المرء ضعيف القلب ، ولكنى
مع هذا يا صغيرتى هناك أشياء أخرى كثيرة يجب أن نفكر فيها ، فهناك

النعال أيضاً ، النعال التي سأتنعلها غدا إلى مكتبي . . . هذه هي المشكلة ومثل هذه المشكلات جديرة بأن تحطم المرء ، وجديرة بأن تحطمه تماما . وليس ما يعذبني هو شعوري أنا فأنا لا أعبأ بشيء ، ولا يضيرني أن أمضي في ملابسي الداخلية عارى القدم في الصقيع القارس . ماذا يعنيني هذا كله ؟ فما أنا إلا رجل ضئيل من عامة الشعب ، ولكن ماذا سيقول الناس ، وأى السنة سوء ستنتطلق من أفواه أعدائي لو رأوني أمضي بغير معطف ؟ وما يرتدى المرء معطفا إلا خشية هذا ، بل لعله لا يلبس النعال إلا خشية هذا أيضا ، وهكذا ترين يا فارنيكا أن النعال أمر جوهري إذا ما أردت أن أحتفظ بشرفي أو سمعتي . . . والنعال الممزقة قد تفقد المرء هذا وذاك معا وثقي أن هذه هي الحقيقة يا حبيبتي . فلقد علمتني هذا سنوات من التجربة ، وعلى هذا فمن الخير أن تصدق رجلا عجوزاً يعرف جيداً حقيقة العالم وحقيقة البشر الذين يعيشون فيه ؟ ولا تصغ مطلقاً لتفاهات الكتاب والمؤلفين . .

ولكنني لم أخبرك يا حبيبتي بعد بما حدث اليوم . إن ما قاسيته هذا الصباح يكفي لأن يشقى به شخص آخر عاما بأكمله وإليك ما حدث .

لقد ذهبت في ساعات الفجر الندية لكي أجد الرجل في منزله . وحتى لا أتأخر عن موعد عملي ، وكانت السماء تمطر والأحوال تملأ الطريق . فالتفت في معطفي ، وأسرعت في طريق وأنا أفكر وأدعو السماء .

— يا إلهي الرحيم . . لغفر لي خطاياي واستجب دعائي هذه المرة
فحسب . وحينما مررت بكنيسة رسمت علامة الصليب ودعوت
الله من أعماقي أن يغفر لي خطاياي ، ولكنني تذكرت أن الله لا يحب
الضعفات أبداً . ففضيت في سبيلي نائها مع أفكاري لا أدري شيئاً ولا
أعبأ بشيء مما يصادفني في طريق . . وكانت الشوارع خالية ، والقلائل
الذين لقيتهم كانوا مثلي تماماً ، غارقين في القلق والهموم . . ولا عجب . .
إذ لا يمكن أن يمضي في مثل هذه الطقس إلا من كان مثلي . والتقيت
بحفنة من العمال البؤساء ، ولكن الأشرار دفعوني في طريقهم غير
عابئين . ولجأة أحسست بالحنق والاضطراب فلم أعد أعبأ بالمال . .
وقلت لنفسى : محاولة أخرى ثم أدع الأمر كله ، وما إن وصلت إلى قنطرة
و فوسكر سنسكي ، حتى انفصل نعل حذائي وبدأ يصفق ، وبات من
العسير علي أن أتابع سيرى ، ولم يقابلني في مثل هذه الحال من بين خلق
الله جميعاً سوى يرمولايف — وهو ناسخ فحسب ، مجرد كاتب صغير :
وتسمر في مكانه حين رأيته وتبعني بنظراته كما لو كان ينتظر منى قطعة
من نقود يشرب بها نخب صحتى . . وحدثت نفسى قائلاً : يشرب نخب
صحتى . . ومن يهتم بصحتى الآن . . ولكنني لم أعبأ ومضيت في طريق .
ولم أستطع أن أمضى إذ اتابني التعب فوقفت لاستريح هنيئة ، ثم
واصلت السير ونظرت حولي أبحث عن شيء أركز فيه انتباهى ، شيء
ما أشغل به خاطرى أو يشجعنى ، ولكن عبثاً حاولت فلم تطرأ لى ولو

عسكرة واحدة ثم اندفعت في بركة من الأوحال ، فعلتني الأقدار حتى كدت أبكي خجلاً ، وأخيراً لمحت من بعيد منزلاً خشبياً أصفر اللون وطابقه الثاني مثلث الشكل . وقلت لنفسى .

— هذا هو بيت « ماركوف » تماماً كما وصفه لى إيفانوفتش (وماركوف هذا هو من يفرض الأموال بالربا) ، ولكنى كنت عصبياً ، وعلى الرغم من معرفتى بأن هذا هو بيت ماركوف أحببت أن أتيقن فسألت البواب لمن يكون هذا المنزل أيها الصديق ؟

وأجابنى الرجل لإجابة تنسم بالجهلاء ، لإجابة بواب حقاً إذ قال :

.. هنا منزل ماركوف إذا كان يعينيك أن تعرف !

إن هؤلاء البوابين متبلدو الإحساس ! ولكن لم آبه له طبعاً وإن ترك هذا الرد مرارة فى فى . إن الأمور يتوالى بعضها من بعض ، وتنعكس كل تفاهة على حالة المرء . وطففت بمنزل الرجل ثلاث مرات وفى كل مرة كنت لأجد الشجاعة على الدخول . وقلت لنفسى :

— إنه لن يعطينى النقود .— لن يعطينى إياها أبداً . لى غريب عنه رث المظهر ، والموضوع حرج — ولكن دع المصادير تجرى فى أعنتها . سأفعل ذلك حتى لألوم نفسى من بعد وعلى كل حال فإن يأكلنى الناس .

وهكذا فتحت البوابة في حذر ، ودخلت ، ولكن منذ هذه اللحظة بدأت المشكلات — لقد انبرى لى جرو صغير خبيث جعل ينبج نباحاً متواصلاً ، وتفاهة حقيرة مثل هذه قد تدفع بالإنسان إلى الجنون ، فمضى توهن من عزمه وتقلب كل مشروعاته رأساً على عقب ، فقد دخلت المنزل وأنا أشبه بالموتى مني بالأحياء ، فاذا بى أواجه مشكلات أخرى : فعلى عتبة الباب تعثرت بامرأة عجوز ، ولم أكن قد تبينتها في غبش الفجر وكانت عاكفة على أوعية لبن تملؤها فانقلبت الأوعية طبعاً فأخذت تعوى وتصرخ فى وجهى قائلة .

— ماذا تفعل هنا ؟

ثم عادت تصب على رأسى الشتائم مرة بعد أخرى .

وإنى لأروى لك هذا يا فارنكا لأن مثل هذه الأشياء تحدث لى دائماً وفى ظروف مثل هذه وهذا مصيرى . أن أقع دائماً فى مشكلات . وأقبلت على الضجة ربة الدار وهى امرأة فنلندية قبيحة المنظر ، فسألته هل يقطن ماركوف هنا ؟ فأجابتنى هذا ليس بمنزله ، ولكنها عادت تنفحصى ، ولعلها غيرت رأيها إذ سألتنى عن الدافع لى لى رؤيته ؛ وشرحت لها أن يميلان إيفانوفتش قد أرسلنى وأخبرتها بكل شيء . وعندئذ نادى العجوز ابنتها ، وهى فتاة أميل إلى الطول حافية القدمين وقالت لها :

— إستخدمى أباك ، إنه فى الطابق الثانى مع المستأجرين .

ثم التفتت إلى وقالت .

— تفضل بالدخول .

فدخلت ، وكانت الغرفة مريحة إلى حد كبير وقد زينت جدرانها
بصور أغلبها لقواد عسكريين ، وفى الغرفة أريكة ومنضدة مستديرة ،
وأصص ريحان على النافذة . وقلت لنفسى : لعلى أحسن صنعا لو خرجت
قبل أن تفوت الفرصة ، وكدت أركض خارجا يا عزيزتى ، وقررت أن
أعود إذا كان الغد ، لعل الجو سيكون أفضل وصور القادة على الحائط
تبدو أقل غضبا ، ودون أن أسكب اللبن كما سكبته اليوم . وكنت على وشك
أن أتخذ طريقى إلى الباب عندما دخل هو : رجل ضئيل عجوز زانغ
البصر ، فى ثوب يعالوه الوهن قد شد حول الخصر بميل ، وعندما سألتنى
عن مظهرى حدثته عن يميليان إيفانوفتش والأربعين روبلا التى أريد —
ولكننى لم أحاول أن أنهى حديثى ، فقد رأيت فى عينيه أننى قد فشلت .
وأخيرا قال :

— أنت فى حاجة ملحة إلى المال ، ولكن ليس عندى مال — وأى

ضمان يمكنك تقديمه إلى . ؟

وأوضحت له أن ليس عندى ضمان أقدمه ، وذكرت ثانية يميليان

إيفانوفتش ، وأكدت له مرة أخرى أن الأمر بملح ، فسألتنى .

— وما علاقة يميليان إيفانوفتش بهذا ؟ ليس عندي مال ..

وقلت لنفسى : من الطبيعى أنك لا تملك ، وكنت أعرف هذا طيلة الوقت . آه يا فارنكا . لو أن الأرض قد انشقت فابتلعتنى ساعتها ؛ لقد تسمرت قدماى ، وتمسكتنى قشعريرة مباغته . وجعلت أنظر إلى الرجل والرجل ينظر إلى وتكاد عيناه تقولان .

— ماذا تنتظر . ؟ من الأفضل أن تمضى ..

ولولم يكن هذا عملا جديا للملأنى الضيق .

— ولماذا تريد المال ؟

هذا هو بالضبط السؤال الذى وجهه إلى ..

وبدأت أتحدث مرة أخرى لمجرد الحديث فحسب : ولكنه لم يعد ..
يصغى إلى وقال :

— كلا .. ليس عندي مال . إني لآسف .

ولكنى رحت أقنعه وأتوسل إليه : فوعده أن أرد إليه ماله فى الموعد الذى يحدده ، بل قبل الموعد الذى يحدده ، وأن أدفع أية فائدة يطلبها . بل طلبت منه أن يعطينى جزءا من المبلغ الذى طلبته أول الأمر ؟ وفى هذه اللحظة كنت أفكر فيك يا حبيبتي ، وفى نصف الروبل الذى أعطيتنى ، وفى كل مشكلاتنا ومشروبنا حياتنا .

ولكنه قال :

— كلا — لا تذكر الفائدة : يجب أن تقدم أى شيء ضماناً لوفائك بالدين ، وأقسم بالله أنى آسف .

بالله . . . ذلك اللص يعيث باسم الله . .

والحق أنى لا أذكر كيف تركت الدار ، واخترقت الشارع والكوبرى . كنت مجهداً يكاد يقتلنى البرد . ووصلت الديوان متأخراً ، فى العاشرة صباحاً . وأحييت أن أنظف الملابس ، ولكن منعى عن هذا سبخير يوفى الحاجب ، إذ كان يخشى أن أفسد الفرشاة ، والفرشاة من أملاك الحكومة قبل كل شيء . وإلى هذا الحد بلغ امتنانهم لى يا عزيزتى ، وهذا هو ما يقتلنى يا فارنسكا وليست الحاجة إلى المال ولكنها هذه البسمات والنكات والتليجات . وماذا لو تصادف وسمع بها سعادته .

— يا لها من أيام شريرة تلك التى أحياداً ؟ . .

لقد أعدت تلاوة خطابانك كلها اليوم يا حبيبتى ، كم هى حزينة . إلى اللقاء يا عزيزتى . وليباركك الرب .

م . دوفشكين

ملاحظة : لقد حاولت أن أصف آلامى بشيء من التمسكاهة نأسليك ، ولكنى لم أفجح . سأزورك يا عزيزتى . سأزورك غداً بكل تأكيد .



١١ من أغسطس

فارفارا أليكسييفنا . . يا يمامتى الصغيرة

. . لقد ضعت ! بل لقد ضاع كلانا دون أمل ! لقد تحطم كل شيء ،
سمعتى . . وشرفى . لقد قضى على وقضيت أنا عليك يا عزيزتى المسكينة ،
فأنا السبب فى ضياعك ؟ . إنهم يضطهدوننى ويحتقروننى ويسخرون منى ،
بل لقد اجترأت ربة الدار على أن تلعننى . بل إنها صاحت فى وجهى فعلا
وعاملتنى كما لو كنت شيئا قدرا ! وفى ندوة راتازيف قرأ أحدهم بصوت
مرتفع مسودة خطاب كنيته إليك : وكانت قد وقعت من جيبي . وكم
علقوا بنكاتهم علينا ! وقالوا كل ما يمكن أن يخطر ببال ! وكانوا
يقهقهون ! . . هؤلاء الخونة . فثرت واقتحمت الغرفة ، ووصمت
« راتازيف » بأنه صديق غادر خائن ، ولكنه رد على بأننى أنا الخائن
لا هو ، وأننى رحت أغزو قلوب النساء ، ونعنتى بالخبث وبأنى زير
نساء . وهذا هو ما يدعونى به كل شخص الآن . زير نساء . لأنه لأمر
فظيح يا حبيبتى ، ولكنهم يعرفون كل شيء . كل ما يمكن معرفته عنى
وعنك . بل تخيلى أن فالدونى قد جاراهم فى سخريتهم ، عندما طلبت منه
أن يذهب إلى البقال ليشتري لى شيئا رفض قائلا إنه مشغول . وقلت :

— ولكنّه واجبك .

فقال : كلا ليس هذا واجبي ، لأنك لا تدفع إيجار غرفتك .

ولم أستطع أن أتحمّل مثل هذه الإهانة من فلاح غبي ونعته بالحماقة .
أتعلمين بما أجاب ؟ . إن الذي يقول هذا هو الأحمق ! ولم أصدق أن
الرجل في كامل وعيه ، فصحت به :

— أنت ثمل أيها الغبي .

فردد على قائلاً :

— وهل سكرت بمالك ؟ لماذا : إنك ما تشتري به لنفسك شيئاً يرد
عليك وعيك بعد ليلة الأمس ؟ ألم تحاول إستجداء عشرة كوبكات
من السيدة ؟ .

ثم أضاف إلى هذا كله .

— إنك نوع لطيف من السادة !

هذا هو ما صرنا إليه يا فارتكا حتى لقد بت خجلان من حياتي .
لقد عوملت كمنبوذ طريد لا يحمل جواز المرور . أى نكبات تنزل بي ؟
لقد قضى على قضاء لا أمل بعده .



١٣ من أغسطس :

لقد تكاثرت علينا التكبّات يا عزيزى ماكار حتى لا أكاد أدرى
ما العمل ؟ . وماذا سيكون مصيرك ؟ وكيف يمكننى أن أكون ذات
فائدة ما لك ؟ ولقد أحرقت يدي بالمسكواة اليوم فقد أنلت من يدي
وأحرقتني . وماذا سأفعل الآن ؟ إني لا أستطيع العمل ، وفيدورا
مريضة منذ أيام ثلاثة . إني في هم مقيم . أرسل إليك ثلاثين كوبكا من
الفضة ، وهذه هي كل ما نملك ، ويعلم الله أنني كنت أحب أن أمد لك
يد العون أكثر من هذا ، ولكن الحال بلغت حدا يستدر البكاء . إلى
اللقاء يا صديق العزيز وسيكون من دواعي عزائي لو أقبلت لريارتي اليوم .

ف . د



١٤ من أغسطس ..

يا مكار أليكسيغتش ..

.. ماذا دهاك ؟ هل فقدت خوفك من الله ؟ إنك تدفعني إلى الجنون . يجب أن تخجل فأنت تحطم نفسك . فكر في سمعتك . أنت الرجل المحترم الوقور ؟ كيف استطعت أن تفعل هذا ؟ وماذا لو سمعوا به في الديوان ؟ ستموت خجلاً حينذاك . تذكر شعرك الأشيب . ولا تفقد خشيتك من الله . فيدورا تقول إنها لن تساعدك بعد اليوم ، ولن أساعدك أنا أيضاً . أظن أن مسلكك لا يعينني ؟ . أنت لا تعلم كم أفاى بسبيك ؛ فما أكاد أجرو على الظهور في درج بيتي على حين أن كل شخص ينظر إلى ويقول مختلف الأقاويل : لأنهم يقولون إنني قد ارتبطت « بسكير » . وعندما يحملونك ثللاً إلى المنزل أسمع الناس

يقولون : « لقد عادوا بذلك الكاتب مرة أخرى ، ويكاد العار يبيكني .
أقسم لك أننى سأرحل عن هنا فإنى لأوثر العمل لكأمة أو غسالة على
البقاء هنا .

لقد طلبت منك أن تأتى لرؤيتى ، ولكنك لم تفعل ، فما تغنى دموعى
وتوسلاتى شيئاً عندك يا ماكار اليكسيفتش . ومن أين لك بالمال ؟ . .
بربك ، هلا تعتنى بنفسك ! إنك تحطم حياتك . . فلماذا ؟

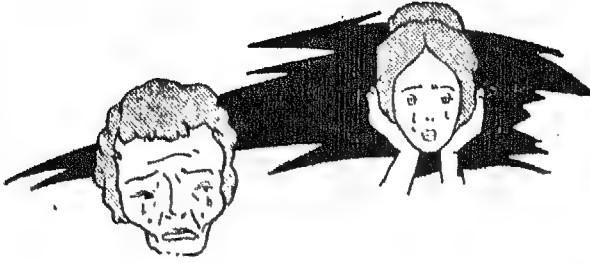
ولقد بلغنى أن ربة الدار لم تسمح لك بدخول الشقة ، فكان لزاماً
عليك أن تقضى ليلتك فى الدهليز . . وباللعار . . أى مرارة شعرت بها
عندما بلغنى هذا .

تعال لزيارتنا فستشعر بالسعادة بيننا ، وسنقرأ معاً ، ونذكر الماضى .
وستروى لنا فيدورا عن الأماكن المقدسة التى زارتها . وأستحلفك بالله
أيها العزيز ألا تحطم نفسك وتحطمنى . فأنا أعيش من أجلك أنت وحدك
وما من شئ يمنعنى من الرحيل عن هنا سواك . كن رجلاً شريفاً لا يخضع
للرذائل ، وتذكر أنها ليست خطيئة أن تكون فقيراً . ولماذا يبلغ بك
اليأس هذا الحد ؟ إن الله رحيم وستنتهى كل متاعبنا ، ولكنك
يجب أن تتحملها حتى تزول .

أبعث إليك بعشرين كوبكا لتشتري بها طباقاً لضيوفك أو أى شئء

آخر تحتاج إليه الآن ، ولكنى أناشدك الله ألا تنفقها على الخمر .
أرجوك أن تأتى لزيارتنا ، وإذا كنت تتخجل أن تأتى كما تعودت
فدعك من خجلك هذا ، تخل عن كبريائك المزيفة ، واطلب التوبة مخلصاً
. وثق في الله الذى سيدبر كل خير .

ف . د



١٩ من أغسطس

فارفارا أليكسييفنا، يا عزيزتي الجميلة ..

لأني خجل حقاً يا حيائي حتى لأداري وجهي خجلاً ، ولكن أى ضرر
قد وقع فعلاً يا عزيزتي ؟ ولماذا لا نسعد القلب مرة في العمر ؟ لأنني أنسى
ساعتها أن خروقي حداثي تؤلمني ؛ لأنني إذا ما فكرت أجد أن الخروق
لا شيء ، مجرد تفاهة ؛ وستظل خروقا قدرة بشعة لاخير فيها .

بل الأحذية أيضاً لغو فارغ . وإذا كان حكماء اليونان قد استطاعوا
المشي دونها فلماذا نكلف أنفسنا شيئاً لا جدوى منه ؟ لماذا يسخر مني
الناس إذ ذن ويدأبون على إهانتني ؟ . ألم تجدي ماستكتيفينه خيراً من
هذا يا عزيزتي الصغيرة ، أخبري فيدورا على لساني أنها امرأة حاوية
العقل ، امرأة قاسية متعبة وغبية أيضاً ، وحققاء إلى أقصى حد . أما عن
شعري الأشيب فلقد أخطأت يا عزيزتي فلست من الهرم كما تتوهمين .
يميليان يرسل تحياتته . ولقد كتبت إلى تقولين إنك تحطمت بسببي وبكيت

وأقول إنني أيضاً قد تحطمت بسديك ، وبكيت كذلك .
وختاماً أتمنى لك صحة طيبة ومزاجاً طيباً . . أما عنى فأنا بخير ،
وسأظل . . ياملاكى الصغير

صديقك

ماكار



٢١ من أغسطس

صديقتي العزيزة المحبوبة فارفارا أليكسييفنا

إنني لأشعر بجرمي يا عزيزتي ، ولكن ما الفائدة ، مادمت قد شعرت
به من قبل عند ما ارتكبت ذنوبي وكما أشعر الآن ؟ ولكنني مع هذا
عدت وارتكبتها رغم شعوري الكامل بالذنب .

يا حبيبتي العزيزة : لست بالشرير المتحجر القلب ، ولكني يؤذيك
إنسان ياطفأني يجب أن يكون له قلب نمر ضار ، أما أنا فقلبي قلب حمل
وديع ، ولست بالمتوحش أبدا كما تعرفين .

هذا إلى أنني لست وحدي المعلوم يا عزيزتي ، وليس قلبي ولا عقلي
أيضا . أما من المعلوم فذلك ما لا أستطيع قوله إنه شيء غامض يا عزيزتي
لا أستطيع تبينه .

لقد بعثت إلى ثلاثين كوبكا من الفضة ، ثم أرسلت عشرين أخرى ،
وجلسنا أنا هناك . . أرقب فضة اليتيمة المسكينة ، وقلبي يخفق الماء ،

فأفقد أحرق يدك ولا تستطيعين عملا وسرعان ما ستهلكين جوعا ،
ومع هذا ترسلين إلى نقودا تشتري بها طباقا لعليون ! يا إلهي .. ما هذا
الذي فعلت ؟ أأنتهب بتسمة فقيرة دون رادع من ضميري ؟ وملككتني
كآبة عميقة يا عزيزتي ، فشعرت بادى الأمر أننى تافه وأن رفيع أحذيتي
الخبر منى . وهكذا بدالى مضحكا أن أعتبر نفسى شيئا له أهميته ، بل على
العكس لقد قررت أن أعتبر نفسى شيئا لا أهمية له ، شيئا لا جدوى منه .
وما كدت أفقد احترامى لنفسى حتى أنكرت كل فضائلى واحترامى
لنفسى . وكان هذا هو بداية سقوطى .. إنه القدر كما تعلمين .

وبدأ الأمر بأن خرجت طلبا لهواء ينعشنى ، ثم تحققت الأمور ،
فأفضى أمر إلى غيره وهكذا : وكانت الطبيعة حزينة ، والجو بارد والسماء
تمطر . وقابلت يميليا فى طريقى .. وكان قد رهن كل شيء يافارنيكا :
كل ما يملك ارتهنه ولم يكن لديه كسرة من خبزه طيلة يومين ، والآن
كان يريد أن يرهن شيئا لا يملك أن يرهن أبدا ، والحق يافارنيكا أننى
استسلمت بدافع من شفقتى وحزنى من أجل الرجل أكثر مما فعلت
بدافع من رغبتي .. وهذا ارتكبت الخطيئة . وبكى كثيرا وتذكرناك .
إنه روح عطوف يميليا هذا .. رقيق طيب القلب .

وأنا أحس بكل هذه الآلام ، وهذا هو السبب فى أن بكل هذه
الاشياء تحدث لى - لأننى أحس . وأنا أعلم كم أنا مدين لك يا عزيزتي ،
وعندما عرفت أنك عرفت نفسى على حقيقتها وعرفت كيف أحبك -

وقبل أن أعرفك يا ملاكي كنت وحيدا في عالمي ، وما كنت أحيا
بل أنام .

وفي تلك الايام تعود الاشرار أن يقولوا كثيرا حتى إن هيتي كلها
خطأ وظلوا بي يحتقروني حتى وصلت أخيرا إلى أن أحتقر نفسي .
تعودوا القول بأنني أحمق غبي حتى وصلت إلى أن أرى هذا عن نفسي .
ولسكن عندما ظهرت في حياتي وكأنك رؤيا من السماء ، أدخلت النور
في وجودي المظلم ، أدخلت النور في قلبي وروحي ونعمت أخيرا
بالسلام ، إذ علمت أنني لست أسوأ من الآخرين .

لعلني أفنقر إلى المنظر أو طريقة الحديث أو الأناقة ولكنني رجل ؛
قلبا وعقلا .

فلما ناه قلبي من عبء النكبات شعرت أنني طريد شريد ولم أعد
أقدر احتراسي لنفسى . . وفقدت قلبي .

والآن وقد ذكرت لك كل شيء ، أتوسل إليك والدموع في عيني
ألا تذكرى هذا الموضوع مرة أخرى ، فأنا حزين مكدود محطم القلب .
لك مني خالص الاحترام يا عزيزتي وسأظل ...

صديقك إلى الأبد

ماكار دوفشكين



٣ من سبعة

إننى لم أتم خطابى الأخير إليك يا ماكار الكسيفتش

إذ ثاب من العسير على أن أكتب ، فثمة لحظات أحب أن أفرد فيها
بنفسى وأن أطلق العنان لوحدى وشجى ، وهذه الحال تعاودنى بكثرة
هذه الأيام ، إن فى الذكريات شيئاً غريباً يصعب على المرء تفسيره
شيئاً ما يحملنى بعيداً دون أن أستطيع له مقاومة حتى لأنسى كل شيء لعدة
ساعات . ولا يمر فى الآن إحساس حزين أو سار دون أن يذكرنى بشيء
يماثله وقع لى فى ماضى أيامى ، ولا سيما ما وقع لى فى طفولتى الذهبية .
يبد أن الكتابة تستبد بى بعد هذه اللحظات ، ويزداد ضعفى فأحلامى
تكاد تستنفد قواى وصحتى تتدهور من سىء إلى أسوأ

ولكننا نتمتع اليوم بصباح مشرق بما يندر فى الحريف ، وأنا
أشعر بالصحة والسعادة ، إذن لقد أقبل الحريف ، كم كنت أحبه حينما
كنت فى الريف ، وكنت طفلة يومئذ ولكن إحساسى بالأشياء كان عميقاً ،

وكانت أمسيات الخريف أحب إلى قلبي من صباحه . وكانت ثمة بحيرة قائمة وراء التل ، على مسافة يسيرة من بيتنا . . . بل إنى لأكاد أتخيلها الآن ، رحبة لامعة كصفحة واسعة من بللور ، وإذا كان المساء هادئاً طواها السكون فلم تصدر همسة واحدة من الأشجار العالية التي تطل عليها وأصبح الهواء رطباً منعشاً . ورصعت قطرات الندى العشب الأخضر ، وبدت الأضواء في النوافذ تحت الأسقف المصنوعة من اللبن في الوقت الذي تعود فيه الماشية إلى مأواها .

في ذلك الوقت كنت أحب أن أتسلل بعيداً إلى بحيرتي ، فأنسى كل شيء من حولي . وأرقب الأشعة تعدو على صفحة الماء وقد انعكست من النيران التي أشعلها الصيادون على الشاطئ ، وأرقب السماء الباردة الزرقاء وقد مستها حمرة ذابلة حتى يطالع القمر ، والهواء الساكن يردد كل صوت كأنه جرس فضي : جناح طائر أو همسة متومة أو سيمكة تعبت في الماء ، ثم يبدو الغمام رقيقاً شفافاً فوق صفحة المياه المظلمة ، ويبدو كل شيء من بعيد غامضاً حتى يختفي : وعلى مدى البصر يلوح كل شيء واضحاً حتى لكانه منحوت : القوارب ، وحافة الماء . والجزر الصغيرة ، أو بزميل مهمل في المياه أو غصن أصفر من شجرة يعبت به التيار وقد يغطي طائر بحري . تخلف عن رفاقه إلى الأعماق الباردة ثم يطفو إلى السطح مرة أخرى . وأنا جالسة هناك ، أرقب وأصغي . وأشعر بمشاعر غريبة فقد كنت طفلة حينذاك .

نعم ، كنت أحب الحريف . لاسيما أواخره : حينما يتم الحصاد
وينتهى العمل كله ، ويتجمع الفلاحون في مكان ما ، يتحدثون ...
ويغننون ... وينتظرون الشتاء .. تبدو الأشياء جميعا مظلمة مكفهره
بالسحب . وحيث ترقد أوراق الشجر الصفراء كثيفة عند أطراف الغابة
الجرداء ، ويشتد ظلام السماء ثم يضرب إلى الزرقة وخاصة قرب المساء
عندما يستقر الضباب وتغوص الأشجار ... تغوص في الأعماق كأنها
مردة أو أشباح ضخمة .

ولقد مضت أوقات تصادف فيها أن أكون خارج منزلى في ساعة
متأخرة من الليل أو أن أتخلف عن الآخرين خلال نزهة في الليل —
ولجأة أدرك أنني وحدى ، فأركض إلى المنزل وقد ملأ الرعب قلبي ،
وأنا أرتعد مثل ورقة في مهب الريح متوقعة أن يواجهني وجه خيف
يحدق في من جوف شجرة ، وعندئذ تعربد الرياح خلال الغابة ، فتزأر
وتئن وهي تسكتسح في طريقها الأوراق الباقية على الفصون العارية . ثم
تتبعها الطيور في جماعات ضخمة تثير الضوضاء ، وتحجب وجه السماء .
وبلأني رعب لا يوصف وأتخيل أني أسمع صوتاً يهمس .

— أسرعى يا طفلى — أسرعى بعيداً ستكون الحال مروعة هنا
بعد قليل . . . أسرعى .

وأركض أنا إلى أن تنقطع أنفاسي ، فإذا ما وصلت إلى بيتنا آخر

الأمـر وجدت كل شيء مرحاً دافئاً ، وناخذ نحن الأطفال ، في فض
الحشخاش أو القول على حين يقرقع الحشـب المندى في المدفأة ، ووالدتي
- عانا ومرييتي العجوز يوليانا تقص علينا ماسلف من أيامها أو تحكى
لنا قصص السحرة والخفافيش الكبيرة ، ويتلاصق بعضنا ببعض
ولكننا نبسم ونحن نصغى إليها . ثم تسودنا فترة صمت : ألم يترك الباب
أحد ؟ كلا إنها فـرولوفنا العجوز تغزل على عجلتها فتتعالى ضحكاتها ، فإذا
آويت إلى فراشي لم أستطع نوما خوفا من الأحلام وقد أهب من نومي
مذعورة في منتصف الليل وأنا أخشى أن أتحرك وأظـل مستيقظة حتى
الفجر .

غير أنني كنت أصحو في الصباح نشيطة منتعشة كزهرة ، فأنظر من
نافذتي وأرى الحقول قد وخطتها الثلوج ، وأن صقيع الخريف
يتشبث بالأفرع الجرداء ، والتدير تغطيه صفحة رقيقة من ثـاج تلـع تحت
الغـام ، والطير تعبت وتطلق صيحات مرحة ، ولكن سرعان ما تذوب
هذه القشرة الرقيقة من الجليد التي تغطي سطح البحيرة — تحت
أشعة الشمس الدافئة ، وإذا بالعالم كله زاه مشرق مفعم بالحياة والسعادة ،
والمواقـد تـأر مرة أخرى ، ونحن نجلس حول موقـد الشـاي وكلبنا
الأسود وبولسكان ، لا يزال يرتعش من برد الليل ، وهو لا يزال ينظر
إلى النافذة ويهـز ذيله مرحاً ، وعربة يقودها فلاح تمر بنا بسرعة في

طريقها إلى الغابة طلباً للخشب ، وكلنا راضٍ مبتهج في تلك الأيام السعيدة .
إن هذه الذكريات تثير بكائي : فالماضي مشرق زاهٍ سعيد ، والحاضر
مظلم كئيب ، وكيف سينتهي هذا كله يا إلهي العزيز ؟

أتعلم أن شعورا يراودني بأنني سأموت هذا الخريف : أنا وائقة
من هذا ، وأنا مريضة — مريضة جدا ، وكثيراً ما أفكر في هذا ،
ولست أريد أن أموت هنا وأن أدفن في هذه الأرض . ولعلّي سألزم
الفراش مرة أخرى كما فعلت في الربيع الماضي ، وأنت تعلم أنني لم أسترِد
صحتي حقاً وها قد عاد المرض يلح علي . لأنني وحيدة تماماً : فقيدورا
غائبة عن الدار طيلة يومها ، وثمة أوقات تمر بي أخشى فيها الوحدة
ويعملوني شعور غريب بأن معي شخصاً آخر في الغرفة ، شخصاً آخر
يحدثني ، وخاصة عندما أفيق من هواجسي . ولعل هذا ما جعلني أكتب
مثل هذا الخطاب الطويل ، فالخوف يهرب عني عندما أكتب .
إلى اللقاء ، فيجب أن أنهي خطابي فقد انتهت ما عندي من ورق ،
هذا إلى أنني مشغولة ، ولم يبق عندي من مال سوى روبل واحد من
الفضة . لأنني سعيدة لأنك أعطيت صاحبة دارك روبلين من الفضة ،
لعل هذا يسكتم فترة من زمن .

حاول أن تصلح من ملابسك ، وداعاً يا صديقي ؛ فأني ضعيفة يصيبني
الكلال بسرعة ، وأي مجهود ينهك قواي ، فكيف إذن سأستطيع العمل
حتى لو تيسر العمل ، إن مجرد التفكير في هذا وحده يقتل كل أمل .
ف . د



٥ من سبتمبر . .

عزيزتي فرانكا .

تبدلت على هذا الصباح أحاسيس شتى . أولها صداع تملسكني ، فضنيت
أتنزه على شاطئ فونتاناكا أطلب منه خلاصا ، وكان المساء رطبا مظلمبا
والظلام يخيم على الدنيا بعد الساعة الخامسة كما تعلين ، ولم يكن ثمة مطر ،
بيد أن الضباب كان أسوأ من أى مطر ، وملات صفحة السماء غيوم
ضخمة متقطعة ، والناس يغدون مسرعين إلى الشاطئ ، والغريب أن
وجوههم جميعا علتها مسحة من كآبة وقنوط : كانوا فلاحين سكارى ،
ومعقوفى الأنوف عراة الرءوس ، ونساء فنلنديات فى أحذية طويلة ،
وعمالا ، وسائق عربات ، وكتابا حكوميين من كل نوع ، وصديا نجيلا
مسلولوا فى قبص مخطط قد سود الشحم وجهه وأمسك فى يديه قفلا
ضخما ، ثم جنديا مطرودا من الخدمة فارح الطول . وكان يبدو أن
الناس يتدفقون كل يوم فى مثل هذه الساعة ، وكانت التزعة نفسها جديرة

بالملاحظة أيضاً إذ كيف يمكن أن تدسج لكل هذا العدد من القوارب ؟ وعلى الكوبرى جلست نساء يبعن كعكاً معسلاً مبللاً ، وتفاحاً عفنًا ، لكن مجموعة كبيرة منهن كن ملطخات بالأوساخ والقذارة . وأدركت أن فوتاتانكا ليست بالمكان الذى يتنزه فيه المرء ، فليس فيه غير أحوال تزل منها القدم ، ومنازل عالية تنفث الدخان . والضباب يكتنف كل جانب ويحيط بالرءس . . . يا له من مساء حزين كان ذلك المساء .

وعندما انحرفت إلى شارع جوروفايا كان الظلام قد أرخى سدوله وبدأ العمال ينثرون مصابيح الغاز . ولم أكن قد زرت هذا الشارع منذ أمد بعيد ، فبدأ لى مليئاً بالحركة والحياة ، ففيه المحال الجميلة ، كبيرها وصغيرها ، كلها تلبج وتزهو بما فيها من بضائع غالية وزهور وقبعات محلاة بالأشرطة ، حتى ليظن المرء أنها ما وضعت كلها على هذا النظام إلا حباً فى الجمال فحسب . أيشترى الرجال أشياء جميلة كهذه لزوجاتهم ؟ إنه شارع غنى يعيش فيه كثيرون من الخبازين الألمان ولا بد أنهم أغنياء . والشوارع ملىء بالعربات . ولست أدري : كيف تتحملها حجارة الطريق ؟ وأى عربات فاخرة كانت تلك التى تبدو لامعة النوافذ محلاة بالحرير والقطيفة ، على جانبيها القواصون بشاراتهم وسيوفهم .

وفطرت داخل كل منها أثناء مرورها وأخذت أنسام هل السيدة التى بداخلها كوتيسة أو أميرة ؟ وكانت تلك الساعة هى الوقت المعتاد الذى يذهب فيها الناس الى المراقص والحفلات الساهرة . ولعله من

الممتع أن يشاهد المرء عن كذب كوثنية أو حتى أى سيدة عظيمة . أنا واثق أنها متعة كبيرة ، ولم أحظ أنا بمثل هذه الفرصة اللهم إلا وأنا أسترق النظر فى عربة كما فعلت ساعتها . ولقد فكرت فيك أيضا ، وكما آلمنى هذا يا عزيزى المسكين . لماذا أنت بائسة يا فرانكا ؟ . وأى شيء ينقصك عن الآخرين يا ملاكى الصغير العزيز ، وأنت جميلة مثقفة طيبة القلب ؟ فلماذا تقسو عليك الحياة ؟ ولماذا يجب أن يعيش رجل طيب فى عوز وحاجة على حين نسعى السعادة إلى آخرين طائعة مختارة ؟

وطبيعى يا عزيزى أنه ما كان ينبغي أن تخطر لى مثل هذه الأفكار ، لأن لها مذاق الفكر الحر — لكنى لا أملك إلا أن أتساءل : لماذا يتسم الحظ لشخص على حين يعبس لآخر لا لسبب إلا لأنه ولد يتيما ؟ وكما يحدث فى القصص الخيالية قد يتسم الحظ أحيانا لايفانوشكا العبيط وحينئذ يعبت فى خزائن ميراثه ويعب الخمر ، ويمرح على حين يقف حطام مسكين آخر يلحق شفقتيه ويرقبه متحسرا ، فهذا كل ما يستطيع ! وهذا كل ما ولد من أجله !

لأنها الخطيئة طبعاً أن يفكر المرء على هذا النحو ، ولكن هناك بعض الخطايا التى تنسلل إلى القلب قبل أن يحس بها المرء .

لقد تساءلت لماذا لا يمكنك أن تركب إحدى هذه العربات يا حبيبتى العزيزة — تركبينها مع القادة والأمراء . لامننا نحن السمك الصغير ! وكلهم متلهف لا بتسامتك الحلوة ؟ ستلبسين عندئذ الذهب والفضة بدلا

من هذه الملابس المتواضعة من التيل . وهل ستكونين حينئذ رقيقة
الصحة كما أنت الآن ؟ .. كلا . . لا شيء من هذا القليل . . ستكونين
حينئذ كدمية أتقن صنعها . . جميلة عذبة ممثلة الجسم ؛ موردة الخدين .
كم كنت أتمنى عندئذ أن أختلس النظر إلى نوافذك المضيفة كي أرى
خيالك وأطمئن أنك سعيدة راضية .

يا إلهي ، كم يكون هذا ممتعاً يا حبيبتي . . يا عصفورتي الصغيرة . .
ولكن كيف تسير الأمور في الحياة الواقعية ؟ لا شيء سوى الأسى ، وقد
دفعك إلى الأسى أشرار ، لم يفهم ما ألحقوا بك من إهانة فأضافوا
إليها الأذى وأزعجوك بما أشاعوا عنك من اختلاقات كاذبة . . المجرد
أنه يتبختر في معطف جديد ، ويستطيع أن يفخر لك خلال منظاره
الذهبي يتخيل هذا العمر المفتون أنه يستطيع استباحة الحقوق ، وأن
على الناس أن تتحمل وقاحته . . ؟ أيجب أن يفعل المرء هذا حقاً ؟

ولماذا . . ؟ ألائك يقيمة عاجزة . . دون أصدقاء أقوياء يمنحونك
حمايتهم ؟ . . أى نوع من الرجال ، ذلك الذى يعتدى على فتاة صغيرة
عاجزة ؟ . إنه قطعة من نفاية وليس بالرجل أبداً . . رجل فى المظهر
لحسب ! أنا واثق أنه كذلك ، بل إن عازف الأرغول الذى صادفته
فى شارع جورو خوفاً اليوم أكثر رجولة منه . وماذا يعنيه لو قضى
يومه فى الشارع انتظاراً لسكوبك واحد ؟ انه سيد نفسه ويتكسب قوته
بنفسه ، إنه ليس سائلاً بل يحترق من أجل متعة الناس ، اليكم أمتعوا

أنفسكم أفهَذَا مَا خَلَقْتُ أَنَا لَهُ ! وَلَعَلَّهُ شَحَازٌ بَعْدَ كُلِّ هَذَا — شَحَازٌ حَقِيقٌ ، وَلَكِنَّهُ شَحَازٌ شَرِيفٌ مِنْ أَجْلِ هَذَا كُلِّهِ ، وَبِالرَّغْمِ مِنَ التَّعَبِ وَالْجُوعِ يَدَأُبُّ هُوَ عَلَى عَمَلِهِ بِطَرِيقَتِهِ الْخَاصَّةِ ، بَلْ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا .

وَهُنَاكَ يَا حَيَاتِي الْكَثِيرُونَ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ مُتَوَاضِعَةٍ ، وَلَا يَتَكَسَّبُونَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلَ ، وَلَكِنَّهُمْ إِنْ يَنْجِنُوا لِلْمَخْلُوقِ أَوْ يَسْتَجِدُّوا لَا كَفٍّ ، وَأَنَا بِالضَّبْطِ مِثْلُ عَازِفِ الْأَرْغُولِ هَذَا ، أَغْنَى أَنِّي لَسْتُ مِثْلَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَكِنِّي مِثْلُهُ تَمَامًا مِنْ حَيْثُ الْإِحْسَاسِ الرَّقِيقِ الشَّرِيفِ فَحَسَبَ . وَأَنَا أَبْذُلُ جَهْدِي مَا اسْتَطَعْتُ . فَاذَا اسْتَطِيعَ أَنْ أَفْعَلَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ؟

إِنْ مَا ذَكَرْتَنِي بِعَازِفِ الْأَرْغُولِ هُوَ أَنَّنِي أَحْسَسْتُ بِفَقْرِي الْيَوْمَ أَكْثَرَ بِمَا أَحْسَسْتُ بِهِ فِيمَا سَبَقَ مِنْ أَيَّامِي ، وَوَقَفْتُ فِي الطَّرِيقِ أَرْقُبُ عَازِفَ الْأَرْغُولِ يَعْرِفُ ، فَعَلِمْتُ هَذَا كَيْ أَهْرَبَ مِنْ نَفْسِي كَيْ أَطْرُدَ الْأَفْكَارَ السَّكِينِيَّةَ بَعِيدًا عَنْ عَقْلِي . وَوَقَفْتُ بَعْضُ سَائِقِ الْعَرَبَاتِ وَامْرَأَةِ شَابَةِ ، وَفَتَاةَ زُرِّيَةِ الْمَنْظَرِ ، يَرْقُبُونَهُ مَعِيَ أَيْضًا . وَكَانَ عَازِفُ الْأَرْغُولِ قَدْ اتَّخَذَ لَهُ مَوْقِعًا تَحْتَ نَافِذَةٍ مِنَ النُّوَافِذِ . ثُمَّ رَأَيْتُ طِفْلًا فِي حِوَالِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عَمْرِهِ لَوْلَا هَزَالُهُ وَسَقَمُهُ لَبَدَأَ رَائِعَ الْمَظْهَرِ ، وَكَانَ حَافِي الْقَدَمَيْنِ لَا يَرْتَدِي إِلَّا قِيصًا وَقَدْ وَقَفَ فَاعْتَرَفَاهُ يَسْتَمِعُ — إِنْ الْأَطْفَالُ هُمُ الْأَطْفَالُ دَائِمًا ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ عَنِ الدَّمِيَّةِ الرَّاقِصَةِ عَلَى الْأَرْغُولِ بِالرَّغْمِ مِنْ

أن ركبتيه كانتا ترتعشان من شدة البرد، وظل يمص كم قيصه، ولاحظت أيضاً أنه كان يمسك بقطعة من الورق في يديه . وأخيراً ألقى أحد المتفرجين بقطعة من نقود في الصندوق الذي كانت ترقص عليه الدمي الرجل الفرنسي (وسيداته) . وأيقظت ذمة العملة الطفل من استغراقه فنظر حائراً إلى المتفرجين . ولا بد أنه ظننى أنا الذى أسقطت هذه القطعة من النقود ، إذ هرع إلى وناولنى الورقة بأصابع مرتعشة ، ورجائى فى صوت متعثر أن أقرأها . وفضضتها : وكانت طبعا عبارة القصة المعتادة : أم تحتضر ، وثلاثة أطفال يتضورون جوعاً ، وضراعة إلى حنان البشر الأعزاء أن يمدوا يد العون . ثم وعد بأنه عندما تموت الأم فستشفع لهم وتذكرهم فى السماء .

ولم يكن بالورقة ما يستغلق على الفهم ، ولكن ماذا كنت سأعطى الطفل ؟ لا شيء على الإطلاق . ولكن كم أسفت للطفل ! طفل صغير مسكين مثل هذا ، يكاد يقتله البرد . . . والجوع أيضاً . ولم يكن الطفل يكذب على اكلا لا يمكن أن يكون كاذباً فأنا أعرف هذا جيداً . ولكن أقدر ما فى الموضوع أن فى الوجود أمهات شريرات يبعثن بأبنائهن إلى الخارج وهم شبه عرايا حيث البرد القارس ، لعل قلبها قد تحجر ، أو لعلها لا تجد من يساعدها فاضطرت إلى البقاء مع أبنائها ، و لعلها مريضة حقاً ، ولكن مع هذا كان من الواجب عليها أن تلجأ إلى السلطات المختصة . أما أن تفعل هذا فهى إنما تتطفل على المارة أو ترسل ابنها الجائع المريض

ليستجدى . وأى نوع من التربية سيحظى بها بسبب هذه القصصات من الورق ، ها هو ذا يجري هنا وهناك متوسلاً ، ولكن الناس لا تعنى به ، فقلوبهم كالصخر ، وكلماتهم قاسية ، «إمض بعيداً أيها المشرد !!» ، «إبتعد عنا بنحسك» .

إن هذا الطفل سيتعود القسوة وهو يرتعش من البرد ، هذا الفرخ الصغير المذعور الذى سقط من عشه لقد تخدرت يداه وهو لا يكاد يقوى على التنفس فى هذا البرد القاتل ، وقبل أن يدرى سيبدأ السعال ، وترحف المرض متسللاً إلى صدره ، وسرعان ما يترصده الموت فى ركن قدر مظلم لأنه ما من شخص سيعنى به أو يساعده . وهكذا تذهب حياته الصغيرة .

وهذا هو كل ما قدر لبعض الناس من حياة يا فارنكا . وليس من اليسير إطلاقاً أن تسمعى شخصاً يقول : « ساعدنى بحبة فى المسيح » ثم تمرين به دون أن تمنحيه شيئاً اللهم إلا مجرد القول : « فليساعذك الله » فثمة أوقات طبعاً لا تثير فيها كلمات : « بحبة فى المسيح » : [فتلك أنواع مختلفة من « بحبة فى المسيح » يا حبيبتى] : بعضها يقال فى تنهد آلى ، كما يفعل معظم الشحاذين فإذا لم يمنح المرء شيئاً شخصاً مثل هذا لم يعذبه ضميره كثيراً ، فهو من النوع الذى تعود الاستجداء ، وسيدبر أمره بأية طريقة ، ولكن فى أوقات أخرى تدوى « بحبة فى المسيح » بطريقة غريبة : خشنة مرعبة ، كما سمعتها اليوم عندما كنت أقرأ ورقة الطفل

وقال لى شحاذ يقف إلى جوار الحاجز ، كان واقفاً هناك فحسب ،
ولا يستجدى مثل الآخرين : قال لى : .. امنحني قطعة من نقود محبة
فى المسيح ، .

وكان الصوت خشناً حتى إننى ازعجت . ولكن ماذا يمكننى أن أمنحه ؟
كنت لا أملك شيئاً وتخيل أن بعض الأغنياء يضيقون ذرعاً عندما يشكو
الفقراء حياتهم القاسية ، ويقولون : إنهم يضايقونهم وينغصون حياتهم ..
هل تقضى أناات الجوعى مضاجعهم ليلاً ؟

وأصرح لك بالحق يا حبيبتى العزيزة أننى قد كتبت هذا كله لسيبين :
أولهاكى أخفف العبء عن قلبى والآخركى أعطيك مثلاً لأسلوبى الجيد
فى الكتابة . وكما ترين يا عزيزتى بدأ أسلوبى يتبلور أخيراً . والقنوط
يملكنى الآن حتى لا أملك إلا أن أتجاوب أنا وأفكارى الخاصة ، ومع
أنى أعلم يا حبيبتى أن مثل هذا التجاوب لن يودى بى إلى شيء إلا أنه من
الممتع أن يتجاوب المرء وأفكاره ، هذا إلى أنها تؤدى به إلى التواضع
وتشعره بتفاوته وأنه أقل مرتبة من قطعة خشب ، وإذا ما أردت
المقارنة فلعلنى أخبرك أن هذا كله لأننى محطم بأئس ، مثل ذلك الطفل
الذى سألنى اليوم إحساناً .

اغفرى لى يا فارنكا إذ اندفعت فى شيء من ضرب الأمثال والمواعظ ،
ففى طريقى إلى الديوان فى الصباح الباكر يحدث أحياناً أن أتأمل المدينة ،

أناأمل الدخان وذلك الاضطراب والضجيج الذى يجعلنى أشعر بضآلتى ،
وكأنما شخص ما قد أشعرتنى بتطفل ، وعندما يحدث هذا أثوب لنفسى
وأمضى متواريا ككفار ، ولكن دعينا الآن نعمن النظر ونرى ماذا يحدث
فى هذه المنازل الكبيرة المظلمة الجرداء ؟ . انظرى ثم احكى : هل من
الخير أن يتواضع المرء ويشعر بالسكابة بسبب هذا أولا ؟ . ولكن
تذكرى يافارنكا أننى أقول هذا كله على سبيل المثال فحسب . والآن ماذا
سنرى فى هذه المنازل ؟ . سنرى كيف يستيقظ عامل فى ركن صغير فى
قاعة رطبة يسمونها شقة . ولعله من المحتمل أن يكون قد قضى ليلة يحلم
بزوج من النعال أتلفه فى يومه السابق ، وتخيل أن إنسانا يحلم يافارنكا
بمثل هذه النفاية ، ولكن من الطبيعى أنه عامل — إسكافى — ولعل
هذا عذره فى تفكيره الدائم فى مثل هذه الأمور ؟ . إن أطفاله ينتحبون
وامرأته جوعى .

وليس الإسكافيون فحسب هم الذين يستيقظون فى الصباح ولا يملأ
رءوسهم سوى مثل هذه الأشياء ياعزيزتى ، ولعل الموضوع كله لا يستحق
الذكر لولا حال أخرى ، وفى هذا المنزل نفسه ، وفى الطابق الأعلى
يعيش رجل غنى كان يحلم فى غرفته المذهبة خلال الليل كله بالنعال ،
وطبيعى أنها ليست النعال نفسها ولكنها نعال على أية حال . وهكذا
ترين ياعزيزتى ، أن كلنا إسكافى إلى حد ما !

ومع هذا أيضاً فليس الأمر خليقا بالتفكير ، لولا أن المشكلة هى

أنه لا يوجد من يهمس في أذن الرجل الغني أن يكف عن التفكير في نفسه ، وأن يكف عن العيش لنفسه خصب ، فهو ليس بالإسكافي ، وأطفاله في أتم صحة ، وزوجته ليست جوعى ، لماذا إذن لا ينظر حوله ، ويجد شيئاً نبيلاً يشغل فكره به غير النعال ؟ .

وهذا هو ما قصدت أن أفوله لك عن طريق الأمثلة . ولعل هذا خسر حر متطرف يافارنكا ولكنه يخطر لي أحيانا ، وعندما يخطر لي يندفع من قلبي في كلمات كثيرة . وهكذا ترين أنه ما من داع أن يمتن المرء نفسه ويخشى كل هذا الاضطراب والضجيج . وختاماً أقول لك يا عزيزتى : اهلك تظنيني أثرثر خصب ، أو أننى متوعك المزاج خصب ، أو لهلك تظنيني نقلتها من كتاب أو نحوه . كلا يا عزيزتى ، لأننى أؤكد لك أنه ما من شيء أحتقر مثل الثثرة ، ولأننى لست متوعك المزاج ، ولم أنقل شيئاً من أى كتاب

لقد عدت إلى منزلى مكدود الحاطر ، فوضعت إبريق الشاي على الموقد ، وكنت على وشك أن أتناول قدحا من الشاي ، ولجأة دخل على جارى المسكين ، جورشكوف ، ، كنت قد لاحظت في الصباح أنه كان يتسلل فى مشيته يتحاشى ويتحاشى الآخرين . وأحب أن أذكر لك أن حياته أسوأ بكثير لدرجة لا يمكن أن تقارن بحياتى أنا ، وكيف يمكن أن تكون غير هذا — مع وجود زوجته وأطفاله ووجودهم جميعا .

والحق أننى لو كنت « جورشكوف » ، ما كنت أدرى ماذا أفعل حتما .
وهكذا دخل جورشكوف الغرفة وغض بصره ذليلا إلى الأرض
كعادته ، ووقف هناك يلهث ، ولا يستطيع أن يفتح فاه بكلمة .
وقدمت إليه مقعدا ، مقعدا مكسورا ليس عندى غيره — وقدحا من
الشاي ، وظل طويلا يعتذر عن قبوله ثم قبله أخيراً ، ولكنه رفض
السكر وبدأ يعتذر مرة أخرى ، وعندما ألححت عليه بأن يأخذ السكر
أخذ يرفضه ثم استقطع لنفسه أضال قطعة وأكد لي أن الشاي حلوا إلى
درجة كبيرة . يا إلهي : إلى أى درك يهبط الفقر بالإنسان .

وسأله :

كيف حالك أيها الصديق ؟

فقال :

— شكراً ثم مضى يقول :

ألا تستطيع يا ما كار أليكسييفتش أن تريني رحمة الله وتساعد أسرة
منكوبة ، فليس عندى ما تقنيات به زوجتي واطفالي كما تعلم وأنا أبوهم
أرقبهم عاجزاً .

وكنت على وشك أن أقول شيئاً ما ، ولكنه قاطعني قائلاً :

— لأننى أخشى كل ساكن هنا يا ما كار أليكسييفتش ، بل الحق
أننى أخجل أكثر مما أخشى محادثتهم ، فهم يضيقون بي وينزعلون عني ،

وما كنت أفكر قط في إزعاجك أيها الصديق المفضل فإنني أعلم أن عندك من المشكلات ما يكفيك ، وأنت لا تستطيع مساعدتي كثيراً ، ولكنني أرجو أن تقرضني شيئاً ، ولم يكن من اليسير على نفسي أن أسعى إليك طالبا العون ، ولكنني أعلم أي قلب حنون ينطوي عليه صدرك ، وأعلم أيضاً أنك في عوز وحاجة مثلي ، لذا فستشعر بالآلامى ونكباتي .

ثم أضاف إلى هذا الكثير من الاعتذار على تجربته وطلبه مني . وأجبتة بأنه لشد ما كان يسعدني مساعدته ، ولكنني لأملك شيئاً أبداً فعاد يتوسل إلى .

صديق الحنون ما كار ، إنني لا أطلب الكثير ، وزوجتي وأطفالي يحتضرون جوعاً ، ألا تستطيع إقراضى عشرة كوبكات فحسب . ؟

ومزق هذا قلبي . نعم . . . خال الرجل أسوأ من حالي . وكان كل ما أملك في تلك اللحظة عشرين كوبكا كنت أحتفظ بها كي أواجه ضروريات الغد . فقلت :

— كلا يا صديق . . الحق أنني لا أستطيع .

وشرحت له لماذا لا أستطيع . ولكنه عاد يقول :

— ولكن يا صديقي العزيز ما كار أليـك سيفـتـش ، قل ماشئت ،
وافعل ماشئت ، ولكن أعطى عشرة كوبيكات على الأقل .

وأخذت القطعة ذات العشرة كوبيكات التي أملكها وأعطيتها إياه
لأنهم يعتبرون العشرين كوبيكا إحسانا أو كذلك هي يا فارتكا ؟ . . .
الله الفقير .

وبدأنا نتحدث وسألته أخيرا كيف تأق له أن يستأجر غرفة
بخمسة روبلات مع ما يمر به من ظروف حرجة فأوضح لي أنه قد أقبل
إلى هنا منذ ستة أشهر خلت وقد دفع إيجار أشهر ثلاثة مقدما ، ولكن
الأمور قد تأزمت به حتى لا يدري ماذا يفعل الآن ؟ وقد كان يأمل
أن تكون قضيته المنكودة قد فصل فيها خلال تلك المدة ، فهو يتقاضى
تاجرا اختلاس من أموال الحكومة ، وعندما اكتشف الاختلاس
حوكم التاجر ، ولكن الشرير جر « جورشكوف » معه على حين أن
الواقع أن « جورشكوف » مذنب فحسب من حيث السهو وإهماله لمصالح
الدولة . ولكن القضية ظلت تنتقل بين المحاكم سنين عدة
« وجورشكوف » يواجه دائما عقوبات جديدة ، إن جورشكوف
يقول :

لاني برى من كل هذا العار الذي لحق بي — لاني برى من السرقة

أو الاختلاس ، ولكن القضية كلفته سمعته ، فطرد ، وبالرغم من أنه لم يحكم بجرمه ، لم يحكم ببراءته أيضاً . ولو كان قد حكم ببراءته لكان على ذلك التاجر أن يدفع له تعويضا — مبلغا ضخما من المال . . لأنه يستحقه يحكم القانون . وأنا مستعد أن أصدق كلمة «جور شكوف» ، ولكن المحكمة إن تفعل ، فالموضوع معقد ملتو حتى إن قرنا من الزمان لن يكشف عنه ، فإيكاد التحقيق يحل عقدة حتى يخترع التاجر عقدة أخرى .

إنني لأسف يا عزيزتي من أجل «جور شكوف» وأحس بالآلام إحساساً عميقاً ، فهو عاطل بلا عمل فما من مخلوق يرضى باستخدامه بسبب ما أصاب سمعته ، وكل ما كان يملك قد بيع منذ أمد طويل ، وبينما كانت القضية تتعرض بين المحاكم ولد له طفل جديد . . في غير وقته المناسب . وهذا يكلف بالطبع الكثير من المال ، وعندما مرض الطفل احتاج أيضاً إلى المزيد من المال ، وعندما مات زادت الحاجة إلى المال . وزوجته مريضة وهو أيضاً يشكو من علة قديمة . وباختصار إنه يتعذب .

ولكن مهما كانت الحال فهو يزعج أنه ينتظر قراراً في مصلحته يمدد خلال أيام قلائل ، وهو واثق من هذا . إنني جد آسف وحزين من أجله يا فارتكا ، وقد حاولت جهدي أن أواسيه ، إنه رجل ضئيل

ضائع في أمس حاجة إلى الحماية ، وقد واسيته . استطعت .

إلى اللقاء يا حبيبتى ، وليكن المسيح معك ويحفظك في أتم صحة .
فانكا .. يا حياتي : إن التفكير فيك شفاء لروحي ، والعذاب من أجلك
عزاء . .

صديقك المخلص

ماكار دوفشكين



٩ من سبتمبر

فار فارا أليك سيفنا يا عزيزتي

أكاد أفقد صوابي ، فثمة شيء فظيع قد حدث ، رأسي يدور بي ،
وكل شيء حولي يدور أيضا ، ولن تتوقعي أبدا ما سأفضي به إليك ، فإنا
تخيلنا قط شيئا مثل هذا ، ولكنني قد تخيلته أنا وتوقعته ، كان قلبي يشعر
به . بل رأيت حلما يشبه ذلك الخوف حدث .

ولإليك ما حدث وسأصفه لك دون زخرف أو تنميق ، سأصفه لك
كما تجري به ريشتي بحسب .

ذهبت إلى مكتبي هذا الصباح كالمتأد ، واتخذت مجلسي إلى المكتب
وبدأت أكتب ، وهنا يجب أن أذكر يا عزيزتي أنني فعلت الشيء نفسه
بالأمس عندما أقبل على تيموفاي إليها لوقت شخصيا ، وقال : إن عنده
ورقة يجب أن تنسخ على الفور ، ثم قال :

— أرجو أن تنسخها بأنظف وأسرع ما يمكنك ؛ فسيوقعها
سعادته اليوم :

ويجب أن أذكر كذلك يا عزيزتي أنني بالأمس لم أكن أستطيع استجماع
أشتات نفسي ، كنت وحيدا حزينا ، كان قلبي مكدودا كثيباً وكنت
جد قلق عليك يا عزيزتي . وبدأت عملي ، ونسخت الوثيقة نسخاً دقيقاً
جيداً ، ولكنني لست أدري أمن عمل الشيطان هو أم من إرادة السماء
أم بمجرد أنه كان لابد أن يحدث : لقد نسيت سطوراً ، ويعلم الله وحده
كيف غير هذا السطر المعنى : إذ لم يبق للوثيقة معنى على الإطلاق . ولم
يتسع وقتهم لهذه الوثيقة بالأمس فوقعها سعادته اليوم .

واقبلت إلى مكتبي اليوم وأنا لا أدري شيئاً واتخذت مجلسي إلى
جانب يميلان إيفانوفتش ، وهنا يجب أن أذكر أيضاً أنني قد بت منذ
مدة أكثر خزيًا وخجلاً ، ولم أحاول قط أن أنظر إلى وجوه الناس
بل إن صرير كرسي كاف لأن يثير وجلي ، واليوم أيضاً قد تضاءلت
حتى بت كالسلحفاة تدخل رأسها في جسمها وأنا أقرب إلى الموتى مني إلى
الآحياء . حتى إن يفيم اكييموفتش (وهو أكثر خلق الله مجونا) قال
بصوت عال يسمعه الجميع : لماذا تجلس هكذا يا ما كان اليكسييفتش
مثل . . . ؟ ،

وهنا قلب سعادته على صورة انهجروا معها جميعاً ضاحكين ، وكان

من الطبيعي أن يعيدوا الكرة ، ولكي أغمضت عيني وسددت أذني وتظاهرت بأنى لا أسمع ولا أرى . فهذه الطريقة المثلى كي يتركونى وشأنى .

ولجأة سمعت ضجة تنهاهى إلى من بعيد ، ثم سمعت اسمى يذكر — ولم أستطع أن أصدق أذنى .. ولكن كان اسمى أنا . نعم دوفشكين هو من ينادون .. فاشتد وجيب قلبي — ولست أدري لم تملكنى الفزع فزع لم يملكنى فى حياتى قط من قبل . وتسمرت فى مقعدى لا أريم حراكا — كما لو أنه لم يكن أنا ذلك الذى ينادون . والأصوات تقترب وتقترب حتى صارت لصق أذنى .

— دوفشكين ! دوفشكين ! أين دوفشكين ؟ ونظرت فإذا بيفستافى إيفانوفتش واقف يقول :

— إن سعادته يطلبك يا ماكار إليكسييفتش ، فلقد أفسدت تلك الوثيقة .

كان هذا كل شيء .. ولكن كان يكفينى ما سمعت : ألم يكن كذلك ؟ وسرت البرودة إلى أطرافى وكدت أفقد وعي ، ولست أدري كيف نهضت ومشيت بل لست أستطيع القول أى شيء جال بخاطرى فى تلك اللحظة ، كل ما أذكره أننى اخترقت غرفة ثم أخرى ثم ثالثة إلى المكتب الخاص حيث وقفت وجها لوجه أمام سعادته وحوله الآخرون ،

وأخشى أن أكون قد نسيت أن أنحنى . ووقفت هناك ترتعش شفتاى
وتصطاك ركبتي ، وكان ثمة ما يدعو إلى هذا : فأولا تصادف أن حانت
منى نظرة إلى المرأة على يمينى وما رأيته فيها كان يكفى كي يدفع بأى إنسان
إلى الجنون ، وثانيا أننى سلكت دائما كأنى لم أوجد قط ، فكيف يجب
أن يعرف سموه أننى أعيش على الإطلاق ؛ لعله قد سمع من يذكر اسم
دوفشكين فى الوزارة ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء معرفته قط .

وبدأ حديثه غاضبا :

— ما معنى هذا أيها السيد ؟ ولماذا لا تبذل المزيد من العناية ؟
كانت وثيقة عاجلة ولقد أفسدتها ..

والتفت سعادته الآن إلى بفستانى إيفانوفتش ، والنقطت أذنائى
لمحات بما كان يقول لحسب : . . مثل هذا الإهمال . . متاعب كثيرة . . ،
وفتحت فاه عدة مرات كي أعتذر ، ولكن لم أنطق حرفا ، ووددت لو
أهزب ولكنى لم أجرؤ ، وعندئذ حدث أسوأ الأمور كلها : شئ مروع
يا حبيبتى حتى لترتعد ريشتى فى يدي خزيًا وأنا أكتبها . ومن أضرار
معطنى لعنه الله ، زر كان يتعلق بخيط واحد سقط فجأة ، وأخذ يقفز ،
ويرقص ، ويتدحرج حتى وصل إلى قدم سعادته ، وحدث هذا وسط
السكون الشامل . هذا ما حدث بدلا من اعتذارى ، كان هذا ردى
الوحيد على سعادته .

أما ما تبع هذا فإنه لا يشع بما يوصف ، فقد أدار سعادته بصره إلى
يتفحصني ويتأمل تفاصيل شكلى وملبسى ، وتذكرت ما رأيته فى المرأة
ثم خطوط أقتنص ذلك الزر ولست أدرى ماذا تملكنى حتى أفعل
هذا ؟ . ومددت يدى ألتقطه ولكن اللعين ظل يدور ويتدحرج .

وهكذا ترين أنى أظهرت نفسى بمظهر الغي المأفون ، وشعرت أنى
أفقد وعي ، فلقد ضاع كل شيء : سمعتى وكل شيء ضاعت دون أمل فى
استردادها ، وبيننا أنا فى هذه الحال من الاضطراب أخذ تدوى فى أذنى
صرخات تريزا وفالدوني وأقاويل آلاف الآلسن .

وأخيراً تغلبت على الزر واقتنصته ونهضت واقفاً ، وكان من
الواجب أن أقف ساكناً تماماً ويدأى إلى جانبي ، ولكن كلا ، لقد
رحت أعبت بهذا الزر ، فأدفع فيه الحيط الواهى كأنما يمكن أن يعود
فيلتصق به ، وكنت ابتسم طيلة هذا كله ، نعم كنت ابتسم لحسب ، وأشاح
سعادته بوجهه منى ثم وقعنى بنظرة أخرى ، وقال ليفستافى إيفانوفتش :

— مامعنى هذا ؟ أنظر إلى الرجل ، ماذا به ؟

وأجابه ليفستافى .

— إن سجله نظيف تماماً ، ومسلكه مثالى ، ومرتبته وفق القانون
وقال سعادته :

— ساعده بآية طريقة ، امنحوه جزءاً من مرتبه مقدماً .

— ولكنه سحب فعلا مرتبة لشهور قادمة . ولا بد أن الظروف قد أدت به إلى أن يفعل هذا مادام سلوكه ممتازا وملف خدمته نظيفاً ولا شيء ضده .

وكان الدم يتدفق إلى وجهي يا عزيزتي حتى لكأنني كنت أحترق في نيران .

وقال سعادته بصوت عال حتى لقد سمعته :

— حسناً فلتنسخ هذه الوثيقة من جديد وبأسرع ما يمكن ، تعال هنا يادوفشكين ، لنسخ هذه الورقة دون أن تخطئ .. واسمع .. وهذا أمر سعادته الآخرين بالخروج ولم يبق سوى وهو ، وأسرع فأخرج حافظة نقودة من جيبه ، وأخرج منها ورقة بنسكنوت من فئة مائة الروبل ، ودسها في بدى وقال :

— اليك بها .. اعتبرها قرصاً إذا أردت ، وإني لأحب أن أفعل شيئاً من أجلك .

وذلت ياملاكي حتى لم أستطع نطقاً ، وأنا لا أكاد أدري ماذا كان يجري ، وهممت أن أقبل يده ، ولكنه تضرع خجلاً ، وحينئذ — ولست أبالغ قط يا فانكا — أمسك يدي — بدى أنا — وشد عليها كأنني له ندا . وقال :

— لِمَ مَضَ الْآنَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ — مَتَأَسَفُ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، وَاحْذَرِ الْأَخْطَاءَ وَسَتَشْتَرِكُ مَعًا فِي تَحْمِيلِ اللُّومِ عَلَى مَا حَدَثَ .

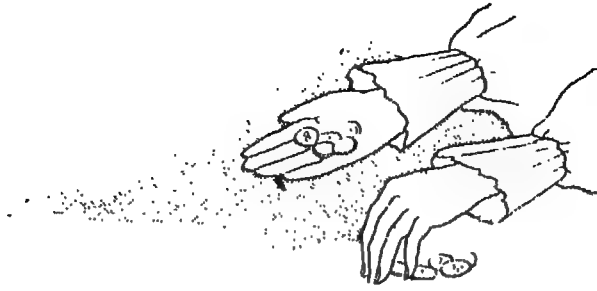
وإليك الآن ما أطلبه منك أنت وفيدورا أرجو أن تصلوا من أجل سعادته كل يوم ، ولو كان لي أبناء لطلبت منهم أيضاً أن يصلوا لسعادته أكثر مما يفعلون من أجل والدهم . وسأقول هذا أيضاً يا حياقي . . سأقوله جاداً من كل أعماقي . لأنه ما يعنيني كم قاسيت . . وإذا ما غضضت الطرف عما شعرت به من عذاب بسببك في أسود أيام عوزنا عندما كنت أنظر إليك فيمنعني عجزى عن مساعدتك . . أقول بالرغم عن كل هذا وأقسم لك أن هذه الروبلات المائة ليست بالعزيمة إلى قلبي قدر تلك الحقيقة : أن سعادته قد صالحتني ، شد على يد سكير زرى المنظر . فقد أعاد إلى رجولتي وروحي وأضاء حياتي . وأنا واثق تماماً أن صلواتي من أجل سعادته ستستجاب بالرغم من أني رجل ذو خطايا .

لأنني في أشد الاضطراب والذهول يا فارنكا ، وقلبي يكاد يقفز خارج صدري ، وأحس بضعف شديد ، أبعث إليك خمسة وأربعين روبلا ، وسأعطى ربة داري عشرين روبلا فيبقى معي خمسة وثلاثون ، وسأصلح ثيابي بعشرين منها ويبقى لي بعد ذلك خمسة عشر روبلا أواجه بها النفقات الأخرى .

لقد قلبت انفعالات الصباح كياني كله ، ولعله من الأفضل أن آوى
إلى فراشي وإن كنت مع هذا سعيداً هادئ البال اللهم إلا أن روحى
تتعذب ولست أدري لماذا ، وأكاد أسمعها تترنش واضطرب في أعماقي ؟
سأزورك فيما بعد فإنني الآن مضطرب بعد كل هذه الأحداث . إن الله
يرى كل شيء ، ويسمع كل شيء يا حبيبتى ، يا فتاتى الصغيرة الغالية .

صديقك

ماكار دوفشكين



١٠ من سبتمبر

عزى ما كار

أسعدنى أن أسمع بحظك السعيد ، وإنى لأقدر تماماً عطف رئيسك
وطيبته ، وقد آن لك أن تستريح من همومك ، ولكنى أستحلفك بالله
ألا تبعثر نقودك ، وعش فى هدوء وتواضع قدر ما تستطيع ، وابدأ بأن
تدخر شيئاً ضئيلاً كل يوم حتى إذا ما حلت النكبات وجدتك متأهباً لها.
أرجو ألا تحمل عناهما فسندبر أمورنا أنا وفيدورا بأية طريقة
ولماذا أرسلت إلينا الكثير من المال يا ماكار أليـكسييفتش ؟ .. الواقع
أننا لا نحتاج إلى الكثير من المال .. ونحن قانعان بما عندنا ، صحيح أننا
سنحتاج إلى المال كي ننتقل من هذا المكان ولكن فيدورا تتوقع أن
تسترد دينا قديماً لها ، إنى احتفظ بعشرين روبلا للطوارئ وأرسل إليك
الباقى ، فاقصد فى نقودك يا ماكار .

إلى اللقاء ولتستريح من همومك ، ولتحافظ على روحك المعنوية

العالية وقد كنت أحب أن أسترسل إلى الكتابة لولا ما بي من تعب .
بالأمس لازمت فراشي وأنا سعيدة لأنك وعدت أن تزورني، وأرجوك
أن تفعل .

ف . د



١١ من سبتمبر

فار فارا أليكسيينا ، يا حبيبتي

أرجوك ألا تذهبي بعيدة عني علي حين أني جد قانع وسعيد ، ولا تصغي لفيدورا يا عزيزتي ، وسأفعل كل ما تطلبين مني أن أفعله . وسأسلكه ساو كا لانقا ، احتراماً لسعادته علي الأقل . وسنعود مرة أخرى إلى تبادل الخطابات السعيدة كما تعودنا من قبل ، سنشترك في الأفراح والمتاعب إذا كان ثمة متاعب ، وسنعيش في وئام وسلام ، وسنعود إلى الأدب مرة أخرى إذ تغير كل شيء في حياتي إلى أفضل يا فارنسا ؛ قرية الدار قد زاد ودها نحوى ، وأضحت تزيها أكثر ذكاء ، ونالدوني أكثر طاعة ، وقد اصطلحت أنا وراتازيف . كنت جد سعيد حتى إنني ذهبت أسترضيه بنفسى ، إنه شخص طيب القلب يا عزيزتي ، وكل ما يقوله الناس عنه من شر مجرد اختلاق ، فهو لم يقصد قط أن يصفنا في كتاب ، وقد

صرح لى بهذا ، وقرأ لى بعض كتاباته الجديدة ، أما عن نعتة إياى بزير
فسام فقد وضع لى أنها ليست إهانة فى الواقع ، إنما هى كلمة مستعارة من
لغة أجنبية ، ولا تعنى إلا شخصاً حاذقاً ، وإذا أردنا أن نشرحها بطريقة
أكثر أناقة وأن نضفى عليها طابع الكتب فإنها تعنى كما لو قلنا « سيد
مذهب لبق » . وهكذا ترين يا عزيزتى أنها لم تكن سوى فسكاهة بريئة
أسأت أنا الجهول فهمها . وقد اعتذرت إليه .

وكان الجو أيضاً جميلاً ، فقد جعله رذاذ المطر والضباب الخفيف فى
الصباح منعشاً لطيب .

لقد اشتريت زوجاً جميلاً من الأحذية ، وخرجت أتزه فى نفسى ،
ووقفت أقرأ الصحف . يا إلهى ! لقد نسيت أن أخرك بالموضوع
الرئيسى : فلقد اشتركت هذا الصباح فى نقاش حول سعادته مع عيليان
إيفانوفتش وآكسنتى ميخايلوفتش ، فوجدت أنى لست وحدى الذى
غمره بعطفه ؛ فالمعروف عن سعادته أن له قلباً عطوفاً ؛ وقد امتدحه
الكثيرون ، وبكى الكثيرون عرفانا بجميله . ويقال : إنه تبنى يوماً فتاة
يتيمة ورباها ، ثم زوجها رجلاً ذا مركز محترم كان على صلة خاصة
بسعادته .

ومعروف أيضاً أنه سعى إلى إيجاد عمل لابن أرملة ، وأنه قام
بالكثير من أعمال الخير .

وشعرت أن من واجبى أن أضيف شيئاً إلى هذا كله ، ورويت قصتى
للجميع ، رويتها دون أن أكنم منها شيئاً ، ولكنى مارويت خجلى فحسب

غير أنه كيف يمكن أن يقال أى حديث عن الخجل فى مثل هذه الظروف
ألا فلتعلن أعمال الخير التى يقوم بها سعادته ولتمدح حتى يعرفها الجميع .

وكنيت أتحدث بحمارة ، وجرفنى شعورى حتى نسيت خجلى ، بل
لقد كنت نغورا وأنا أروى شيئا مثل هذا . وقصصت عليهم كل شىء
[والكنى طبعاً لم أذكر عنك شيئاً] ، رويت لهم كل شىء عن ربة دارى
وعن « فالدونى » وعن « راتازيف » ، وعن نعالى وعن ماركوف ،
وباختصار حديثهم بكل شىء .

وضحك بعضهم — أو على الأصح ضحكوا جميعاً ، ولعله كان بهيئتى
أو بخدائى ما يشير الضحك ، نعم لئن متيقن الآن أن حديثى عن الأحذية
هو الذى أثار ضحكهم ، فهم شباب وحالهم متيسرة ، ولكنهم ليسوا
أشراراً قط ولا يقصدون سوءاً ، ولكن كيف يستطيعون أن يضحكوا
عند الحديث عن سعادته ؟ أترأى يستطيعون يافارنكا . . ؟

لئن لازلت مضطرباً يا حيايتى فقد أذهلتنى الحوادث . ألدبك ما يكفى
من الخشب ؟ اعتنى بنفسك يافارنكا واحذرى البرد . آه يا حبيبتى العزيزة
إن أفكارك الكثيرة تؤلنى كثيراً فأظل أضرع إلى الله من أجلك . وهل
عندك جوارب صوفية أو ثياب تدفئك ؟ اعطنى على رجل عجوز
وأخبريه إذا احتجت إلى أى شىء ، يكفى مجرد تلميح منك ، فقد مضت
الأيام السود ، والمستقبل يبشر بكل خير .

لأنها أيام حزينه تلك التي قاسيناها يافارنكا ، ولكنها مضت إلى غير رجعة ، وإذا ما مضت السنون لم تعد غير ذكرى . إلى لا ذكر أيام شبابي . ففي تلك الأيام كانت تمر بي ظروف وليس في جيبى ولا كوبك واحد ، ولكنى كنت سعيداً على الرغم من هذا كله ، ففي تلك الأيام كان يكفى أن أرى وجهاً جميلاً في الصباح في « نفسكى » حتى أظل سعيداً طيلة يومى . هكذا كانت أيام شبابي .

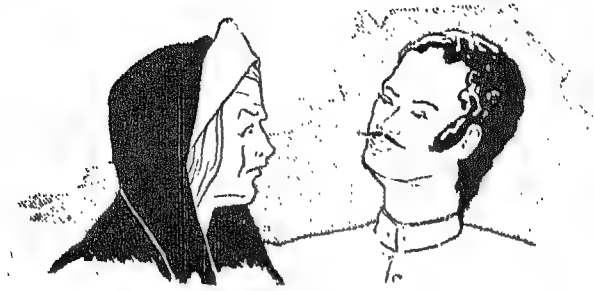
لأنه لم أمتنع أن يعيش المرء ، وفي بطرسبرج بالذات يافارنكا . وبالألمس صليت لله والدموع في عيني ، وتوسلت إليه أن يغفر لى آثامى التي اقترفتها خلال متاعبنا وأن يغفر لى الشكوى وما خطر لى من أفكار حرة وانغماس فى الخطيئة ، وفكرت فيك خلال صلواتى فلأنى الحنان والشكر ، فأنت التي أزرتنى فى محنتى ، وأنت التي واسيتنى ومنحتنى النصيح والإرشاد . وإن أنسى هذا أبداً يا حياقى .

لقد قبلت اليوم خطاباتك جميعاً — خطاباً خطاباً يا عزيزتى .

إلى اللقاء يا حبيبتي فارتنكا فلقد بلغنى أن هناك من يبيع معطفاً للعمل وربما كان من الواجب أن أستمع عنه . إلى اللقاء يا ملاكى الصغير .. إلى اللقاء ..

المخلص

ماكار دوفشكين



١٥ من سبتمبر

.عزيزى ماكارا اليك سيفتش

... لاني مضطربة أشد اضطراب ولاني لا توقع أسوأ الامور
واليك ماحدث ، واحكم أنت بنفسك :إن مستر بايكوف فى بطرسبرج
وقد التقت به فيدورا ، كان يركب عربته ، ولكنه نزل منها عندما
رأى فيدورا ، ودنا منها وسألها عن مقامها الآن ، وعندما رفضت
فيدورا أن تخبره ضحك ضحكة قصيرة وقال : إنه يعرف جيدا من
يعيش معها (ولا بد أن أنا فيدوروفنا قد أنبأته بهذا ولم تستطع فيدورا
أن تتمالك نفسها ، وبدأت توبخه وتسبه ، قائلة : إنه رجل منحط وأنه
سبب شقائى ، فأجابها :

إنه لابد أن أكون شقية حقا مادمت لاأملك كوبكا واحدة ،
وعندئذ أخبرته فيدورا أنني كنت أستطيع أن أعمل فأكتسب قوتي
أو أتزوج شخصا ما أو أجد لنفسى وظيفة ، ولكنى مريضة بفضلته

وأكد أشرف على الموت . وأجابها على هذا : بأنى لازلت شابة قوية وأن كرامتى قد تلطخت أيضا ، (هذه هى عباراته بالضبط) .

وظننت أنا وفيدورا أنه لا يعرف أين نقيم ، ولكن بالأمس عندما خرجت أشتري بعض ما أريد « جوستنى دهور » ، اقتحم غرفتنا فجأة .

ويبدو أنه تعمد أن يأتى عندما أكون خارج الدار ، وعندئذ أخذ يطر فيدورا بالأسئلة عنى وعن حياتى ، وجعل يفحص كل شىء فى الغرفة حتى تطريزى أيضا ، ثم سألهما أخيرا : من ذلك الكاتب الذى تتصل بكم كثيرا ؟

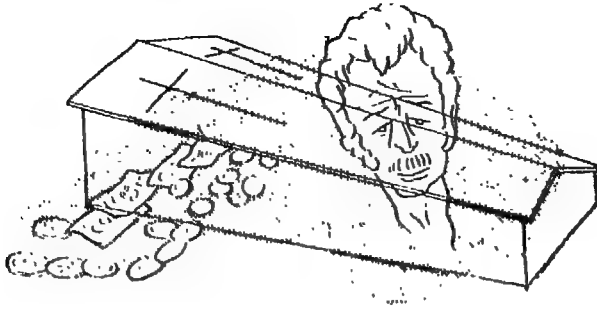
واتفق مرورك فى هذه اللحظة عبر الفناء فأشارت فيدورا إليك ، فنظر إليك وابتسم ، وطلبت منه أن ينصرف قائلة : لئنى مريضة بسبب مشكلاتى . وإن رؤيته . قد تسىء إلى كثيرا ، ولم يجبها إلى هذا ، بل قال : إنه جاء للزيارة فحسب ، ثم عرض خمسة وعشرين روبلا على فيدورا ، فرفضتها طبعاً .

فما معنى هذا كله ؟ ولماذا أتى ؟ وكيف استطاع أن يعرف كل شىء عنا ؟ لئننى ضائعة وسط أفكارى ، وفيدورا تقول لى : إن آكسينا زوجة شقيقها التى تأتى لزيارتنا أحيانا تعرف ناستاسيا الغسالة ، وابن عم ناستاسيا يعمل خفيرا فى الوزارة التى يعمل فيها أصدقاء آنا فيدوروفنا ،

وهذا هو بلا شك ما أتاح لآنا فيدروفنا أن تعرف شيئاً عنا . وقد تكون فيدورا مخطئة .

إننا لانعرف ماذا نفعل : هل سيأتي مرة أخرى ، إنني لأفزع لمجرد التفكير في هذا ، وعندما أخبرتني فيدورا بكل هذا بالأمس كاد يغمى علي . أى شيء آخر يريد مني ؟ إنني أرفض أن أراهم مرة أخرى . ولماذا يتعقب فتاة مسكينة مثلي ؟ إنني في خوف دائم . ماذا لو عاد بيكوف في هذه اللحظة ؟ ماذا يخبئه لي القدر ؟ . تعال لرؤيتي فوراً يا ما كان اليكسيفتش . أرجوك أن تأتي حالا ، أستحلفك بالله أن تفعل .

ف . و



١٨ من سبتمبر

عزيزتي فارفارا

وقع في منزلنا اليوم حادث لم يكن منتظرا ، ولا يمكن تفسيره ، فقد أنصف القضاء « جورشكوف » ، المسكين ، وظهرت برأته التامة ، وقد وقع القرار منذ فترة طويلة ، وذهب اليوم ليستمع إلى الحكم النهائي ، فانقلبت القضية لمصلحته ، ومهما كان خطؤه في الإهمال فقد تم الصفع عنه ، وحكم له بتعويض كبير لقاء ما أصابه من ضرر ، وهكذا تحسنت أحواله ، واسترد سمعته وشرفه .

وباختصار تحسن كل شيء وتحققت أقصى أمانيه . وعاد في الثالثة بعد الظهر شاحبا كالشبح ، مختلج الشفتين ، وقد ارتسمت عليهما رغم هذا كله ابتسامة ، فعانق زوجته وأولاده ، وهرعنا إليه جميعا نهنته ، وكان بادی التأثير ينحني باستمرار ؛ ويشد على يد كل واحد منا عدة مرات . وبدا كأنما قد ازداد طولا واستقام ظهره ، وذهبت عنه الدموع التي طالما ملأت عينيه .

كم كان مضطرباً ، ذلك المسكين . ولم يستطع أن يقف ساكناً لحظة واحدة ، فأخذ يلتقط أشياء ثم يضعها مكانها ، وهو يتسم وينحنى ؛ ويجلس وينهض ، ويقول أى شيء يثب إلى ذهنه ، أى كلمات عن شرفه وسمعته وأطفاله . ثم بكى ؛ وبكى معظمنا أيضاً . وأراد « راتازيف » ، أن يسرى عنه ، فقال :

— « ما قيمة الشرف أيها الصديق إذا لم نجد ما نأكله ؟ المال هو ماله قيمة ، وهو ما يجب أن تسعد به » .

ثم ربت على كتفه ، وبدأ لى أن « جورشكوف » ، قد أهين بهذا القول وإن لم يعبر عن ضيقه مباشرة ، ولكنه سدّد نظرة غريبة إلى راتازيف ثم نحى يده من على كتفه . وما كان ليفعل شيئاً مثل هذا قط من قبل . وطبسي أن الشخصيات تختلف يا فارنكا : فأنا مثلاً ما كنت أزهر إلى هذا الحد في يوم بهيج مثل هذا ، فثمة أوقات ينحنى المرء فيها أكثر من مرة ، بل يتواضع لاسبب إلا لمجرد الإفراط في الشعور الطيب ورقة القلب ، ولكن لماذا أتحدث عن نفسي ؟ .

وقال « جورشكوف » ،

— « أجل ، إن المال شيء لا بأس به أيضاً : شكر الله عليه .

ثم أخذ يردد قوله « شكر الله عليه » .

وطلبت زوجها غذاء ممتازا غالياً أعدته ربة الدار بنفسها . وهي امرأة طيبة القلب ؛ ولكن على طريقتها الخاصة .

غير أن « جورشكوف » لم ينتظر الغذاء ، بل ظل قلقا حائرا ، وأخذ يزور كل الغرف سواء دعى أم لم يدع ، فهو يدخل الغرفة ، ويبتسم ثم يجلس ويقول شيئا ما ، أو ربما لا يقول شيئا على الإطلاق ثم ينهض خارجا . . وفي حجرة الضابط البحري دعى إلى المشاركة في اللعب ، وكانت النتيجة أنه أفسد عليهم لعبتهم ، ثم تركهم قائلا : لقد أحببت أن ألعب قليلا لحسب .

وعندما قابلني في الدهليز نظر إلى عيني ولكن بطريقة غريبة جدا ، ثم شد على يدي مصصا فمها مرة أخرى ، ثم تركني ومضى وهو لا يزال يبتسم ولكن بطريقة غريبة أيضا — ابتسامة مفتعلة لا حياة فيها .

وكانت زوجته تبكي فرحاً وبدا كل شيء في غرفتهم وكأنه يحتفل بهذه المناسبة ، وبعد الغذاء قال لزوجته : أظننى سأستريح قليلا ، ثم استلقى على فراشه ، وأخذ يداعب شعرها ، ثم التفت إلى زوجها وسألها .

— أين ابنتنا باتنكا الآن ؟ .

ورسمت زوجته علامة الصليب على الفور ، وذكرته بأن « باتنكا » قد ماتت ، فوافق على حديثها قائلا — نعم . . إن باتنكا في السماء .

ورأت زوجه أنه ليس في حاله الطبيعية ، وأن المفاجأة قد أفقدته
اتزانه . فأخذت تلمح عليه أن ينام . فقال . . سأفعل هذا . .
سأنام قليلا . .

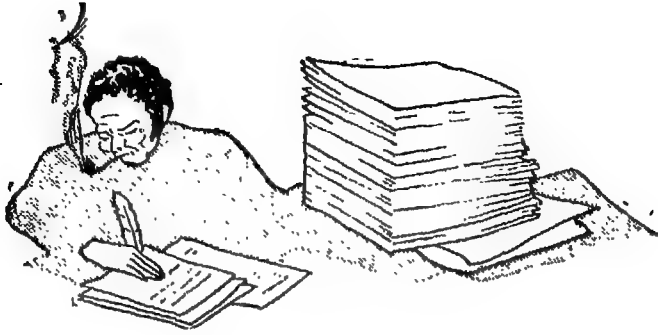
ونام على جنبه ورقد ساكنا فترة ، ثم أدار رأسه كأنما يريد الحديث .
ولم تفهم زوجته شيئا فسالته عما قال ولكنه لم يجبها ، واعتقدت أنه نام
فمضت لزيارة ربة الدار ، ومكثت عندها نحو ساعة . ولما عادت وجدت
لا يزال نائما ، فجلست إلى شأن من شئونها شغلا بالنصف ساعة نسيت
فيها كل شيء عنه . ولكن شيئا ما جعلها تفزع خوفاً ، هو ذلك الصمت
القاتل . فنظرت إلى السرير ، ورأت أن زوجها لم يتحرك عن موضعه
ولما اقتربت منه وجدته ميتاً ! — لقد مات جورشكوف المسكين ميتة
مباغثة وكأنما مسته ساعة ولا يعرف أحد لماذا ؟

إننى مضطرب حائر لا أكاد أثوب لنفسي . كيف يمكن أن يموت
إنسان بهذه الصورة ؟

ياله من مسكين هذا الرجل جورشكوف ، ، أى حياة بائسة عاشها
.. أى حياة ! لقد أخذت زوجه تبكي مذعورة على حين انزوت طفلته
في ركن من الغرفة . . ثم أعقب ذلك صراخ وعويل .

لقد سمعتهم يقولون : إن هناك حياة أخرى بعد الموت ، وأنا حزين .
وأسف إلى درجة لا يبلغ مداها التعبير ، فن منا يستطيع أن يعرف متى
تحين ساعته . فنحن هنا اليوم . . وغداً نمضى ! . المخلص

ماكاردوفشكين



١٩ من سبتمبر

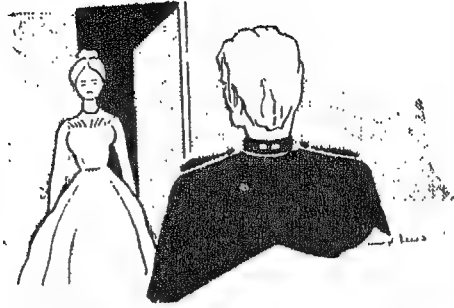
أعز أقراني فارفار أليكسييفنا

أبادر فأنبئك أن « راتازيف » قد وجد لي عملاً مع مؤلف ، وكان « راتازيف » قد أتى إلي يحمل مخطوطاً سميكاً ، ... هذا عمل كثير والحمد لله ، وخط هذا المؤلف رديء لسوء الحظ . . . ، ولست أدري كيف سأتمكن من نسخه ولا بد من الانتهاء منه بسرعة على حين أنه قد كتبه بطريقة غريبة حتى لا يستطيع المرء أن يفهم النص المكتوب . وقد اتفقنا على أن يدفع أربعين كوبكاً عن كل صفحة أنقلها

لأنني أكتب إليك هذا كي أنبئك أنني سأحصل على المزيد من المال .
وداعاً يا حبيبتي فعلى أن أبدأ العمل الآن .

صديقك التخلص

ما كار



٢٣ من سبتمبر

صديق العزيز ماكار ألكسييفتش

لم أكتب إليك خلال تلك الأيام الثلاثة، ولكنني غابت فيها مشكلات. وهو ما كثيرة. فأمس الأول عاد دايكوف ولزيارتي، وكنت بمفردي إذ كانت فيدورا قد ذهبت إلى مكان ما وعندما فتحت الباب ذعرت أني لم أستطع حراكا، ولا بد أن وجهي قد شحبت شحوبا شديداً ودخل وهو يضحك ضحكته العالية المعمودة واتخذ مقعدا، وجلس. وأخيرا استعدت أنا رباطة جأشي، وجالست إلى عملي في ركن من الغرفة، وسرعان ما ذهبت ابتسامته عندما تفحصني بنظره، فرأى مقدار هزالي، وكيف غارت وجنتاي وعيناي، ولا بد أنني كنت شاحبة بيضاء كصفحة من ورق. ولعله يتعذر علي من رأي منذ عام مضى أن يتعرف على اليوم وجلس هو صامتا يمعن في النظر ثم عاد إليهِ مرحة، وقال شيئا ما ولا أذكر ما أجبته به وعاد إلى ضحكته وقضى هنا ساعة كاملة، يتحدث ويسألني أسئلة، ولما هم بالانصراف، تناول يدي، ثم قال [ولاني أنقل إليك كلماته بالضبط] ..

— أصرح بالحق يا فارفارا أليكسييفنا ان آنا فيدورفنا هذه —
قريبتك وأصدق معارفى — مخلوق شرير .

ثم اضاف إلى هذا كلمة بذئثة ، ومعنى يقول

— لقد اودت بآبنة عممتك ساشاء إلى الضلال ، وحطمت حياتك
انت ايضا . . اما انا فقد سلكت كآى نذل ، ولعله ضعف مشترك فى
كل الرجال . .

وضحك بأعلى صوته ، ثم قال : لأنه ليس بمن يحميدون الحديث وإن
كان قد قال أهم ما يريد فإن الشيء الذى اضطره إلى الحديث ، إنما هو
إحساسه بالشرف وإن كان ينوى اختصار حديثه . ثم اخذ يقول : لأنه
يطلب يدى ، وأنه يعتبر أن من واجبه أن يعيد إلى شرفى ، وأنه رجل
غنى وأنه سيمضى فى بعد زواجنا إلى بلدته فى الاسيبس حيث ينوى صيد
الأرانب البرية . وأنه ان يأتى أبدا بطرسبرج ففى مدينة قدرة ، وله فيها
ابن اخت سمي الخلق ، وقد أقسم أن يمنع عنه أى نقود وإن هذا هو
سبب زواجه . إنه يريد وريثاً من صلبه . ثم بدأ يتحدث عن معيشتى .
فأنا أعيش معيشة بائسة ، ولا أعجب من مرضى وهزالى مادمت أعيش
فى حفرة مثل هذه ، وتسكن بموق الوشيك لو أننى قضيت هنا شهراً
آخر ، ثم أضاف ان المساكن فى بطرسبرج قدرة وسألنى . هل هناك ما
أحتاج إليه ؟ وقد هز كيانى هذا العرض المفاجيء حتى لأننى بكيت ،

ولست أدري لماذا ؟. وأسأله هو فهم دموعي ؛ إذ ظننها تعبيراً عن عرفاني بجميله ، فأعلن أنه كان واقفاً على الدوام أنني فتاة طيبة حساسة متعلمة ، ومع هذا فقد ترددني اتخاذ هذه الخطوة حتى قام بتحريراته الدقيقة عني ، ثم سألتني عدة أسئلة عنك وأضاف أنه قد بلغه أنك رجل شريف وأنه لا يحب من جانبه أن يشعر أنه مدين لك ، فهل تكفي خمسمائة روبل لتعويضك عن كل شيء قتت به من أجلي ، فلما وضحت له أن ما قتت به من أجلي لا يقدر بمال غضب ، وقال : إن كل هذا لغوفارغ ، وأحاديث روايات كما سماها ، وأضاف قائلاً . إنني لا زلت صغيرة ولا شك ، انني مغرمة بقراءة الشعر ، وإن القصص والشعر كانا دائماً سلبياً في انحلال خلق الشبابات ، وإن الكتب بصفة عامة قد افسدت الأخلاق لذا فهو يحتقرها ، ولو كنت قد بلغت من العمر ما بلغ هو لاستطعت ان أحكم على الناس أصوب مما أستطيع الآن ، وعندما أبلغ عمره سأعرف حينئذ فحسب حقيقة الناس . ثم ألح على أن أمعن الفكر في اقتراحه ، فليس من الخير أن أتخذ خطوة مثل هذه دون تفكير وروية ، فالاندفاع وقلة التبصر هما على الدوام رذائل الشباب ، وطبيعي أنه يتلف على موافقتي وإلا فسيضطر إلى الزواج من ابنة تاجر في موسكو ، لأنه قد أقسم أن يحرم ابن اخته العاق الميراث ، ثم ترك خمسمائة روبل على إطار تطريزي على كره مني كي أشتري بعض الحلوى كما قال . ثم أكد لي أنني إذا ما مضيت معه إلى الريف فسأصبح سميناً وأعيش على خير

الأرض ، وهو جدد مشغول في الوقت الحالى وقد أنهك نفسه طيلة اليوم ، لهذا لقد استأذن منى منصرفا .

يا صديقى العزيز . لقد فكرت كثيرا في كل هذا ، وقاسيت كثيرا ولكنى اتخذت قرارى آخر الأمر : سأتزوج هذا الرجل ، يجب ان أوافق على عرضة ، فإذا كان فى استطاعة مخلوق أن يخلصنى من عارى ، ويعيد لى شرفى وسمعتى ويجنبنى مذلة الفاقة والصعاب والنكبات فإنه هو هذا الرجل لا غيره . وماذا أتوقع من المستقبل ؟ وماذا أتوقع من القدر ؟

إن فيدورا تقول : إن على الإنسان ألا يفقد فرصة للسعادة وإذا لم تكن هذه هى السعادة فما هى ؟ أما عن نفسى يا صديقى فلا أرى سوى هذا الطريق أمامى فأنا أعمل كثيرا حتى تدهورت صحتى ، هل أعمل إذن خادمة أو مربية أو تقتلنى الوحدة حتى لا أكون ذات نفع ، وقد ولدت ضعيفة البنية وكنت دائما عبئا على الآخرين ؟ إننى أدرك جيدا أننى لست ذاهبة إلى الجنة ، ولكن . ماذا أفعل ؟ أخبرنى بربك ماذا أفعل ؟ . وأى فرصة للاختيار عندى ؟

الواقع أننى لم أطلب نصحك إذ أردت أن أفكر فى هذا الأمر وأقرره وحدى ، والقرار الذى كتبته إليك ان يتغير وسأعلن بيكوف به ، وهو يلح على قاتلا . إن أعماله لا تستطيع الانتظار ، وإنه لا يستطيع تأخير الزفاف لأى سبب .

ويعلم الله هل سأجد سعادتي معه أو لا ؟ ولكنى سأוכל مصيرى إلى
إرادة الله وحده . ويقال إن بايكوف طيب القلب ، وإنه سيحترمنى
ولعلنى سأتعلم يوما أن أحترمه . فماذا أنتظر من زواج مثل هذا ؟

لقد أخبرتك بكل ما عندى ياما كار اليكسييفتش ، وأنا واثقة أنك
ستقدر موقفى . ولا تحاول أن تقعدنى عما عزمته ، فلن تنجح . وفكر
لحظة فى كل ما أدى إلى اتخاذ هذه الخطوة . وقد كنت قلقة أول الأمر ،
ولكنى أشعر بالهدوء الآن ، ماذا ينتظرنى ؟ لست أدرى ، فالمستقبل
غامض . ليسكن ما يكون . لشكن مشيئة الله .

لقد وصل بيكوف الآن ، لذا فلن أكمل هذا الخطاب وإن كان
عندى الكثير مما يقال .



٢٣ من سبتمبر

حييتي فارفار أليكسييفنا

أبادر للرد على خطابك يا عزيزتي وأعلن أنني في أشد حيرة ، ولا بد أن شيئا ما على غير مايرام ، وقد دفنا جورشكوف بالأمس .

نعم . . إن « يايكوف » قد تصرف تصرفا نبيلا ، لكن هل وافقت أنت حقا يا عزيزتي ؟ طبعي أن كل شيء لا يتم بغير إرادة الله لاشك أن هذا صحيح ، ولا بد أن هذا الأمر أيضا وفق مشيئة الله ؛ ووسائل الخالق مباركة وإن خفيت خفاء القدر . لاشك في هذا ، وفيدورا توافق أيضا .

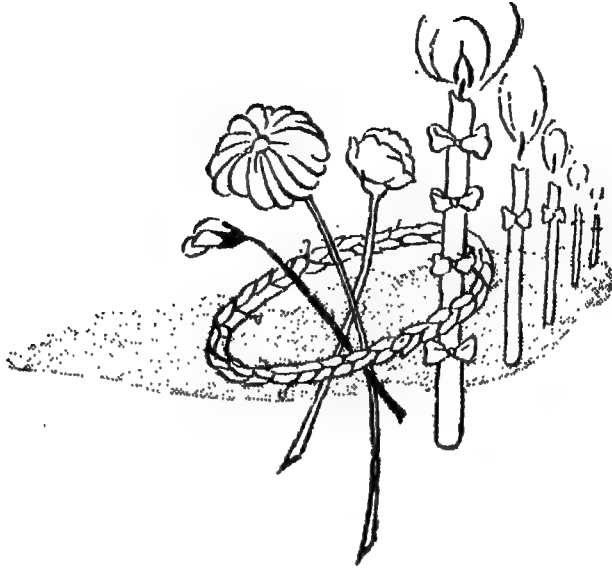
بالطبع أنك ستشعرين بالسعادة وتعيشين في بجموحة يا عايتي الصغيرة

الحبيبة .. ياملاكي الصغير الجميل — لكن فيم العجلة يا فارنكا ؛ نعم ..
إن أعمال مسر بايكوف تنتظر وطبيعي أن لكل شخص شئونه .. كل
شخص له عمل ينتظره ..

لقد رأيته وهو ينصرف ، إنه شخص يستطيع التأثير في الناس .. بل
أكثر من هذا .. ولكن لاشك أن هناك شيئا ما على غير مايرام . لست
أعنى أنه لا يستطيع التأثير في الناس بل أعنى اننى حائر تماما . كيف
يتأتى أن تبادل الخطابات ؟ وكيف أعيش وجيدا ؟ إننى أفكر في كل
شئونك كما طلبت مني أن أفعل ، إننى اجلس هنا طيلة وقتى وأفكر .
وكنت على وشك ان انسخ صفحتى العشرين من ذلك المخطوط عند ما
وصلنى خطابك . سترحلين إذن يا حبيبتي ولا بد أن تشتري كل ما تحتاجين
إليه : فساتين وأحذية وما إلى ذلك . إنى اعرف عملا في شارع جدرو
خوفايا ، ولقد سبق أن ذكرته لك من قبل .. أتذكرين ؟ ولكن
كيف سترحلين على الفور ؟ أى فكرة هذه ؟ أنت لا تستطيعين هذا .
إنه لمستحيل ! ويلزمك الكثير كي تشتريه ، وانت تحتاجين إلى عربة
أيضا ! والجو على غير مايجب : أنظري كيف تمطر ! كيف تتدفق
السماء انهارا ؟ هذا إلى انك ستصابين ببرد . وسيكون قلبك باردا أيضا ،
ألا تخشين أن ترحلى مع غريب ؟ وماذا سيقى لى ؟ إن فيدورا تقول
إنك ستسعين ، ولكنها امرأة معتوهة ، ولا تفكر إلا في تحطيمى .
هل ستحضرين صلاة العشاء ؛ سأذهب إليها لأراك . ولقد صدق

« بايكوف ، عند ما قال انك فتاة مثقفة حساسة فاضلة ، ولكنه سيفعل خيرا لو تزوج ابنة التاجر ألا ترين معى هذا يا عزيزتى ؟ ان يفعل خيرا لو تزوج ابنة التاجر ؟ سأتى لزيارتك إذا ما حل الظلام ، فالظلام يبكر الآن ولا بد أن آتى . ما إن يحين الغسق حتى أسعى اليك . إنك تنتظرين بيكوف الآن ؛ وعند ما ينصرف سأتى . انتظرينى يا عزيزتى فأنى سأتى لزيارتك .

ما كار دوفشكين



٢٧ من سبتمبر .

صديق العزيز ما كار

يقول مستر « بايكوف » ، إنه يجب أن يكون عندي ثلاث دست من القمصان المصنوعة من الحرير الهولندي ، لذا فعلى أن أجد خياطة تفصل لي دستتين فما عاد هناك وقت ، إن مستر بايكوف ثائر وهو يقول إن ملابس الرثة تثير أعصابه . وزفافنا سيتم بعد أيام خمسة ، وفي اليوم التالي سنرحل . فمستر سيكون في عجلة من أمره ، ويرى أنه من المحجل أن نضيع الكثير من الوقت . وقد تجولات كثير آ حتى لا اكاد استطيع أن أقف على قدمي ، فهناك الكثير مما يجب عمله — الكثير جداً ، حتى أنني لأفضل أن أتركه دون أن أتم عمله ، شيء آخر ان ماعندنا من

الشرائط والدانتلا لا يكفي وما من أحد يبتاعه لنا . إن مسترد بايكوف ، يقول : إنه لا يجب أن تبدو زوجته مثل خادمة في مطبخ ، وإنني لابد أن أجدع أنوف سيدات المنطقة كلها .

فهل تستطيع أن تذهب إلى « مدام شيفون ، في شارع «جوروخوفايا ، تطلب إليها أن تبعث إلينا خياطة أو تتكرم هي نفسها بالحضور . إنني لست بخير اليوم فشقتنا الجديدة باردة وغير مرتبة على الإطلاق ، ولماستر بيكوف عمة عجوز مريضة حتى لاخشى أن تموت قبل رحيلنا وإن كان مستر بيكوف يقول : إن هذا لا يهم ، ولكنها ستسترد صحتها فيما بعد . كل شيء هنا في اضطراب ؛ مستر بيكوف لا يعيش هنا ، والخدم يتغيبون دائماً ، ويعلم الله أين يغيبون . وثمة أوقات لا يكون فيها غير فيدورا تقوم بالعمل كله وحدها . أما وصيف مستر (بايكوف) وهو الذي يدير كل شيء هنا فقد منح اجازة تستغرق ثلاثة أيام . ويأتي مستر بايكوف إلى هنا كل صباح ، وهو غاضب دائماً . وبالأمس ضرب وكيله ضرباً مبرحاً بما أوقعه في مشكلة مع الشرطة . إنني لم أجد من يحمل خطابي إليك لذا سأرسله بالبريد .

لقد كدت أنسى أهم شيء « قل لمدام شيفون ، أن تغير النموذج وفقاً لعينة الأمس ، ولعلها تستطيع أن تأتي بنفسها وتريني النماذج الحديثة وأخبرها أيضاً أنني غيرت رأي وأريد الحروف على المناديل مطرزة

وليسست بغرزة الساتان . إن الكلمة هي مطرزة هل ستذكرها .
وكدت أنسى شيئاً آخر ، أرجو أن تخبرها أن تكون حواشي المعطف
الفرو عالية ، وأن تضفر ياقاته وأن تحلى الأطراف بالذئلا أو الشريط
العريض . أنك لن تنسى . أليس كذلك ؟ .

المخلصة

ف . د

ملاحظة : إننى خجلة من إرهابك بهماتى وأول أمس أيضاً كنت
تجرى هنا وهناك طيلة الصباح ؛ واسكنى مضطراً إلى هذا ؟ فليس هنا ولو
ظل من النظام وأنا مريضة ، فلا تغضب منى يا مكار اليكسيفتش .
إننى منقبضة القلب ، ماذا سيكون مصيرى يا صديق العزيز العطوف . إننى
أخشى أن أطلع إلى المستقبل إن المجهول يقلقنى ، ويجعلنى أعيش
فى حيرة .

ملاحظة أخرى : أرجو ألا تنسى ما طلبته منك ، وأخشى أن تخطئ
لا تنس مطرزة وليسست بغرزة الساتان .



٢٧ من سبتمبر

عزيرتي فارفارا اليكسييفنا

لقد نفذت كل تعليماتك بدقة . وقد أخبرتني « مدام شيفون » أنها
ستطرز الحروف بنفسها ، وهذا أكثر ملاءمة أو لعلها قالت شيئاً آخر
لا أفهمه جيداً . ثم قالت شيئاً ما عن ألكسانافاه ولكنني نسيت

مما قالت ، كل ما أذكره أنها تحدثت كثيرا عن الكانافاه إنها عجوز
بجنونة مزعجة ! وأى شيء آخر تحدثت عنه ؟ لعلها من الأفضل أن تحبرك
بمنفسها ، فأنا أموت تعباً من الجرى هنا وهناك ، ولم أذهب إلى الديوان
اليوم . ولكن لا تقلقى بسببى يا عزيزتى فأنا مستعد أن أعدو إلى كل محل
في المدينة . إذا كان في ذلك راحتك . تقولين إنك تحشين المستقبل ،
ولكن لا تبتسى يا عزيزتى فلعل كل شيء يسير إلى أفضل ، لقد وعدت
مدام شيفون أن تأتى في الساعة السابعة ، ولكن لا أستطيع أن أطرد
هذا الكانافاه الملعون من ذهني ، كانافاه . سأتى لزيارتك يا عزيزتى ،
سأتى بكل تأكيد ، بل الحق أننى مررت بباب منزلك مرتين ولكن
بايكوف — أعنى مستر « بايكوف » غاضب دائماً حتى . . لأننى
حسناً . لا أستطيع ذلك فحسب .

ماكار دوفشكين



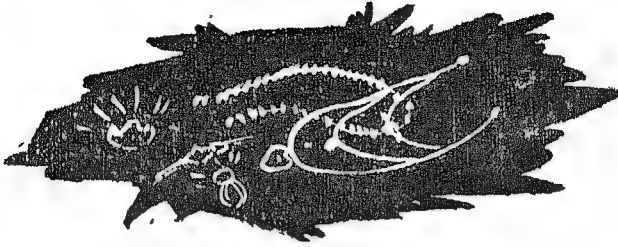
٢٨ سبتمبر

عزيزى مكار أليكسييفتش

أرجوك أن تسرع إلى محل الجوهري على الفور وتخبره ألا يصنع
هذه الأقراط من يا قوت ولؤلؤ ، فستر « بايكوف » يقول : إن ثمنها
باهظ تماما . وهو حائق ويقول إنه قد أنفق الكثير وأن أمواله تسرق
منه . وبالأمس قال أيضاً إنه لو كانت قد قدر مثل هذه التسكاليات
ما ورط نفسه قط ، ثم قال : إنه بمجرد أن نتزوج سنرحل ، وإن
نستقبل المهنيين وإننى يجب ألا أتوقع حفلا راقصاً أو مأدبة ؛ فما عادت
هناك فرصة للاحتفال . . .

هذه هي الطريقة التي يتحدث بها . ويعلم الله أني لا أعبأ بهذا كله
قط وأن مستر « بايكوف » نفسه هو الذي أمر بها . ولم أرد عليه فهو
سريع السخط . ترى ماذا سيكون من أمري . ؟

ف . د



٢٨ من سبتمبر

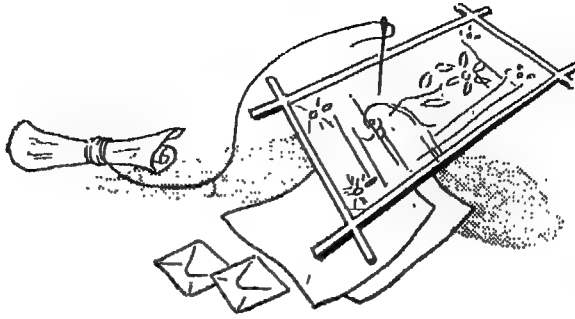
طفلي المحبوبة ، فازفارا أليكسيفنا

لاني . . أعنى أن كل شيء قد تم بخير بالنسبة للجوهري ، أما عن
نفسى . فقد أردت أن أقول أولا لاني مريض لا أبارح فراشى ، وباللحظ
اللعين ! لا أمرض إلا عندما يصبح من الضروري القيام بأعمال كثيرة .

ومما يزيد من شقائى أن سعادته قد ثار حديثا وصرخ فى يميليانز
إيفانوفتش حتى بهرت أنفاس المسكين . هذا ما أحبت أن أخبرك به .
وكم كنت أحب أن أطيل الكتابة ، وإن أخشى أن أسبب متاعب لاداعى
لها ، وأنا رجل بسيط ، ولست بالخاذق قط ، وأكتب ما يخطر بالبال :
حتى إنك لتجدين بعض ما أخطه على غير ما ينبغي أن يكون . على أى حال .
ليس لهذا أهمية فعلا .

المخلص

ماكار دوفشكين



٢٩ من سبتمبر

فارارا أليكسيينا، يافتاقي الصغيرة العزيزة :

قابلت اليوم فيدورا وعلبت منها أن زفافك سيعقد غدا ، ثم سترحلين بعد غد ، وأن مستر «بايكوف» قد استأجر الخيل فعلا. ولقد أخبرتك بهذه الأنباء عن سعادته ثم ماذا .. نعم . . لقد راجعت هذه الفواتير التي أرسلها ذلك المحل في «جورو خوفايا» وكلها ضخمة ، ولكنها فاحشة الثمن . لماذا يغضب مستر «بايكوف» منك ، على أية حال لتسعدى إلى الأبدي يا حبيبتي ، وسيسعدني أن أعلم أنك سعيدة ، وكنت أود أن أحضر حفل الزواج لولا آلام ظهري .

وإذا عدنا إلى ذكر الخطابات ، فن سيجملها إليك ، فيدورا ، . لقد عاملتها معاملة طيبة ، فأنت عطوف وسيباركك الرب لهذا ، فلا بد أن يكافأ الخير ، ولابد أن تحظى الفضيلة بشرف التقدير الإلهي .

حبيبتي — حبيبتي الوحيدة . إنني أحب أن أكتب إليك كل ساعة

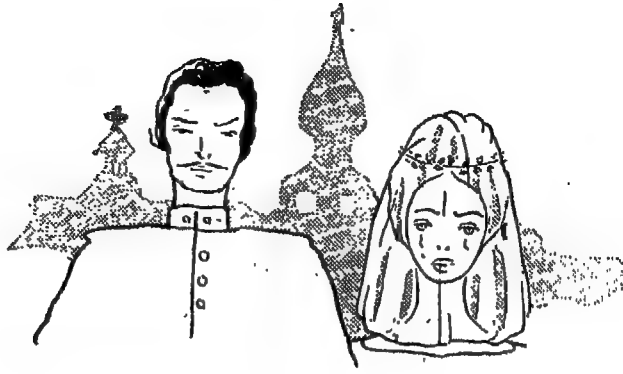
كل لحظة — وعندي كتابك « حكايات إيفان بلكين » ، أرجو أن تترك
هذا الكتاب معى يا عزيزتى ، لا لأنى أحب أن أقرأه كثيراً ولكن كما
تعرفين قد اقترب الشتاء وستكون أمسياته طويلة موحشة حزينة ،
وسيكون هذا هو الوقت الذى تستحب فيه القراءة .

سأنتقل من غرقى إلى غرفتك القديمة حيث تعيش فيدورا الآن ،
فإن لن أفترق قط عن هذه المرأة الشريفة . وأنت تعلمين كم هى
نشيطه .

ولقد زرت بالأمس حجرتك الخاوية . . وأخذت أذرعها وأأمل
الأشياء . . وهناك . . فى ركن من الأركان رأيت إطار تطريزك
الحبيب بل إن به قطعة كنت تطريزنها . . وتأملت . . ثم رأيت أشياء
أخرى كثيرة ، وأسعدنى كثيراً أن أراك استعملت إحدى خطاباتى
كمسلسكة تلقين عليها خيط الحرير ، وعلى المنضدة أيضاً وجدت قطعة من
ورق قد خطت فيها كلمات قلائل : « عزيزى ماكار أليكسييفتش . .
لأننى أسرع . . »

لا بد أن شخصاً ما قاطعك عندئذ ، وفى ركن الغرفة خلف الستار
رأيت سريرك الصغير يا يمامتى الصغيرة العزيزة المسكينة . .

أخيراً وداعاً . . وداعاً يا عزيزتى . . أرجو ألا تبطئ فى الرد .
ماكار دوفشكين



٣٠ من سبتمبر

ماكار أليكسييفتش ، يا أخاص الأصدقاء وأبقاهم

لقد انتهى الأمر ، وقضى الله أمراً كان محتوماً ، ولست أدري
ماذا ينتظرنى ، ولكنى سأخضع لمشيئته .

سرحل غداً وها أنذا أكتب هذه السطور لأودعك ، يا أصدق
أصدقائى ، يا صاحب الفضل على ، ياروحى . لا تحزن لفراقى ، واهناً
بحياتك واذكرنى ، وليكن الله معك دائماً . سأذكرك ، وسأذكر اسمك
فى صلاتى دائماً ، وهكذا تنتهى حياتى التى عشتها هنا ، والكثير مما سأذكر
هنا لن يمتحنى إلا القليل من العزاء فى المستقبل ولكن أعز الذكريات
إلى نفسى ستكون ذكراك ، فأنت صديق الوحيد ، الشخص الوحيد
الذى أحبنى .

لقد رأيت وعرفت أنك تحبنى ، وكانت ابتسامة منى أو سطر أكتبه

يكنى كى يجعلك سعيدا ، والآن عليك أن تنساني . . كم ستكون وحيدا ؟
ومن سيكون إلى جانبك يواسيك ؟ يا صديقى الوحيد العطوف . سأترك
لك الكتاب وإطار التطريز والخطاب الذى بدأته ذات يوم ولم آتمه .
أعد قراءة السطر الأول ثم تخيل ما يرضيك تنمة له ، فالله وحده .
يعلم ماذا كنت سأكتب . تذكر حبيبتك فارنكا التى أحبتك كثيرا . لقد
تركت كل خطاباتك فى الدرج الأعلى من صيوان ملابس فيدورا .

كتبت إلى تقول إنك مريض ، ولكن مستر « بايكوف » قد منعنى
عن الخروج اليوم ، سأكتب إليك طبعاً ، ولكن الله وحده يعلم ماذا
سيحدث ، وعلى هذا فن الأفضل أن أودعك الآن يا حبيبى وكفى .
كم كنت أحب أن أعانقك ! .

وداعاً يا صديقى . وداعاً . اعتن بصحتك وعش سعيداً على الدوام
وسأصلى من أجلك . إن قلبى لينفطر حزناً . .

ومستر « بايكوف » ينادى

التي تحبك إلى الأبد

ف

ملاحظة : روحى مفعمة جد مفعمة بالدموع . وتكاد العبرات
تخفقى . . وداعاً . .

تذكر حبيبتك فارنكا المسكينة . .



٣٠ من سبتمبر

فارنكا : عزيزتى وحياتى وحييتى ..

لقد انتزعت منى انتزاعاً وها أنت ذا راحلة .. كنت أفضل لو انتزعوا قلبي من صدري ! كيف سمحت لهم أن يفعلوا هذا ؟ أنت تيكنين ومع ذلك ترحلين . ولا زال خطابك الذى وصل إلى الآن تبلىه الدموع اذن فأنت لا تودين الرحيل فعلاً ، إذن لأنهم يرغمونك على الرحيل و أنت آسفة من أجلى .. انت تحبيننى . من ذلك الذى سيعنى بك الآن ستخيم على قلبك الصغير البرودة والشجن ، سيأكله الأسى ، ويحطمه الشجن ، وتموتين هناك وحيدة ويدفنونك فى الأرض الباردة ، وما من أحد يبكى فوق قبرك ، فسيكون مستر « بايكوف » مشغولاً بصيد أرانته .

آه ، يا حبيبتى ، كيف استطعت أن تتخذى مثل هذه الخطوة ؟ ماذا فعلت ؟ أى ضرر ألحقته بنفسك ؟ لأنهم يمضون بك إلى القبر ، لأنهم

يطردونك من الحياة ، فما أنت إلا مخلوقة رقيقة كريشة صغيرة يا حبيبتي وأين كنت أنا ؟ ماذا كنت أفعل ؟ لقد قلت لنفسى إن الطفلة مريضة ، وبرأسها خيالات . كان من واجبي . . . ولكن كلا ! لقد تصرف كأمى أحق ، فلم أفكر فى شيء ، ولم أقرر شيئا ، كأنما الأمر لا يعنينى . . يا إلهى . . بل لئن كنت أركض هنا وهناك أبحث عن « الكنافاة » .

كلا يا فارنكا . سأنهض من فراشى ، سأشقى غدا وسأنهض من فراش مرضى ، وسألقى بنفسى تحت عجلات عربتك ، ولن أدعك ترحلين ! فهذا ظلم . وأى حق لهم أن يأخذوك منى ؟ سأذهب معك وسأجرى وراء عربتك إذا لم تأخذينى معك ! سأجرى حتى تخور قوائى وأسقط على الأرض .

ولمى أين ترحلين ؟ أتعرفين ؟ سأخبرك . إنك ذاهبة إلى الإستبس — الإستبس العازية الجرداء ككف يدى . فمن سترين هناك ؟ زوجات الفلاحين اللواتى أنهكن العمل الشاق ، وأزواجهن السكارى . حتى الأشجار هناك قد فتتها المطر والبرد . هذا ما أنت ذاهبة إليه !

أما مستر « بايكوف » ، فسيكون مشغولا يصطاد أرانبه البرية وأنت ، أتريدين أن تكونى زوجة مالك للأرض يا عزيزتى ؟ إذن فانظرى لنفسك يا ملاكى الصغير ! أتشبهين على الإطلاق زوجة مالك للأرض ؟ من الواضح أنك ليست كذلك يا فارنكا ! ولمى من سأكتب خطاباتك بعدك ؟ هل راجعت نفسك وفكرت ؟ إلى من سأكتب ؟ من سأناديه

قائلا « فارنسكا » ؟ من سأناديه بهذا الاسم العذب ؟ أين سأجدك
يا ملاكى ؟

لأننى سأموت قطعاً يا فارنسكا فلن أستطيع إطلاقاً أن أتحمل مثل هذه
الصدمة . لقد أحببتك كما أحب ضوء النهار . أحببتك كأنما أنت ابنتى
أحبت كل شىء فىك ، وكل شىء يتعلق بك ، بل لقد عشت لك لحسب
يا حياى . .

كنت أعمل وأنسخ أوراقى وأنزله وأدون ملاحظاتى فى خطابات
جميلة ، لأنك كنت قريبة منى لحسب ، ولعلك لم تدركى ذلك أبداً ،
ولكن هكذا كان الأمر . استمعى إلى يا فارنسكا : كيف يتأتى لك أن
ترحلى عنى ؟ أنت لا تستطيعين ، فهذا مستحيل ، لا مجال للتفكير فيه إن
السماء تمطر وسيصيبك برد بالتأكيد — وأنت جد ضعيفة شاحبة ولا شك
أن سقف العربى سيمتلئ بالثقوب ، وستتخطم العربى ستتخطم بالتأكيد
فى اللحظة التى تغادرين فيها المدينة لك أن تتوقعى هذا يا عزيزتى فما يشغل
صناع العربات فى بطرسبورج سوى آخر طراز . والأهداب الأنيقة ،
ولكنهم لا يستطيعون أن يلبسوا عربى قوية . . أقسم أنهم لا يستطيعون .
. . سأركع على ركبتى أمام مستر بيكوف يا حبيبتى ، سأثبت له
أنه لا يستطيع أن يختطفك منى ، سأثبت لهم جميعاً هذا ، وأنت يا حبيبتى
يمكنك أنت وهو أن تتفاهما أيضاً ، قولى له إنك لا بد أن تقيعى هنا ،
وأنك لا تستطيعين الرحيل .

لماذا لم يتزوج ابنة ذلك التاجر فى موسكو ؟ خير له لو كان قد

فعل .. فابنة التاجر أنسب له ، أنسب له كثيرا . أنا واثق من هذا ، وعندئذ يمكنك أن تقيمي هنا معنا .

ولماذا تحتاجين إلى مستر بيكوف ؟ كيف استطاع أن يدخل قلبك ؟ ليس بسبب ، الكانافاة ، بالتأكيد: فلا هي ، الكانافاة ، آخر الأمر ؟ .. ولكن لماذا أذكر ، الكانافاة ، ؟ . إنها حماقة يا حبيبتي ، فهذا موضوع حياة أو موت وليس موضوع « كانافاة » ، فما الكانافاة إلا قطعة من قماش : الكانافاة خرقه تافهة لحسب . أنتظري حتى أقبض مرتبي ، وسأشتري كل الكانافاة التي تحتاجين إليها يا حبيبتي . سأشتريه من ذلك المحل . أتذكرينه ؟ .. أنتظري فقط حتى أقبض مرتبي يا ملاكي العزيز . آه يافار فارا .. يا إلهي .. وهكذا لابد أن ترحلي مع مستر بيكوف وإلى الأبد ؟ آه يافار نكا .

كلا .. يجب أن تكتبي إلى خطابا آخر لحسب .. خطابا واحدا . واكتبي إلى من الأسبس مرة أخرى . فإذا لم تكتبي فإن الخطاب الذي وصل إلى الآن سيكون هو الخطاب الأخير : وهذا محال ، لا يمكن أن يكون الأخير كيف يمكن أن يكون الأخير ؟ الأخير — فجأة .. كيف ؟

ولكني سأكتب إليك مهما كان الأمر ، وستكتبين إلى أنت أيضا . وأسلوبني يتخذ له شكلا ويتضح الآن . أسلوب .. أي أسلوب ، لأنني لأعرف ماذا أقول .. وماذا أكتب .. ولكن هذا لا يهمني مادمت أكتب وأكتب واستمر في الكتابة .. يا يمامتي الصغيرة — يمامتي الفريدة الوحيدة .. يا حبيبتي ! ..



المؤلف

فيدور ميخايلوفتش دستوفسكى
من كبار أدباء روسيا فى القرن التاسع
عشر ، ولد فى موسكو سنة ١٨٢١
وتخرج فى مدرسة الهندسة العسكرية

ولكنه تفرغ للحياة الأدبية وامتاز بالقدرة على البناء الدرامى
للقصة ، وعلى تصوير نماذج بشرية خالدة ، وفى سنة ١٨٦١
اشتغل دستوفسكى بالصحافة ومن أشهر أعماله « الجريمة
والعقاب » و « العبيط » و « الأخوة كرامازوف » التى نشرت
عام ١٨٨٠ .

وقصة « المساكين » هى أولى قصصه الطويلة وتعد قوة
جديدة فى الأدب الروسى وهى مهداة الى البائسين من الناس
الذين طحتهم ظروف الحياة القاسية فأثروا العزلة عن المجتمع .
واحتفلت روسيا بوفاة دستوفسكى سنة ١٨٨١ .